



ميرنا المهدي

قضية مخاللة النقط

رواية

تحقيقات نوح الألفي



@ART_OF_BOOK



@ART_OF_BOOK

إهداء

يعتقد فرويد أن التجارب التي يعاصرها المرء منذ
تكوينه في رحم أمه وحتى بلوغه سن السابعة، هي
أساس عُقده النفسية.
هذه الرواية مهداة إلى الآباء والأمهات الذين حاولوا
ألا يكونوا سبباً في هذه العقد.

تمهيد

لعلك تعرفني من قبل، وإن كان هذا تعارفنا الأول، فدعني أقدم
إليك نفسي في ثلاث نقاط:

- أدعى نوح الألفي.
- أنا ضابط في المباحث الجنائية في منطقة قصر النيل.
- أنا ميت، تقريباً...



@ART_OF_BOOK

١ نوح

فاحت في الجو رائحة ليمون جذابة.
لا أعرف مصدرها، ولا لماذا تطفئ على حواسي بهذه القوة، كل
ما أعرفه أنها أيقظتني من سبات عميق. استعدت إحساسي بجسدي،
أو بمعنى أدق، إحساسي بالخدر الشديد الذي بسط سلطانه عليّ وأنا
مستلق على سطح معدني مُنبعج غير مريح بالمرة.
شعرت بسائل لزج يتسرب من جذعي ووجهي فتلمسته بأناملتي،
ثم فتحت عيني لأبينه، لكنني لم أرَ إلا سوادًا يحيط بي من كل جهة.
أطرقت السمع، فلم تلتقط أذناي صوتًا من حولي. حاولت رفع
رأسي، لكن الإرهاق أجبرني على ملازمة مكاني في حضرة الصمت
والظلام، كأن الفناء طواني والعدم ابتلعني.
العدم؟! ما هذه المبالغة يا...

يبدو أن موتتي الصغرى أنستني اسمي! ربما إذا بقيت مستلقيًا
فسأخلص من آثار النعاس، وأستفيق متذكرًا كل شيء. حسنًا، فيم
كنت أفكر؟ نعم، العدم.

غياب الشيء لا يساوي العدم المطلق، قد يساوي حضور مضاده.
وبما أنني أشعر بغياب كل علامات الحياة من حولي، أعني هذا أنني
مُتُّ؟

جثمت هذه الفكرة المربعة على صدري، فاستشعرت رجفة
تسلل إلى أطرافني، وتستنهضني للتمرد على خدري، لكنني عجزت
عن القيام من مضجعي، كأن عمودي الفقري انصهر مع المعدن
الذي أستلقي عليه.

استدعيت كل قوتي لأقاوم ثقلي، حتى تمكنت من الانقلاب على
جانبي الأيسر، فخرجت مني صيحة انتصار دَوَّت في الفراغ. لم يَدُم
احتفالي، سرعان ما سقطت على بطني من دون أن أشعر بالألم البدني
المتوقع من الارتطام بالأرض.

تحسست الأرض الخشنة من تحتي، هذه ليست أرضية خشبية،
ولا سجادًا، ولا بلاطًا، ولا حتى رمالًا. هذا أسفلت شارع، لست
مدفونًا في قبر إذن!

نهضت أتأمل سكون محيطي بتوجس شديد، حتى فاحت
رائحة الليمون الجذابة مجددًا، فتولدت عندي رغبة ملحة في
تتبعها. لكن، من أين أبدأ؟ وكيف سأسبر أغوار هذا الظلام الذي
لا أرى فيه كافيًا؟

كأن هناك من أنصت إلي تساؤلًا تي، وقرر أن يمد لي يد العون.
انبثق من نهاية الطريق نور يخترق الظلام السرمدي، وكسرت الصمت
الموحش أنغام أكورديون وإيقاع طبلية، يصاحبهما صوت يغني ببهجة
كأنه يناديني.

هنا أهو هنا أهو هنا هنا أهو

تتبعت النور والموسيقى، حتى تبينت أن مصدرهما عمارة
كلاسيكية الطراز. توقفت عند عتبة بابها، ومددت رأسي نحو مدخلها
باحثًا عن أي شخص يشرح لي أين أنا، فألقيت السلام عسى أن أجد
مجيئًا.

تردد صدى صوتي، ولم أتلق إجابة، فزاد ارتيابي، وكدت أراجع
عن فكرة الولوج إلى العمارة، لكن استوقفتني مواء قط يهبط درجات
السلم، يغلب عليه اللون الأسود، فيما عدا البياض في صدره وخطمه.
اقترب مني بهيبة ملكية حتى وقف أسفل مصباح كبير، ونظر إليّ
بعينين صفراوين واسعتين، ثم ابتدار وهو يموء بحزم كأنه يأمرني
باتباعه.

انصعت لأمر القط، ودخلت العمارة بخطى متقاربة، ثم صعدت
درجات السلم التي تقابلها نوافذ ضخمة، لزجاجها نمط ماسي ملون
يجعل ضوء الشمس الذي يتخلله يسقط على السلالم كقوس قزح
مبهج.

لم يثر هذا المشهد المريح للبصر اندهاشي، يبدو أنني اعتدت
رؤيته، ويبدو أيضًا أن يدي تألف ملمس الدرايزين الخشبي العريض،
وساقي تحفظان المسافات بين درجات السلم.

* * *

قادني القط إلى شقة في الطابق الرابع، يتسلل فيها نور شمس
العصاري المريح للنفس، وينبعث منها صوت المغني الذي قلل
توترتي، وتفوح منها رائحة الليمون بجاذبية طاغية.

دخلتها، فكان أول ما لفت انتباهي طاولة خشبية أنيقة عليها مروحة
زرقاء، وجهاز كاسيت ماركة «ناشيونال» تخرج منه الأغنية التي قادتني
كلماتها إلى هنا. تمايل رأسي، واهتزت قدماي على إيقاعها، وبدأت
أدندن كلماتها بطلاقة. هل سمعت هذه الأغنية كثيرًا إلى درجة أنني
أتذكر مقطعًا كاملًا منها بينما لا أتذكر اسمي؟
ماذا كان اسم مغنيها؟ عظيم؟ كريم؟ لماذا أشغل بالي بتذكر اسمه
الآن؟ أين أنا؟

وضعت يدي على خصري، ووقفت أتأمل الشقة المألوفة لي
أكثر من اللازم.

أذكر أنني اعتدت الركض حول هذه السفارة البيضاء العامة
بالطعام، وجدي ينهاني عن هذا وهو يقرأ الجرنال، ويترك عكازه
الأسود المَطْعَم مقبضه بالفضة عند مسند مقعده.

أكلت من ساندويتشات مربى التوت التي تتراص بشكل هرمي
في طبق الأركوبال الأبيض، وساعدت أمي في تزيين الكعك
بالكرز الصناعي الأحمر اللامع، ولعقت إصبعي الملطخة بصوص
الشوكولاتة وكريمة الخفق الدسمة.

أذكر تذكيري من الوقوف مع جدتي في طابور حلواني راقٍ، لا
أذكر اسمه، لنشتري منه المعجنات الموضوعة أمامي الآن عند يمين
السفرة، وأذكر أن أبي أحبط محاولة سرقتي لزجاجة سبيرو سباتس
من صندوقها المجاور للنيش المذهب.

أذكر طفولتي هنا، وأذكر الزينة الفضية الزغبة التي تمتد من الجدار
إلى الجدار، والشرائط الذهبية المتدلّية من السقف تتلوى كالثعابين

مع نسيمات الهواء المتسللة من خلف ستائر الأورجانزا البيضاء التي
عبثت بنقشة الوردات الحمراء الرقيقة عليها، حتى أفسدت خيوطها.
قضيت سنوات براءتي في هذه الشقة، شقة أبي التي أغلقنا أبوابها
بعد موته، ولكن كيف أقف فيها الآن وهي على الصورة التي كانت
عليها في فترة التسعينيات! لقد تخلصت من كل هذا الأثاث، وعدلتها
بما يليق بذوق...

اللعنة! ماذا أصابني حتى أنسى اسم خطيبتي!
شعرتُ بعدم الاتزان، فتراجعت حتى ارتطم ظهري بالنيش
المُذهَّب. أتلفت حولي بارتياح حتى ماء القط الذي نسيت أنه
رفيقي في هذه الرحلة المريعة، ورأيت يتسلل بخفة بين الستائر ليدخل
الشرفة.

تركت الصلاة بتفاصيلها وذكرياتها، وجذبت الستائر فقابلني
الظلام. ليس ظلامًا داميًا كالذي استقبلني حين استيقظت، بل ظلام
ليل القاهرة الذي يغمر الشرفة بحميمية.
فور أن تخطيت العتبة الفاصلة بين شمس الصلاة وقمر الشرفة،
شعرت ببابها الزجاجي الجرار يصفق ورائي من تلقاء نفسه، ثم تلاشي
أزيز المروحة، وتوقفت الموسيقى، ولم أعد أسمع إلا صوت ملعقة
تقلب سائلًا في كوب، ودندنة رجولية مرحة:

إحنا الحبايب إحنا.. ولّا نسيتم

جاين عشان نسأل.. نسأل عليكم

وجدت على يميني رجلين على كرسيين متقابلين بينهما طاولة
أنيقة، تتوسطها رقعة شطرنج، يجاورها فنجانان خزفيان أبيضان.

أحد الرجلين عجوز يقلب فنجانة الذي تفوح منه رائحة الشاي،
بينما يعصر عليه نصف ليمونة كانت السبب في وصولي إلى هنا،
يجاور كرسيه عكاز وكلب جيرمين شيرد.

أعرف هذا العجوز الأصلع صاحب الشارب الكث الذي غزاه
الشيب والملامح الدقيقة التي تنتمي إلى عصر راقٍ ولئى وانتهى. أذكر
نظاراته الطبية المستديرة ذات الإطار الفضي، ومنامته الكلاسيكية
الأنيقة بلونها الأزرق النيلي، وفوقها روب النوم الحريري الكحلي
ذو الخطوط الطولية الفضية، إنه المرحوم جدي.

ارتشف شايه، وتحسس صلعته وهو يحدق إلى رقعة الشطرنج.
من خلال عدد القطع السوداء العاجية الفاخرة المرسومة على
يساره، فهمت أن خصمه متقدم عليه تقدمًا مخزيًا.

كان خصمه موليًا ظهره إليّ فلم أتمكن من رؤية وجهه، لكن لفت
نظري شعره الأسود القصير الذي يتماشى مع خط عنقه بانسيابية
لافتة، وسترته الصوفية الملونة، وبنطاله الجينز، وحذاؤه الرياضي
الأبيض.

كنت سأقرب منه لأتبين ملامحه، لكن سبقني القط وهرب نحو،
ثم قفز إلى حجره، فأعانه الرجل على الاستقرار على فخذه، وداعب
رأسه مستمرًا في الغناء بطريقة مشاكسة.

أمسك جدي البيدق ليحركه، ثم توقف مثبتًا يده في الهواء وهو
يحك صلعته بتردد، فضحك منه خصمه واستأنف دندنته العذبة، مما
دفع جدي إلى الصياح فيه بصوته الجمهوري المهيب:

- مش عارف أركز من أغانيك السوقية دي!

- حكيم أغانيه سوقية يا حسين باشا؟!

حكيم، نعم، هذا اسم المطرب!

اللجنة! أقصد حسين، هذا هو اسم جدي، حسين الألفي.

قال جدي وهو يضع البيدق في الخانة المنشودة:

- لغينا الباشوية يا أخينا.

استولى بالبيدق الأسود على حصان خصمه الأبيض وهو يضحك

ضحكة وقورًا مغلقة بالشماتة، ثم قال:

- العسكري أكل حصانك يا اللي حاسب حالك أذكى الرجال.

أجابه خصمه بهدوء شديد:

- الشطرنج مش عايز راجل ذكي.

- أو مال عايز إيه يا كروديا؟

- عايز راجل صاحي ومدقق.

حرّك قطعة الرخ طوليًا، فاقتنص بها بيدق جدي الذي أكل حصانه

منذ قليل.

ضحك جدي ضحكة يحتقر بها هجوم خصمه، ثم علق:

- حلال عليك العسكري.

- وحلال عليك الكش ملك.

نظر جدي إلى رقعة الشطرنج من كثب، ثم رفع رأسه نحو خصمه،

وقد استحالت سخريته إلى خليط من الصدمة والغضب جعل وجهه

يحتقن بالدماء.

ضحك الخصم ضحكة ظافرة رنانة، فصاح فيه جدي:

- بتكيد أبوك يا يحيى!

أغسطس ٢٠١٩



@ART_OF_BOOK

فور أن سمعت اسم «يحيى» وجدت أفكاري تتسرب من بين
شفتي لتعلن عن نفسها بصوت مسموع:

- بابا؟!

نظر جدي إليّ مندهشاً، بينما استدار خصمه الشاب ناحيتي فرأيت
وجهه أخيراً.

تعرفت عليه فوراً: بشرته الخمرية، ذقنه الحليق، غمازاته، أنه
الدقيق، عيناه العسليتان المتقدتان بالحماسة. كيف أنسى وجه أبي
حتى وإن كان قد رحل وأنا في عمر العاشرة؟

الآن فهمت ماذا يحدث، لست في رحلة إلى الماضي، ولا ضحية
لفقدان الذاكرة، أنا أحلم بجدي المرحوم وأبي الشهيد.

قطب أبي حاجبيه، وسألني بنبرة عتاب:

- إيه اللي جابك بدري كده يا نوح؟

هذا هو اسمي، نوح يحيى حسين الألفي.

نظر جدي إلى نصف الليمونة الجاف بجوار فنجان شايه، ثم رفع
رأسه نحوي، وسألني:

- إنت جيت على ريحة الليمون؟

هزرت رأسي بالإيجاب، فسأله أبي بفضول طفولي:

- إيه حكاية الليمون دي يا بابا؟

- ملكش دعوة إنت.

تقبل أبي زجر جدي له بصدر رحب، وحمل قطه ليعدّل وضعه

كرسيه ويوليه نحوي، ثم قال:

- قابلت حسونة القط؟

قَبْلَ رَأْسِ قَطْعِهِ، ثُمَّ لِحْقِ هَذَا الْإِسْتِفْهَامِ بِآخِرِ:

- إِنْتَ جِيتَ هُنَا إِيْزَايَ صَحِيْحٌ؟

هَلْ يَصِحُّ أَنْ أَخْبِرَهُ بِأَنَّهُ مَجْرَدُ شَخْصِيَّةٍ فِي حُلْمِي وَأَفْسَدُ شُعُورِ
الْوَنَسِ الَّذِي أَسْتَمْتَعُ بِهِ الْآنَ؟

اسْتَعْرِقْتُ كَثِيرًا فِي إِيجَادِ إِجَابَةٍ مُنَاسِبَةٍ، إِلَى دَرَجَةِ أَنْ أَبِي سَأَلَ

جَدِي:

- هُوَ ضَارِبٌ لَخْمَةٍ كَدَهُ لِيهِ؟

- جِلْمُكَ أَوْ مَالُكَ، الْوَلَدُ مَا يَقَالُوشْ خَمْسَ دَقَائِقٍ وَاصِلٍ.

نَهَضَ عَنْ كُرْسِيِّهِ حَامِلًا قَطْعَهُ، وَوَقَفَ أَمَامِي يَبْتَسِمُ ابْتِسَامَةً حَنُونًا،
فَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ لَيْسَ بِالطَّوْلِ الَّذِي صَوَّرْتَهُ لِي ذَكَرِيَّاتِي عَنْهُ مِنْ طِفُولَتِي
الْبَائِدَةِ. الْآنَ عَرَفْتُ أَنَّ جِينَاتِهِ هِيَ الْمَسْئُولَةُ عَنْ الْمِائَةِ وَاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ
سِتْمِئَةً الَّتِي لَا يَزِيدُ طَوْلِي عَلَيْهَا.

تَحَسَّسَ الْمُنْطَقَةَ بَيْنَ شَفْطِي وَأَنْفِي بِإِبْهَامِهِ فَارْتَحَتُ لَشُعُورِي
بَلَمْسَةِ الْحَنُونِ، ثُمَّ انْتَابَنِي الْفَزَعُ فَجَاءَهُ، كَيْفَ أَشْعُرُ بِلَمْسَةِ أَبِي الْمَيِّتِ
بِهَذِهِ الْوَاقِعِيَّةِ!

- مِينَ اللَّيِّ عَمَلُ فَيْكَ كَدَهُ؟

لَمْ أَفْهَمْ سَبَبَ نَبْرَتِهِ الْحَزِينَةِ إِلَّا حِينَ رَفَعَ يَدَهُ لِيُرِينِي أَنَّهَا مَلْطُخَةٌ
بِالدَّمِ. أَهَذَا مَا كَانَ يَسِيلُ مِنِّي مِنْذُ أَنْ اسْتَيْقَظْتُ وَلَمْ أَتِمَكَّنْ مِنْ تَبَيُّنِهِ
فِي الظَّلَامِ؟

تَحَسَّسْتُ وَجْهِي فَتَأَكَّدْتُ أَنَّي أَنْزَفْتُ دَمًا يَلْطُخُ قَمِيصِي الْأَسْوَدَ
الَّذِي تَمَزَّقَتْ إِسْوَرَتَاهُ وَيَاقَتُهُ، ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى ذِرَاعِي، مَا كُلُّ هَذِهِ
الرُّضُوضِ وَالسَّحَجَاتِ الَّتِي تَفْتَرِشُهُمَا، وَمَتَى انْخَلَعَ لِي ظَفْرَانِ؟

لم أتعرض لضرب مبرح فحسب، اكتشفت وأنا أتفقد نفسي أنني
أصبت بعيار ناري سبب ثقباً في صدري تنهمر منه الدماء، وتتقطر
على مقدمة حذائي الآن.

انكسرت حميمية صمت الليل، ضغطت على أذني صباح رهيب
ودوي سرينات مزعجة، ونداءات متفرقة قادمة من الشارع.

اتجهت نحو سور الشرفة المستدير كأنه جزء من برج مراقبة
عسكري، ونظرت إلى الأسفل فوجدت سيارة إسعاف مصطفة
بمحاذاة سيارة سوداء فارهة انبعج سقفها، لأن هناك بدنًا هامدًا للشاب
يتزف فوقها، ورجال الإسعاف يحاولون حمله.

دققت النظر، الشاب الذي يتزف من عدة مواضع في بدنه ويحمل
على النقالة ليس أي شاب، إنه أنا!

ماجت الأرض من تحتي، وشعرتُ بأيدي غريبة تلمسني وتجذبني
من عدة مواضع، ثم ازداد نزيف أنفي، والألم موضع الرصاصة في
صدري، وثقل رأسي بينما تقتحم يد دخيلة فمي لتلتقط منه ضرسًا
تكسر.

انتابني دوار جعل توازني يختل، فصاح جدي وهو يتفرض من
مكانه متكئًا على عكازه الأسود:

- اسم الله عليك!

تمكن أبي من إسناد رأسي قبل أن يصطدم بالأرض، وتركتني
أستلقي على بلاط الشرفة البارد، فانضم جدي إلينا، وجثا كلاهما
على ركبتيه إلى جوارتي، وأمسك كلُّ منهما بيدي، بينما تتباطأ ضربات
قلبي وتسيطر البرودة على أطرافي.

تشبث أبي بيدي وقال:

- ما تبقاش عيل خرع. هي موة ولأ أكثر؟

وكزه جدي معاتبًا:

- ما تقولهاش كده في وشه.

مسد جدي صدري في حركة دائرية، لكن كل محاولاته لتهدثني فشلت، فقد شعرت بإبر حادة تخترق جلدي وتنغرس في شراييني، وبأنايب تُفحَم في حلقي، وبشيء يُربط بعنف حول خصري فصرخت ألمًا.

اختلف دمي بعرقِي، ودموعي بلعابي، ثم غزت أنفي روائح كيميائية لازعة ومزعجة يتبعها إحساسي بهواء بارد يملأ رئتي حتى عاودني الشعور بالخدر والثقل، فسكنت آلامي، واستقرت أنفاسي، وشعرت بنعاس شديد.

صفعني أبي بخفة وهو يقول:

- قوم يالا، إياك تنام دلوقتي!

قاومت النعاس، ونظرت إليه هامسًا:

- أنا صاحي.

زفر وقد ذهب القلق عن عينيه هو وجدي، فترك يدي وراح يمسك

نوكة حزام بنطالي الجلدي ويجذبني منها وهو يسألني:

- حزامي ده؟

أومأت إليه بالإيجاب فقهقه، لطالما كان المزاح هو مخرجه من

ي موقف موثّر.

مسح عرقِي عن جبينِي بكفيه، ثم أعانني هو وجدي على الجلوس

واسناد ظهري إلى سور الشرفة. نهض جدي، وعاد إلى كرسيه يستأنف
شرب شايه، بينما جلس أبي القرفصاء قبالي، واضعاً قطه في الفراغ
بين حوضه وربلتيه.

تنهدت لأعيد ترتيب أنفاسي، ثم سألتها بنبرة مرهقة:
- يعني أنا ميت؟

زَمَّ جدي شفتيه وهو يتأمل شجرة البونسيانا التي تفتحهم فروعها
الشرفة وتتساقط بتلات زهورها الحمراء في حجره، وهز رأسه مؤكداً
تخميني من دون أن تلتقي أعيننا.

أرحت رأسي إلى السور وأنا أحاول تقبُّل حقيقة أن رجال عائلة
الألفي نقصوا رجلاً، ولكن شتني وثوب القط من حجر أبي ليتمطي،
مبرزاً مخالبه الحادة اللامعة وسط الظلام فحدقت إليها، لماذا أنا مهم
بمخالب القط بهذا القدر؟

جذب أبي رأسي نحو صدره فجأة فانتشلني من تأملاتي، وتحسس
شعري من مقدمته وحتى قفائي. قال وهو يمسح في طرف قميصي
دماً لطح يده إثر جرح في مؤخرة رأسي لم أنتبه له:

- على الأقل مُت قبل ما تزرع. أبوك الفقري اتقتل بعد ما زرع
شعره بتلات شهور. ابن الكلب ما سابنيش أتهدني بتنايج
العملية.

قال جدي بعصبية:

- ما قتللك ملهاش لازمة، عملتلي فيها عزت أبو عوف، وصرفت
آلاف مؤلفة على الفاضي.

- عزت أبو عوف ما زرعش شعر، كان لابس باروكة.

- أهو ده اللي إنت فالح فيه، اللماضة.
- يعني عايزني أبقي في عز شبابي وراسي فيها علامات التعرية
اللي عندك دي؟
- علامات تعرية يا قليل الحيا!
- خلاص يا باشا أنا آسف.
صاح جدي منفعلًا حتى احمرت وجتاه الخمريتان غضبًا:
- قلتك لغينا الباشوية يا صعلوك!
ضحك أبي ضحكة شابة رنانة ترددت في الشرفة، فلم يملك
جدي إلا أن يضحك معه، فشاركتهما ضحكهما المٌعدي على الرغم
من مأساوية وضعي.
انتقل أبي للجلوس إلى جوارى مسندًا ظهره إلى السور، فأرحت
رأسي على كتفه، وتنهدت بعمق، ثم همستُ بمرارة:
- أنا اتبهذلت أوي من بعدك يا بابا.
داعب شعري بحنان، ثم طبع قبلة على جيني، وقال بنبرة تحسست
فيها ثقل بكاء مكبوت:
- كان على عيني فراقكم بدري كده يا نوح.

* * *

غلطنا الصمت للحظة، حتى اخترقه نداء مذعور قادم من أعلى.
رفعت رأسي عن كتف أبي، ورُححت أطرق السمع، كان الصوت
مألوفًا إلى درجة أنني ظننته صوت أفكارٍ علي الرغم من أن طبقته
تختلف تمامًا عن طبقة صوتي.

- نوح! استنوا! نوح! مين اللي عمل فيه كده!

تعرفت على صوت صديقي وأخي الذي نسيت اسمي ولم أنس
اسمه، وانتبهت لتحول نداءه إلى بكاء شديد جعل أبي يسألني متأففاً:
- مين اللي بيتشحتف ده؟

انتفضت من مكاني، أبحث عن صديقي وأنا أجيب أبي بثقة:
- ده قطز!

- مات هو كمان ولا إيه؟

أجابه جدي:

- ينادي من عنده.

ارتفع نداء قطز، وصار صوته قريباً مني كأنه يهمس في أذني
متوسلاً.

اتجهت نحو باب الشرفة، وحاولت فتحه لأخرج باحثاً عنه، لكنه
لم يفتح، فألصقت أذني على زجاجة أحاول أن أطرق السمع إلى
بكاء قطز، ثم شعرت بدموعه الحارة تسقط على جبیني.
أتاني صوت أبي من خلفي يسألني:

- هتفضل لازق على الإزاز زي البرص كده؟

التفتُ إليه فرأيتَه يعاود الجلوس قبالة جدي الذي يرتب قطع
الشطرنج.

فتح ذراعيه يدعوني للانضمام إليه بابتسامة تسع الكون، ثم سألني
بشيرة مشاكسة:

- أوام زهقت من بابا؟

ضعفتُ أمام توقي إلى سماع صوت أبي، وحنيني إلى جدي الذي
يصب مزيداً من الشاي، ويعصر نصف الليمونة الآخر فوقه.

ابتعدت عن الباب، ولكن لم يغادرنا نشيج قطز. اقتربت من أبي،
وجلست نصف جلسة على مسند ذراع كرسيه، فقدم لي جدي فنجان
شاي بالليمون.

ارتشفت رشفة لم أشعر بمذاقها، فأعدت الفنجان إلى الطاولة
وأنا أظاهر بالانشغال بسؤال أبي بينما أحيط كتفيه بذراعي:

- تلاعيني شطرنج؟

- لسه شوية على ما تلعب معانا. أحكيك حدوتة؟

- حدوتة؟!

- كبرت على الحواديت ولأيه؟

- لا، بس حدوتة زي إيه يعني؟

- زي حدوتة أبو قردة، وأبورجل، وديسكو الكينج، والدغش و...

31/01/2026

قاطع جدي قائلاً:

- افكرلنا حاجة عدلة.

اشتعلت عينا أبي بالحماسة، فطرع أصابعه كأنه التقط فكرة

عبقرية ضلت عن ذهنه، ثم قال:

- طب ما أحكيك حدوتي في جهاز المكافحة. تعرف إنهم كانوا

مسميني القط؟

ضحكت، ثم شاركته استتاجي البديهي:

- عشان كان عندك قط؟

- لا، عشان كنت بسبع أرواح.



@ART_OF_BOOK

زعفران

قبل أن أضطر إلى قتل محبوبكم نوح الألفي، انشغلت في فرم مرعي في قبو المسيو هادي الحكيم.
لم أريد أن أكون ضيفاً ثقيلاً وأطلب من المسيو إطفاء أغانيه الفرنسية في أثناء ذلك، حتى وإن أصبت بالغثيان من حدة صوت مغنيته المفضلة أكثر من منظر أشلاء مرعي.

احترام ذوقه الموسيقي كان أقل ما يمكن أن أقدمه لمن سمح لي باستخدام قبوه للتخلص من الجثة، وتطوع ليفصل لحم مرعي عن عظامه ليسر عليّ عملية فرمه، بينما هو يصب الأسمنت السائل على العظام المجمعة في برميل سيلقيه في النهر الذي يحاصريته النائي عن ضوضاء المدينة.

وضعت آخر قطعة لحم مفروم في كيس بلاستيكي أسود، ثم خلعت المثزر البلاستيكي المدمى، وألقيته في برميل آخر، بالإضافة إلى قفازي وغطاء وجهي، لأمنع تساقط أي شعرة من لحيتي فوق بقايا الجثة.

كنت على وشك أن أميل إلى الأرض لألتقط الكلور، وأنظف
المترز، وكل الأدوات التي استخدمتها في انتقامي من خائن العيش
والملاح، لكن المسيو قال وهو ينفث دخان سيجاره إلى أعلى:
- سيب كل حاجة، وخذ دوش على ما أجيب العربية.

أطعته بلا جدال، خرجت من القبو، وصعدت السلالم المؤدية
إلى الطابق الأول من البيت المترف.

أكثر ما أدهشني في مسكن المسيو هو النوافذ البانورامية، فأينما
ولبت وجهي رأيت النيل، حتى وأنا أخلع ثيابي في حمّام الضيوف
لم يبهرنني أنه يمكن التحكم في درجة حرارة مقعد الحمّام وبلاط
أرضيته، ولا أن مرشة مغطسه مذهب الحواف تعمل باللمس، ما
أبهرنني هو مشهد الغروب الذي لمحتة عبر النافذة، فأدركت أنني
أمضيت نصف يومي في محو مرعي من على وجه الأرض.

تمكنت بعد عدة محاولات من تشغيل المرشة، ووقفت
أسفلها. الماء يبرد رأسي الأصلع، ويطهرني من دماء ذبيحتي
النجسة، وفقاغات الصابون العطر تبقبق على جلدي المحموم،
بينما أتأمل هذا الجمال الرباني، حيث الشمس جمرة سثمت
السماء من إحكام قبضتها عليها، فتركها تغرق في النهار لتبدد
سخونة النهار، وتعطي مساحة لتجلي ظلام الليل المنبثق من نزيف
الغروب.

ماذا؟ ألا يحق لي الاستغراق في تدبر حسن طبيعة الخالق
عز وجل؟

أكره عدالتكم الانتقائية، لو كنت قاتلاً وسيماً ذا كاريزما سينمائية

بقتل فاسفات تجهلون أسماء من مثل المسيو هادي، لما كنتم لتنفروا

اعترفوا بالحقيقة، كراهيتكم لي نابعة من أنني قتلت شخصاً
بخصمكم، وليس لأن القتل جريمة في المطلق.

* * *

خرجت من الحمام فتفاجأت بأن المسيو ترك لي قميصاً وبنطالاً
أنيقين أمام الباب لألبسهما بدلاً من ثيابي التي تمزقت وأنا أختطف
مرعي من تحت بينه.

وضعت الملابس التي كان قماشها أنعم من لمسة الأمهات التي
يتحدثون عنها في كل عيد أم، وجلست وحيداً في الصالة أنتظر
وصول المسيو بالسيارة الجيب. أرحت ظهري في المقعد الفاخر،
ورحت أتابع من النافذة المقابلة لي كيف تغفر الظلمة فاهها، مبتلعة
النور والأمل وثقتي بالبشر.

لم أقتل بدافع شخصي قط، كل رصاصة أطلقتها كان ثمنها
مدفوعاً، ودافعها مجهولاً، ولكن مرعي استفزني إلى درجة أجبرتني
على الانسلاخ من إنسانيتي وإنهاء حياته بهذه الطريقة المريعة.

أطلق المسيو بوق السيارة، فخرجت من البيت، ووقفت عند باب
المقعد المجاور له. أنزل زجاج النافذة المعتم مما جعلني أتأمل
ملامحه بوضوح لأول مرة منذ أن زرته هذا الصباح.

لم أر المسيو هادي من بعد عزاء شقيق زوجة الباشمهندس
سالم حين استدعاني سلطان لأوصله إلى بيته، لأنه لم يحتمل قيادة
المسيو المتهورة، ولكن الفار أخبرني منذ بضعة أيام بأنه خرج في

مهمة سريعة مع المسيو، ولاحظ في أثنائها أن صحته متدهورة إلى درجة أنه أصبح يسعل دماً.

إن كنتم تتساءلون من الفار، فهو فتى في التاسعة عشرة من عمره، استلمته من عنابر الدغش، واعتبرته أخي الصغير، وتبين لي في أثناء تدريبه أنه يضعف تحت أقل ضغط ويهرب من مقاوميه كالفران. لم أشأ لأحد بنقاط ضعفه لأنني لم أريد أن ينقطع عيشه بيننا، فحولته من قاتل تحت التمرين إلى «عصفورة» يراقب الأهداف قبل تنفيذ أي مهمة، ينقلنا من مكان إلى آخر أو يؤمن لنا مخبأ للاختفاء وقت اللزوم، وعند الضرورة القصوى يتولى مهمة قتل مضمونة تكاد تنعدم نسب فشلها.

انتشلتني المسيو من تحديتي المطول إليه بأن أمرني وهو يمد ذراعه ليفتح باب المقعد الخلفي المغلفة أرضيته ببلاستيك مضاد للسوائل:

- حط الأكياس في الدواسة.

- هنرميها فين؟

- عارف يا زعفران الناس لما بيتزعجوا من القطط والكلاب بيتخلصوا منهم إزاي؟

أومأت إليه بعدم المعرفة، فأخذ نفساً عميقاً، وقال وهو ينفث دخان سيجاره بابتسامة تظنها العين غير المدربة أنها ابتسامة سينمائية ساحرة، بينما أعرف أنها المادة الخام للجنون:

- بيرموهم في الصحرا لحد ما يموتوا من الجوع والعطش. أنا شايف إن قطط وكلاب الصحرا أولى بلحم مرعي.

أومات إليه بالموافقة، لم أملك القدرة على التفكير بوضوح علمي
أي حال.

أقيت أكياس اللحم المفروم على أرضية المقعد الخلفي، ثم
غطيتها بغطاء بلاستيكي آخر أسود اللون.
جاورت مقعد المسير فاستقبلني بعطره القوي، ودخان سيجار
الثقيل، وبرودة مكيف سيارته، وأغانيه التي لا يسأم من تكرارها.

* * *

لم أنتبه إلى أي منطقة صحراوية اختارها حتى نتخلص من بنانا
مرعي، أعرف فقط أنها لم تكن بعيدة عن بيته لأنه لم يقُد لمسافة
طويلة، كنت منغمساً في التفكير في حقيقة أن نوسة البسبوسة خائنتني
بعد بضعة أشهر من الزواج، وليتها خائنتني مع رجل ذي قيمة!
كيف هُنت على مرعي، رفيق يُتَمي وقسوة طفولتي الذي بمجرد
أن ابتمت لي الدنيا بفضل عملي مع سلطان الدغش، لملمته من
الأزقة، وجعلت منه موزع مخدرات محترماً. كيف نسي فضلي
عليه، وتعليمي له حمل السلاح وتمزيق الوجوه بالمطواة،
وطاوعه ضميره ليستغل خروجي مع أخي، فيتسلل إلى بيتي
وينفرد بزواجتي.

اكتشفت خيانتهمالي بأشع الطرق، خرجت مع أخي لأودعه قبل
السفر، وكان من المفترض أن أقضي الليلة في إتمام مهمة للدكتور
عاطف، ولكن المهمة ألغيت، فقررت أن أستأنف سهرتي مع أخي
في البيت مستغلاً بيات نوسة في بيت أمها كما أخبرتني.
قادني أخي إلى شقتي بسيارته وهو يشعر برغبة ملحة في قضاء

حاجته، ويحكم أنه مريض داء السكري لم يصبر حتى يجد مكانًا ليصف سيارته، أعطاني مفتاحه، وأعطيته مفتاح شقتي ليدخل الحمام فتزل.

حُمت حول العمارة ثلاث مرات، ولم أجد مكانًا لأصفها فيه كما هي العادة في أغلب شوارع الزمالك الضيقة المكتظة بالسكان أصحاب السيارات، لهذا أملك دراجة نارية.

قبل أن أبدأ الدورة الرابعة حول العمارة، رأيت مرعي ونوسة يخرجان من العمارة، ويركضان متشابكي اليدين، كأن وحشًا كاسرًا يلاحقهما. ركبنا سيارته، فلاحقتهما حتى بيته، وحين نزلت لاستفهم منهما ما جرى، انهارت نوسة واعترفت أن أخي أمسكهما متلبسين فقتله مرعي تحت تأثير المخدرات والخمور.

تمكنت نوسة من الهرب مني إثر صدمتي الشديدة، ولكن مرعي لم يتملص من قبضتي، كسرت عنقه بيدي العاريتين، وألقيت بدنه الهامد في حفية السيارة، ثم همت على وجهي لا أعرف كيف أتخلص من جسده، حتى اهتديت إلى الاتصال بمعلمي الأول، المسير هادي الحكيم.

الآن أخبروني، ألا يستحق أن أجعله طعامًا مفرومًا للكلاب المطرودة من المدينة؟



تخلصت من آخر كيس وأنا أشفق على طوارق الليل لا يضطرارها إلى نهش لحم مرعي النجس، ثم عدت إلى السيارة ليفاجئني المسير بنعتي بالمحظوظ.

- محظوظ؟

- Oui! أرسطو يقول الحظ هو أن السهم يصيب اللي جانبك بدل ما يصيبك. لو إنت اللي طلعت الشقة كانوا قتلوك بدل أخوك. يا زعفران إنت في ليلة واحدة نجيت من الموت وكشفت مراتك على حقيقتها، وانتقمت من عشيقها. كل ده ومش محظوظ؟

لم أستغرب تحليل المسيو للموقف، فهو رجل متحرر من مستقبله ومنصالح مع ماضيه، ما الذي قد يدفعه إلى تفهّم شعوري بالقهر؟ ازددت ربي بصعوبة، ثم سألته لأغير مسار حديثنا الكثيب:-
- هو الباشمهندس سالم عامل إيه دلوقتي؟

- عامل زي أي راجل مراته وعياله اتقتلوا. بس أنا جانيه، ما إنت عارفني يا زعفران، ما أقدرش أسيب صحابي في ورطة. فهمت ما يرمي إليه هذا العاشق لنفسه والمبجل لأفعاله، فلم أحرمه من فروض الولاء والطاعة التي يتغذى عليها.
أطرت إلى الأرض، وقلت بامتنان مبالغ فيه:
- أنا مش عارف أشكرك إزاي على وقفك جانبي يا مسيو و...
- أنا عارف ممكن تشكرني إزاي. عندي طاجن صيادية ومحتاجك تبقى ضلبي دلوقتي.

- دلوقتي؟ طب أدفن أخويا الأول؟

- بفالك فوق الاتناشر ساعة سايبه، مش هتفرق ساعة كمان. ولأيه؟

لغنت مرعي ولم يقو لساني على لعن نوسة البسبوسة، حتى وإن

كانت السبب في أن أدين الآن للمسيو المخبول بخدمة لا أدري فيم
قد تورطني، ولكنني أدركت أنني لا أملك أغلى مما خسرتة خلال
الأربع والعشرين ساعة الماضية.
أومات إليه بالإيجاب، وقلت:
- أوامرك يا مسيو.

* * *

أخبرني بأن الهدف شابة عزباء تعيش بمفردها، لم يخبرني الغرض
من تصفيتها، وأنا لم أسأل بدوري.
ارتديت قناعي الصوفي الأسود وبدلتي البيضاء، الشبيهة ببدل فنيي
شركات إبادة الحشرات، وتبعت خطاه نحو بيت بسيط من طابقين
ومسبح وحديقة متواضعة.
أخرج من جيبه مفاتيح بوابة السور الخارجية، ووجهني لعبور
سياج الحديقة بأسلوب يجنبني الظهور في كاميرا المراقبة المعلقة
فوق باب البيت، ثم فتح الباب فدخلنا بسلاسة.
فسرت هيمنة الظلام على البيت بأن الهدف نائمة، أو في
الخارج، ولكن بتوغلنا في المكان أدركت أن هناك تفسيرًا ثالثًا،
الهدف حريصة على توفير الكهرباء، فقد لمحت ضوءًا وحيدًا
في آخر الطريقة، وسمعت صوتها قادمًا مما أشار إليه المسيو وهو
يهمس في أذني:
- المطبخ!

وقفت خلفه وأنا أشم رائحة بيض بالزبدة، وأرى بطرف عيني
الهدف تقف أمام البوتاجاز.

كانت شابة ذات شعر أسود أطرافه تتخطى خصرها، تسندها تنفها
بكتفها بينما تقلب البيض في الطاسة وهي تصيح:
- أكل العصافير كان المفروض يوصل من ساعة، يا اسمك إيه
إنت!

أحكم المسير قبضته على سكين من طراز Buck 119، فأدركت أنه
سينفذ هذه المهمة على الطريقة الأمريكية، فتأهبت سبابتي للضغط
على الزناد في حالة هروب الهدف منه.
استدارت الهدف فجأة، فرجعنا خطوة، والتصقنا بالحائط حتى لا
تلمحنا في طريقها إلى الثلاجة. أخذت طبق جبن، ثم أغلقت الباب
بركلة خفيفة من قدمها، ووقفت تقطع شرائح الجبن على الرخامة
ثم نشره على البيض وهي تصيح:

- تمام يا وائل، اديني الـ Manager بتاعك عشان إنت إنسان بارد...
بلا تسمح بلا ما تسمحش... ماشي، حطني على الـ Hold. لما
نشوف آخرتها!

انتبهت لصوت رفرة أجنحة، ثم شعرت بشيء يقترب من وجهي،
فتراجعت إلى الوراء وارتطمت بطاولة سقط من عليها شيء تهشم
على البلاط محدثاً ضجة.

من التي تترك طيورها في بيتها من دون قفص؟!
انتبهت الهدف لصوت التشرذم ولتغريد طيورها، وقبل أن تخرج
من المطبخ، أجهز عليها المسير، بينما أشعل نور الطريقة بحثاً عن
الطائر. لم أجد له أثراً على مرمى بصري، سمعت تغريده من غرفة
بعيدة فتجاهلته، واقتحمت المطبخ لتفقد الوضع.

وجدت الهدف محنية فوق الرخامة والمسيو يقف خلفها، يضغط
بيده المحمية بقفاز جلدي سميك على فمها فينكتم أنيها الذي يزداد
مع طعناته النافذة، والدماء تسيل بغزارة من جروحها وهي تنظر إليَّ
بعينيها الواسعتين كأنها تستنجد بي.

هنا أدركت أنها ليست مجرد هدف، هذه هند وحيدة السيد
شندويلي، الذراع اليمنى لآمنة الدغش والمسؤول عن غسيل
أموال رائدي الجريمة المنظمة في مصر من خلال استثمارها في
العقارات.

خرج صوت هند متحشرجًا وهي تنظر إليَّ.

لا، ليست هند، أقصد الهدف!

تجنبت النظر إلى عينيها فركزت على يدها، كانت أظفارها مطلية
بلون برتقالي فاقع وتأخذ أطرافها شكلًا بيضاويًا مثاليًا وأصابعها رفيعة
وطويلة، وتمتد بضعف نحو سكين تجاوز طبق الجبن.
صحت:

- حاسب يا هادي!

انتبه المسيو لحركة الهدف وهي تمسك مقبض السكين وتحاول
طعنه، فترجع خطوة واحدة، بينما أطلقت رصاصة من مسدسي
استقرت في المسافة بين عينيها، وهكذا خلصت هند من هذا الموت
البطيء المهين.

أقصد خلصت الهدف من هذا الموت البطيء المهين!

سقطت على الأرض، واستقر رأسها فوق مقدمة حذاء المسيو
الذي تلطخت بدله البيضاء بدمائها، فقال:

- ابقى سلميلي على سلطان الدغش.

ركل رأسها بامتعاض، ثم انتشل شوكة من على الرخامة وانجس
إلى البوتاجاز ليتذوق البيض الذي كانت تعدّه. مضغ ما انتشله من
الطاسة، ثم قال وهو يمسح شفّتيه:

- بيته زي أبوكي، حاطة على الأومليت جبنة رومي مش جرييرا
ترك الشوكة في الطاسة، وراح يدندن الأغنية الفرنسية التي كنا
نسمعها في الطريق وهو يغسل سكينه في حوض المطبخ.

التقطت الشوكة التي تحمل لعبه وحمضه النووي، ووضعتها في
جيبه. يبدو أنه فقد مهارته، أو ربما فاجعة مقتل الدغش منذ ثلاث
ليال جعلته أكثر استهتارًا.

ضغطت على صمام أمان مسدسي، وكدت أدسه في بدلي، لكنني
انتبهت للمصيبة الكبرى، مكالمة موظف خدمة العملاء ما زالت
جارية!

انتشلت هاتفها من على الأرض ووضعتها على أذني، فسمعت
أنفاسًا مضطربة، وصوتًا يشبه تكتكة الضغط على أزرار لوحة مفاتيح
حاسوب، وأصوات بعض الشباب تتردد في الأفق مكررين تحياتهم
الرتيبة للعملاء بنبراتهم النمطية.

دعست زر مكبر الصوت، ونقرت بإصبعي على كتف المسير
المنشغل بتجفيف سكينه بقماشة ناعمة، فالتفت إليّ قائلاً:
- عايز إيه يا زعفران؟

أشرت إلى شاشة الهاتف فقطب حاجبيه، ثم رأيت الارتباب
يحكم قبضته على ملامحه الناعمة حتى قال:

- ألو؟

فور أن تكلم مباشرة نحو الهاتف تحوّل صمت المستمع إلى
موسيقى انتظار يقاطعها شعار التطبيق:

«إلْقِف». ارمي مشوارك، وإحنا هنلقفه بأقل تكلفة
وفي أسرع وقت.

تلا الموسيقى القصيرة صوت نسائي ذو طابع آلي يقول:

عزيزنا العميل، لضمان مستوى الخدمة يُرجى العلم
بأن هذه المكالمة قد تكون مسجلة و...

ثم انقطعت المكالمة فجأة.

ضغط المسيو على رأسه بكفيه بغيظ، وراح يثرثر بالفرنسية بنبرة
حادّة يستخدمها كلما أراد أن يُنفّس عن غضبه من دون أن يفهم
الجهلاء أمثالي ما يقوله.

أخرج هاتفه من جيبه، وضغط على بضعة أزرار، ثم قال:

- معلىش، هتضطر تأجل انتقامك من نوسة لحد ما نخرج من
الورطة دي.

لم أحبذ مزحته، ولا التوتر الذي بدأت أسمعه في صوته، فقلت:

- نتصل بدكتور عاطف ي...

- عاطف؟! إنت ضلي في الطلعة دي، يعني تاخذ أوامرك مني

ويس.

أربكني غضبه وعلو صوته والرعشة التي لمحتها في بنصره وهو

يشيح بيده ويضيف بالحاح:

- أسامينا اتقالت في بكالمة الكول ستر. لو حد عرف إننا ورا

قتل هند، مش هيطلع علينا صبح.

- هي دكتورة آمنة معندهاش علم بالطلعة دي؟

وجدت في امتناعه عن الرد إجابة سؤالي.

قبض على مرفقي حتى أتحرك معه إلى الخارج، ولكنني توقفت

في مكاني، وسألته بإصرار:

- قتلت بنت شندويلي ليه؟

زفر كأنني طرحته عليه أغبي سؤال في الكون، ثم سألني بخبث:

- عارف أنا ليه ما ترددتش أساعدك تتخلص من جثة مرعي

وكمان مستعد أعمل نفس الموضوع مع نوسة بعد ما نخلص

المهمة دي؟

أومأت إليه بالنفي، فوضع يده على كتفي، وقال وهو يتنهد

بثقل:

- لأنني عارف يعني إيه حد يخون ثقتك، الشندويلي خاني وفتن

عليّ لآمنة وبوظ كل اللي خططتله. يستاهل أقهره على بته

ولاً لآ؟

أدركت في هذه اللحظة أنني سمكة بساريا سقطت وسط حيتان

سيفتكون بها في أتفه اشتباك.

صحت فيه:

- ما كنت قتلتها لوحدك، ورطنتني معاك ليه!

ضرب الأرض بقدميه كطفل مدلل، وقال بغضبٍ جعل عينيه

المرهقتين تلتمعان:

٢ - عشان ما بقاش ليّ صحاب غيرك يا زعفران. وأنا بما بعرفش
أقتل من غير صحابي.

* * *

فيم أقحمت نفسي!

سيطرت على انفعالاتي حتى لا أجدب الانتباه لي وأنا أسير في
شارع حسن مراد بجاردن سيتي، ثم فتحت باب السيارة الجيب
السوداء، وانزلت في مقعد السائق، وضغطت على زر القفل لأغلق
جميع الأبواب.

أخذت نفساً عميقاً، وقد توصلت إلى القرار السليم، سأسلم
رقبتي للدكتور عاطف، حتى وإن كان سيعاقبني على الانصياع لجنون
المسيو، ولكنه على الأقل لن يقتلني كما ستفعل آمنة حين تعرف أنني
شاركت في قتل ابنة ذراعها اليمنى.

اتصلت به، فأجابني هامساً ومن حوله صوت احتكاك شوك
وسكاكين وكلمات متداخلة وجمل متقاطعة، فخمنت أنه ما زال
في حفل تأبين الدغش المقام في فيلته بالمنصورة.
- إيه؟

- إحنا في مهمة و...

- إنتو مين؟ ومهمة إيه؟

كنت أعلم أنه سيظل يقاطعني، ويحلل كل كلمة وحرف أنطق
بهما، فأذعيت عليه الخبر في جملة واحدة حتى أختصر الوقت:
- المسيو قتل هند شندويلي.

صمت هنيهة، ثم سمعت جرجرة كرسي بدأت من بعدها أصوات

الناس وأدوات الطعام تخفت حتى وصل إلي صرير باب، فاستتجيت
أن الدكتور غادر القاعة ليتمكن من محادثتي.

بمجرد أن عمَّ الصمت من حوله، انهال عليَّ سبَابًا ولعْنًا بأقذر
الألفاظ، وزاح يستجوبني فرويت له كل ما صار بالتفصيل العمل.
حتى قاطعني أمرًا:

- متأكد إنكم قتلتموا كل اللي في الكول ستر وما سبتوش أي
دليل أو شهود عليكم؟

- فيه خواجاية شافت المسيو، وبلغت عنا. نزلنا وخلعنا البذل
وخبيناهما في شنطة السفر اللي لمينا فيها الأجهزة والموبايلات.
وعلقنا تاني نمر العربية عشان محدش يشك فينا.
- فيه أي كاميرا في الشارع لقطتكم؟

- لا يا دكتور، كنا واخدين بالنا.

تنهد بعمق، ثم أمرني بنبرة أقل غضبًا واحتقارًا:

- ابعثلي لو كيشن الكول ستر واخلعوا إنتو وأنا...

- ما إحنا كنا هنخلع بس المسيو لما دخل الحمام عشان يغسل
جرحه مكان خربوش القط، افكر أنه نسي مسدسه على
الحوض.

أسمعني كويليه سب ولعن آخر أكثر تميزًا وتنوعًا من الأول.
فقاطعته بقولي:

- ما تخافش يا دكتور هو طلع الشقة دلوقتي هيتش المسدس
ونطير على طول.

- دخل الشقة بصفته إيه يا بجم؟ الجيران هيشوفوكم!

- قالى هيرتجل، هيعمل نفسه عميد من النجدة، وقال يعنى كان
فى عيادة الدكتور اللي فى العمارة وطلع يستجيب للبلاغ بحكم
أنه أقرب حد لموقع الجريمة وعابزنى أعمل فيها وكيل نيابة
عشان نسلك المسلس ونأكد أن مئيش أي دليل فوق.
زفر بعمق، ثم قال ببطء كأنه يحاول ترتيب أفكاره:

- أنا نزلت مع فريق التعقيم قبل كده، يعنى المفروض بتفهم فى
الأدلة الجنائية.

- حصل يا دكتور.

- الحكومة وصلت؟
<https://t.me/mweq1234>
- له.

- عال أوي! هادي ياخذ مسدسه ويروح يخبي الأجهزة كلها فى
بيته. وانت تفضل عندك لحد ما تتأكد إن مئيش أي دليل ضدكم.

- وليه الميسر يمشي وأنا اللي ألبس مع الحكومة؟

- هادي هيمشي عشان هنخله يكفر عن ذنوبه، تحب تيجي
شايل كفنك معاه؟

- هتسلموا هادي لشندويلي يا دكتور؟

- مش شغلك. مهمتك دلوقتي إن اسم رجالة الدغش ما يرتبطش
بالجريمة دي بأي طريقة. احبك الدور على الحكومة وخش
عليهم بقلب جامد عشان ما يطلبوش منك إثبات شخصية.

هبعثلك النار بعربية يفضل قريب من المنطقة، لو احسيت
إنك هتفزع ديلك فى سنانك وتخلع معاه. الكول سترده
اسمه إيه؟

- إلْقُف.

- إلْقُف اللي في جاردن سيتي؟

- هو.

- الله يخرب بيتكم. دي شقتي يا بَجم!

* * *

تعرفون الباقي.

سهلت علينا لامبالاة صلاح المهمة، لم يطلب منا أي إثبات شخصية، فتمكنا من الاندساس بينهم، والتماهي مع أسلوبهم في إدارة مسرح الجريمة.

تلاعب المسيو بترجمة أقوال الشاهدة الفرنسية. وقتلتُ الفَرائس الذي اختبأ في المخزن قبل أن يدلي بأي معلومة ضدنا، وأخيرًا أحرقت غرفة منطقة التطهير بكل ما تحتوي عليه من أدلة ضد المسيو. سارت الأمور وفقًا للخطة بشكل ممتاز، فغباء وقلة خبرة فادي، معزوجان بتناطح نوح مع فريق الطب الشرعي وتكاسل صلاح، كل ذلك كان سيجعلني أرحل مع الفار بعد أن أتممت مهمتي بنجاح وبأقل خسائر.

لم أَرِدَ قَطُّ أن أورط نفسي في مقتل أحد أفراد الشرطة، حتى بعد أن أدركت أن المصور الجنائي تفذلك وترك كاميرته المضادة للناز داخل غرفة الأدلة. طلبت منه أن يوصلني بسيارته، وكنت أنتوي سرقة كازت الميموري منه بخفة يد. لو لم يعلن لي نوح بعجرفته وأسلوبه الترق أنه توصل إلى حقيقة أن المسيو هادي هو القاتل ومتجلب شخصية عميد شرطة، ما اضطرني إلى قتله هو وزميله.

لا أقول هذا للتظاهر أمامكم بأنني ملاك، لا توجد ملائكة في
الجحيم التي أعيش فيها، ولكني أرفض أن تصوروني كشيطان خبيث.
أنا مجرد رجل يجيد النجاة، ونجاتي في صباح السبت كان ثمنها أن
أطلق رصاصي على نوح كما أطلق أبي رصاصه على أبيه منذ تسعة
عشر عامًا!

* * *

أوصلني الفار إلى شقة أبي المرحوم في المطرية بعد أن أنهيت
مهمتي بنجاح.

أفر من شقة الزمالك، وألوذ بشقة أبي كلما ضاقت بي الدنيا.
أرتمي على الأريكة لأستجمع أنفاسي، وأحدق نحو صورته المعلقة
على الحائط الموضوعة على طرفها الأيسر العلوي شريطة سوداء.
ولدتُ بعد شهرين من دخول أبي السجن بتهمة الاتجار في
المخدرات، ورممني أمي أنا وأخي أمام باب شقة زوجة الدكتور
عاطف، ثم اختفت من دون أثر، فترينا كاليتامى.

خرج أبي وأنا في عمر السادسة عشرة، رأيته مرة واحدة، ثم رحل
ليقتل العقيد يحيى الألفي الذي تسبب في حبسه، بعدها سلّم نفسه
إلى القسم، وبالطبع حُكم عليه بالإعدام. لهذا، لم أحبذ قطُّ العبث
مع ضباط الشرطة.

نهضت عن الأريكة أتأوه من فرط الألم، ثم خلعت ثياب المسيو
بصعوبة شديدة، ونزلت أسفل المرشّة. شتان بين حمّام المسيو
المنرف وحمّام شقة أبي الصدي، المهترئة مواسيره، والمندفعة مياهه
بحشرجة قريبة من حشرجة المسيو وهو يسعل دمه بعنف.

انسابت المياه عجيبة الرائحة على بدني المصاب بجروح وخدوش
لا حصر لها إثر مقاومة نوح اللعين لي، فالحيوان شق شفتي، وجرح
أنفي، وخربش وجتي وعنقي بشراسة، كأن ما يبرز من أنامله ليس
أظفاراً بل مخالب قط.

خرجت من الحمام ألفاً حول خصري منشفة خشنة، أطرافها
ممزقة، ثم وقفت أمام مرآة مشروخة معلقة على حائط دهانه يتساقط
على أثاث غرفة نومي المتهالك لأضمد جروحي.

انتهيت من مداواة جروحي وأنا أرتاب من كل حركة وصوت،
ويها لي أنني سأجد قطز صديق نوح يقتحم شفتي الآن، ليسلم عنقي
إلى جبل المشنقة فالحق بأبي.

جلست على طرف الفراش الذي أزم من تحتي، أفكر في خياراتي
للهرب أو للاختباء، حتى أرهقني التفكير فلجأت إلى مكونات
«الكيف» التي أبقى كمية احتياطية منها في كيس الوسادة.

أسمح لنفسي بلف سيجارة حشيش واحدة بعد كل هدف أنجح
في إصابته.

أقول إنني أكافئ نفسي بالحشيش بعد كل مهمة ناجحة، لكنني في
الحقيقة أثبط عقلي حتى لا يسترجع التفاصيل البشعة التي تعلق به
بعد كل جريمة قتل أرتكبتها، أقصد بعد كل هدف أصيبه!

شغلت أغنية «يا بتاع التفاح»، ثم أشعلت السيجارة الملفوفة
فتغلغل دخان الأنس إلى مخي، وصمت الدم والألم، وحلت البهجة
والمرح.

استلقيت على الفراش، أراقب تلاشي حواجز التشاؤم وانبساط

سبل التفاؤل بغد مشرق، غد لا يرافقني فيه ظلام الحاضر ولا ضلال
الماضي، ولا يرهقني فيه البحث عن إجابة عن أسئلتي الأزلية، من أي
بطن رضيع خرجت حتى تتخلى عني أمي قبل أن أبصر ملامحها وأكوّن
لها صورة في ذاكرتي؟ لماذا فضّل أبي أن يُعَدِّمَ شتقًا على أن يعضي
ما بقي من عمره معي وأخي؟ إلى متى سأبقى ظلًا لا يعرف صاحبه؟
أنهيت السجارة، وانتهى معها غناء عدوية، فنجحت رشوتي
لعقلي بأن ابتلعني نوم صامت بلا كوابيس سوداوية، ولا أحلام وردية.

* * *

رنّ هاتفي رنّته الصاخبة التي تشبه سرينة الشرطة، فتحت عيني.
وانتفضت بعنف فزاد اتساع جرح شفّتي، وعادت النزيف.
ضغطت على جرحي بطرف المنشفة الملفوفة حول خصرى وأنا
أتلقى اتصال المسيو هادي.

- تمت على خير؟

صحت فيه متخلصًا من خمول الحشيش:

- يلعن الساعة اللي لجأتلك فيها. عارف الدكتور ناوي يعمل
فيك إيه؟

- هيقتلني؟

ضحك كأنه قال طرفة مبتكرة، ثم تابع مستهزئًا:

- الظاهر إن آمنة قررت أخيرًا تاخذ بتارها مني.

- إنت لطيت نفسك معاها في إيه يا مسيو؟

- بتسأل لي، خايف عليّ يا فرج؟

كانت المرة الأولى التي يناديني فيها باسمي الحقيقي وليس الذي

اختاره لي سلطان تيمناً بشخصية جنى أسود البشرة، حليق الرأس،
ضخم الجثة سخره محمد هنيدي في مسرحية «عفروتو» ليخلصه
من أعدائه، فأدركت أنه يودعني بحق.

تولى المسيو هادي تدريبي، فقد كنت من ضمن الأشبال المسؤول
عن تشريسهم في عنابر الدغش، وكان الوحيد الذي لا يسخر من
ملاميحي ولا يتنمر على لون بشرتي، كان الوحيد الذي يشعرني بأنني
مرني ومثير للاهتمام.

غمرتني مشاعر الخوف والوحدة والعزلة، فحاولت أن أشتت
نفسي عنها بالخروج إلى المطبخ للبحث عن أي شيء ألتهمه بما أن
نوبة الجوع التي تتبع تدخين الحشيش باغتتني.
قال المسيو ببال رائق لا يليق بشخص اكتسب عداوة الدكتورة
آمنة الدغش:

- بمناسبة موتى الوشيك، أنا قررت أقدم لك كادوه.
شعرت بالإحباط حين لم أجد في الثلاجة سوى نصف زجاجة
مياه باردة وحبّة طماطم عطنة، فصفقت بابها الذي نهشه الصدا،
وقررت الذهاب إلى زوجة الدكتور عاطف لاستعارة بعض الدقيق
والخميرة والصلصة والجبن لأخبز لنفسي بيتزا إيطالية تسد جوعي.
سألت المسيو وأنا أفكر إن كان من الفظاظ أن أطرق بابها في
هذه الساعة المبكرة في غياب الدكتور:
- كادوه؟!!

- يعني هدية يا جاهل. إنت قلبك مش مطاوعك تعاقب نوبة
زي ما عاقبت مرعي، صح؟

وقفت في مكاني، وشعرت بقلبي يخفق أكثر مما خفق حين
أدركت أن رصاصي فرغ قبل أن أتم قتل نوح.

- أنت عملت إيه يا مسيو؟

- لسه هعمل، هقابل سالم، وبعدها هحط راس مراتك على

الرّف. Au Revoir!

لم أتوقع هذا التضامن من المسيو الذي رأى عجزني عن الانتقام
بما يليق برجل مغدور به مثلي، فقرر الثأر لقلبي الجريح بقطع رأس
نوسة البسوسة، وتحويله إلى تمثال شمعي يرصه على رف يعلقه
فوق فراشه ويتفاخر به أمامنا بمناسبة ومن دون مناسبة.

أعرف أن نوسة تستحق أن أقتلها كما قتلت مرعي، ومع هذا كان
رد فعلي على بادرته الطيبة أن بكيت التي خانتني وساهمت في قتل
أخي مقابل حماية عشيقها القذر.

تكرهوني بذريعة أنني رجل يقتل في مقابل المال، دعوني أعلمكم
شيئاً، ستقابلون في حياتكم الكثير من القتلة المأجورين، لكن ليس
كل القتل قتلاً بالرصاص، وليس كل الأجور مآلاً.



@ART_OF_BOOK

قطر

أثقلني الذنب حين أمسك عامل المصعد المسن عن مضغ قضية
أخذها من ساندويتش تفوح منه رائحة الطعمية، فلا شك أن يقع دماء
نوح على قميصي الأبيض أفقدته شهيته.

دخلت المصعد، فكور المسكين القضمة عند ضروسه الخلفية
فبرزت من أسفل خده وهو يعلق:

- ألف سلامة يا أستاذ. الدور الكام؟

أجبت بصوت بُح من فرط الصياح والبكاء:
- المشرحة.

ضغط على زر الطابق السفلي وهو يتمتم:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقفت بجوار مقعده المستدير المتهالك، أتابع انغلاق بابي المصعد
في صمت قرر أن يكسره الرجل الطيب بأن عرض عليّ مشاركته فطوره،
فشكرته على كرمه، وحاولت إعطائه إكرامية، لكنه رفضها بنزاهة.

تردد صوت مضغه في أرجاء المصعد، بينما أضم إلى صدري
كيساً بلاستيكياً أعطاني إياه ممرض سمح الوجه لأضع فيه متعلقات
نوح الشخصية.

مجرد ذكر اسم نوح في رأسي جعل عقلي يستقبل إشارة بأنني
على وشك السقوط في صدمة نفسية عنيفة، فقرر استدعاء معلومة
تاريخية مثيرة للتأمل، حتى أنفصل عن واقعي، وأسكن آلام الفجيرة
التي أملت بي.

أتعرف أسطورة أورفيوس؟

تقول التراجيديات الإغريقية إنه شاعر وعازف قيثارة وسيم
وموهور، وقعت الجنية يوريديس في غرامه، فتزوجا زواجاً انتهى
بموتها إثر لدغة ثعبان.

ألم أقل لك إنها تراجيديات إغريقية؟

لم يستسلم أورفيوس العاشق لموت زوجته، ألف مرثية يناجي
بها الآلهة ليرقوا لحاله، وإذ ياله العالم السفلي يستجيب له ويدعوه
للتزول إلى مملكة الأموات، ويعقد معه اتفاقاً.

- هاك زوجتك! اصعد بها الجبل الذي يربط بين مملكة الأموات
ومملكة الأحياء، بشرط أن تتقدم أنت الطريق ولا تنظر وراءك
حتى تغادرا مملكتي.

كاد أورفيوس يفر بزوجه من الموت، ولكن قبيل وصوله إلى
دنيا الأحياء، التفت ليتأكد أنها تتبعه فعلاً، فارتاح حين رآها، ولكن
تحولت الراحة إلى ذعر حين أدرك أن النظرة التي استرقها هي

مخالفة لاتفاقه مع إله العالم السفلي، فكانت النتيجة أن فقدتها ثانية
ومن دون رجعة.

أغلب من تناولوا هذه الأسطورة ركزوا على جوانب مثل انجذاب
يورديدس إلى موسيقى أورفيوس الحزينة، لحظة موتها المفجع،
تأثير الموسيقى والشعر في إله العالم السفلي، أزمة الثقة بين الإنسان
والسلطة وما إلى آخره. ولكن ما جعل ذهني يستحضر هذه التراجيديا
الآن بينما أبحث في جيبي عن منديل مبلل أمسح به دماء نوح التي
جفت بين ثنيات أصابعي وأسفل أظفاري، هو إهمال الناس للسبب
الذي جعل أورفيوس لا يعزف سوى الشجن ولا يكتب إلا الرثاء،
موت أخيه لينوس الذي علمه الموسيقى.
لم أجد منديلاً، فتوقفت عن البحث وانتبهت إلى أن بابي المصعد
ينفتحان، وصلت إلى طابق المشرحة.

* * *

أعرف أنني طفل أناييب؟

بعد سنوات من المحاولات الفاشلة لإنجابي، لجأ والدائي إلى
التلقيح الصناعي، فخلقت داخل أنبوب معلمي ضيق.
تعلمت المشي، وأجدت الكلام، وازداد طولي، ونبت ذقني،
ومع ذلك لم يسمحوا لي بمغادرة الأنبوب، عشتُ سجين حرصهما
على أن أرى العالم عبر زجاجه السميك محدود المنظور، من دون
إمكانية للخروج منه أو دعوة غيري لدخوله معي إلا باستمارة طلب
من أمي وختم النسر من أبي.

أفكر الآن والممرض يطلب مني الانتظار أمام غرفة ثلاثة

الموتى، أن والذي فرضا عليّ كل شيء، ولو كانا ديمقراطيين في تربيتي، لاخترت عكس كل ما أجبراني عليه، عدا شيئًا واحدًا، مؤاخاة نوح.

يستحيل تحديد متى رأيت نوح أول مرة، فتحت عيني على الدنيا وهو في بيتنا مثله مثل مكتبة أمي وشطرنج أبي.

أستيقظ فأجده مستلقيًا بجواري من دون أن أذكر متى دخل غرفتي، ومتى ارتدى منامتي، وما الذي يجعل طفلًا في الروضة يشخر بهذه القوة وينام بفهم موارد وعين نصف مفتوحة.

لم أحبه في البداية!

كان يقتحم غرفتي مثل عفريت تسمانيا الفوضوي، يفسد ترتيب سياراتي البلاستيكية، ويفكك روبوتاتي، ثم يعيد تركيبها، ويشني صفحات كتبي المفضلة، ويكسر ألواني الشمع، ويشرب الكاكاو في كوبي المفضل، ويسخر من بكائي على موت موفاسا في حضن ابنه سيمبا.

كنت أبكي، وأتوسل إلى والذي حتى يتوقفا عن إجباري على اللعب معه، فيقولان:

- ده مش صاحبك، ده أخوك!

أجبرت على التعايش مع أخي الذي لم تلده أمي، حتى قرر طبيب أسناني أن يركب لي تقويمًا بشعًا جعلني أشبه الطفلة سفاحة سمك الزينة في فيلم «البحث عن نيمو» وأنا في عمر السابعة.

ذهبت إلى المدرسة بعد أن فشلت جميع محاولاتي للتغيب حتى لا أقع فريسة للتنمر، ولكن حدث ما توقعته.

قبل بدء طابور الصباح، حاوطتني مجموعة صبيان يكبرونني،
تالذذوا بإهانتني وبالسخرية مني، وحين صرخت لأنهم عن
مضايقتي، دفعني أحدهم بعنف.

فور أن سقطت على الأرض، ظهر نوح من العدم يضربهم بحركات
قتالية مبتذلة، مستخدمًا مقشة سَهَت عنها عاملة النظافة، فتكالب
المتنمرون المراهقون علينا وأبرحونا ضربًا.

خسرنا المعركة، ولكننا خسرناها معًا. ومن يومها، تحوّل نوح من
أخ بالإجبار إلى أخ أنتمي إليه، أخسر وأكسب معه كل شيء في الحياة.
صحيح أنه ليس أخًا معسول اللسان، ولن يتوانى عن توبيخك
توبيخًا أبويًا صارمًا كي تتبه لمصلحتك، وقد يسخر منك ويتمر
عليك في جلساتكما الفردية، ولكنه لن يتردد في أن تتكسر عظامه
في شجار من أجل كرامتك.

نوح هو الأخ الذي إن أخبرته بأن عينك تؤلمك لن يصبرك على
ألمك بكلمات حنون أو بعناق مطول، سيقطلع عينه ويهديك إياها
عن طيب خاطر.

نوح، أخي وصفيّ وخليلي، وجدته منذ قليل غارقًا في دمائه،
وساقه ملتوية في غير مكانها الطبيعي، والناس متجمهرون حوله
يحوقلون، وحسني والمسعفون ورجال الطب الشرعي ينزلونه عن
سطح سيارة آسيا.

كدت أبكي مجددًا، ولكن ظهور الطبيب الكهل الآن ووقوفه عند
عتبة غرفة ثلاجة الموتى بزيه الأخضر أعاداني إلى زماني ومكاني
وهو يسألني بنبرة عملية تخلو من العاطفة:

- إنت اللي هتتعرف على الجثة؟

أومات إليه بالإيجاب، وضممت حقيبة نوح كأنها ستهرب مني،
ثم تبعته في صمت.

هو أيضًا لم ينبس ببنت شفة في أثناء دخولنا إلى الغرفة المبلطة
جدرانها بالأبيض والمضائة بأنوار نيون تكشف أدق التفاصيل،
وتفوح من أرضيتها الداكنة رائحة كحول طاغية.

اتجهنا نحو ثلاثة الموتى، ثم وقفنا عند ممرض أمامه سرير
معدني تستلقي عليه جثة زميلي المغدور به، تستر بدنه ملاءة تمتد
من قدميه وحتى كتفيه.

تأملت وجهه، فغزت حلقي مرارة بشعة، وتسلفت إلى فكي رعشة
جعلت أسناني تصطك، ومع هذا لم أتمكن من مقاومة التحديق إلى
موضع الرصاصة التي أنهت حياته.

طال صمتي، فسألني الطبيب بنبرة متعجلة:

- ده زميلك؟

لم أجد صوتي، هزرت رأسي بالإيجاب، ثم تأملت الأدراج الباردة
التي يحفظون فيها جثث الموتى من حولي، فطراً على ذهني سؤال
مرعب: كم زميلاً بكى زميله هذا الصباح مثلي؟

لا أرى أرواح الموتى مثل نوح، ولكني أبصر أنني في حضرة
الموت، فجف حلقي، ونضح العرق من كل ثنية في بدني، وشعرت
بأن هناك يدًا غليظة تخنقني.

سألت الطبيب المشغل بتسجيل بعض الملاحظات في أوراقه
بينما يعيد الممرض جثة زميلي إلى الثلاثة:

- ينفع أخرج؟

هز رأسه هزة مقتضبة أشعرتني بالخرج، لأنني عطلته عن تأدية عمله، فاندفعت خارجًا.

شعرتُ بأن الموت يتقدمني، يقف أمامي، ويتسع، ويتمدد، ويتعاضم، ويملاً الممر الممتد إلى ما لا نهاية، مبتلعا كل شيء في طريقه، فسيطر عليّ هاجس أنني إذا لم أغادر طابق المشرحة فورًا، فسأجاور زميلي في ثلاجة الموتى.

هرولت حتى خرجت، ووصلت إلى المصعد، وضغطت على زر استدعائه، ثم شعرت بأنني لا أملك رفاهية انتظار وصوله، فدفعني خوفاً إلى صعود السلالم ركضًا.

* * *

وضعت يدي على قلبي في محاولة لتنظيم ضرباته المتردد وقعها في أذني، وتواثبت أمامي نجوم خيالية تتلألأ، وتخفت بعشوائية من مجهود صعود السلالم.

انحنيت مستندًا إلى ركبتي لألتقط أنفاسي موليًا ظهري إلى الحائط في منطقة انتظار مصاعد بالطابق الرابع. يتقطر عرقي من أطراف شعري أسفل القبعة الرياضية التي أعتمرها، فأخرجت من جيب منديلًا ورقيًا مسحت به وجهي ورأسي، ثم فردت قامتي.

وصل إليّ صرير فتح بابي المصعد، فالتقت عيناى بالعامل وهو يقشر موزة، ويلقي عليّ تحية ودودًا رددتها إليه بإشارة يد مرهقة، بينما يفند إلى الطابق بضعة أشخاص من بينهم صلاح وفادي.

استغربت من وجود فادي، لكن قبل أن أسأله أين ذهب بعد حريق
منطقة التطهير أو كيف عرف مكاني، أقبل عليّ صلاح وقال:

- يا ابني عمال أتصل بيك، كنت فين؟

- في المشرحة.

فتح فادي فاهه مبدئياً أعتى علامات الصدمة، بينما صاح صلاح
بصوت أجش لفت انتباه كل من حولنا:

- نوح مات؟!!

وضع كفيه فوق رأسه، وراح يلطمه وهو يردد:

- عريسنا مات! عريسنا اتقتل! يا حول الله يا رب!

قاطعت عويله قائلاً:

- إنت ما صدقت جنازة وتشبع فيها لطم؟!!

- لو مش هلطم عليه وهو في المشرحة هلطم عليه إمتى؟ هات

يا فادي مية واتناشر جنيه وخمسة وسبعين قرش بسرعة.

تقلبت نظرات فادي بين يد صلاح الممدودة له وبينني، كأنه
يستفهم مني ما دخل هذا المبلغ الحقير بالمأساة الواقعة! وحين لم
يجد مني تفسيراً لهذا العبث، أخرج محفظته وأعطى صلاح مائة
وعشرين جنيهاً.

وضع صلاح العشرين جنيهاً في محفظته المهترئة، وأخرج عشرة
جنيهات ورقية وجنيهين وخمسة وسبعين قرشاً فضية، ثم جذب يدي

ووضع فيها المبلغ وهو يعلل تصرفه العجيب:

- ده دين نوح في رقبتني قبل ما يموت.

صحت فيه:

- يا جدع إنت اسكت بقى! نوح في العمليات.

- الله! أومال مين اللي في المشرحة؟

- الشاب خالد.

انتشل المال من كفي، ودسه في جيبه بخفة يد نشال محترف، ثم
لطم رأسه، وصاح بالأداء الدرامي نفسه:

- المصور الحيلة مات! مصورنا اتقتل! يا حول الله يارب!

كنت على وشك أن أجذب صلاح من قفاه وألقيه خارج
المستشفى، لكن استرعى انتباهي رنة وصول المصعد، فالتفت
لأجد الدكتور حسني المستكاوي، رئيس فريق الطب الشرعي التابع
لمنطقتنا، يخرج منه. وقف حسني يتلفت حوله بينما ينغلق المصعد،
فناداه صلاح بصوته المزعج ليعلن له عن مكان وقوفنا.

انضم إلينا، يتبادل هو وفادي نظرات عدائية في أثناء سؤاله لي
عن حالة نوح ونتيجتي الأشعة السينية والمقطعية اللتين خضع
لهما، فأجبتة وأحبالني الصوتية تكاد تتمزق مع كل كلمة تخرج
مني:

- اتضرب بالنار، وعنده كسر في الحوض.

تذكرت شكل ساقه الملقاة إلى أقصى اليسار، وعدم اتساق منطقة
الخصر بالحوض، والدماء التي فاضت إثر هذا الكسر البشع، لم يبدُ
لي المنظر أنه بالبساطة التي هون بها فني الأشعة المقطعية الوضع
عليّ.

دعكت عيني المجهدتين من قلة النوم وفرط البكاء، وسألت حسني:

- بصيت على الشاب خالد؟

- الله يرحمه. أخته في الطريق عشان تستلم الجثمان.

- شفت آثار المقاومة اللي على نوح؟

- خدت عينة من ضوافره، واستلمت هدومه، وبعثتها للمعمل.

بدأ خيالي يحبك مقاومة جسورًا بطلها نوح، يتصدى بمفرده للقاتل بقوة مكنته من الاحتفاظ بهذا الكم من الدم والأنسجة أسفل أظفاره، ولكنه انهزم في النهاية، وأصيب بهذه الخسة.

حمدت الله أن حسني تكلم وقاطع بصوته الجمهوري خيالاتي

المؤذية:

- هحتاج أتحفظ على هدومك إنت كمان بما إنك شيلته مع

المسعفين وساب عليك...

أظنه استقل نطق كلمة «دمه»، فصمت للحظة، ثم أردف:

- ساب عليك آثار هحتاج أحللها.

ضرب صلاح صدري بغشم، وقال:

- تعال أوصلك بيتك تغير و...

- ما ينفعش يطلع وما يلاقينش جانبه.

قال حسني:

- قدامه كتير على ما يطلع يا قطز. ما ينفعش تفضل بهدومك كل

ده، لو مش عشان الشغل الجنائي يبقى على الأقل عشان تقدر

تستقبل أهل نوح من غير ما تخضهم.

أهل نوح!

كيف سأبلغ تينة إحسان ونادية وطنظ سعاد بما أصاب نوح؟
كيف سأذيع هذه الفاجعة على دليلة التي من المفترض أن نسنأمل
رحمها هذا الأسبوع؟

عاودني شعور اليد القابضة على عنقي، إلى درجة أنني بدأت
ألهث بصوت مسموع دفع فادي لأن ينظر إليّ بقلق ويسأل حسني:
- دي بانك أتاك ولا إيه؟

علق صلاح:

- ارحمنا من لغاتك يا كومون صفاء. انزل هات ساندويتشات
وشاي، حاكم قطز شكله مهبط؟

نفذ فادي تعليماته واتجه إلى المصعد، وكُلِّي ثقة أن صلاح تحجج
بإرهاقي حتى يحصل هو على فطور مجاني.

أخذت نفساً عميقاً، وبدأت أنظم أنفاسي وأنا أهمس إليهما:

- أنا كويس، هروح الحمام أطلع التيشيرت.

ريت حسني على كتفي بلطف، وهممنا أن نتجه إلى الحمام، لكن

صلاح استوقفنا قائلاً:

- هجيلك من العربية قميص لسه مشتره إمبراح من شارع

لا مؤاخذه كلوت بيك وأنا مستني الكهربائي يصلح المروحة

قبل ما يجيلنا البلاغ ابن الـ...

قاطعته وأنا أشعر بأن خفقان قلبي زاد لمجرد تخيل نفسي أرتدي

قميصاً على ذوق صلاح:

- لا يا صلاح، أنا هكلم مراتي تجيلي هدموم.

لوى شفتيه، ثم لوح بيده في الهواء، وقال:
- وفرت يا خويا. أنا أصلاً بقرف ألبس مكان حد.

خلعت قميصي القطني، ثم ناولته لحسني. وضعه في كيس من
الورق المقوى محكم الغلق، ثم خرج وتركني عاري الجذع.
رششت الماء على صدري لأنظف الدم الذي اخترق قميصي
والتصقت بقعه بجلدي المتقشر إثر الساعات التي قضيتها على
الشاطئ في شهر عسلي.

فركت يدي تحت الصنبور، وراقبت تفتيت الماء للدم الجاف بين
أصابعي وتحوله إلى سائل وردي اللون ينزل داخل الحوض الأبيض.
لم يجد عقلي معلومة تاريخية قادرة على تشتيتي عن حقيقة أن
هذا الدم الباهت الذي يختفي في البالوعة هو دم صاحبي، ولم تعد
أنفاسي قادرة على تحمّل المزيد من الكبت.

ارتفعت حرارتي، وأخذ صدري يعلو ويهبط بعنف بحثاً عن
الهواء، لكن لم أهدأ إلا بعدما ألقيت رأسي تحت الماء لتساعدني
برودته على استعادة توازني.

أغلقت الصنبور بيد مرتعشة، وجففت نفسي بمناديل منخفضة
الجودة تمزقت بين أصابعي والتصق فتاتها بصدري. انتشلت هاتفي
من جيب بنطالي الجينز لأتصل بأسيا والماء يتقطر من أطراف شعري
مبللاً كتفي، فأجابتنني بعد مدة بنبرة ناعسة:

- حياتي، إنت لسه بره؟

- أيوه. ممكن تجيلي القصر العيني ومعاكي قميص نضيف؟

راح الخمول المدلل عن صوتها، وسيطرت اليقظة على نبرتها
وهي تسألني بقلق:

- فين في شارع القصر العيني؟

- المستشفى.

- بتعمل إيه في المستشفى؟ نوح معاك؟

شعرت بغصة شديدة نبتت في قلبي، ونمت أغصانها، وتمددت
حتى وصلت إلى حلقي، فقبضتُ على عنقي عسى أن يخف ثقلها
الشيطاني، لكنها غلبتني.

انحنيت فوق الحوض مستسلمًا لنكبتني، فاذا بي أبكي على نوح
بكاء الإسكندر الأكبر على صديقه هيفايستيون، وأقول مرتعشًا:

- نوح اتضرب بالنار يا آسيا!



@ART_OF_BOOK

وليد

وجدت نفسي فجأة في مشهد استسلام السفاح جون دو من فيلم
«Seven»!

عاملني المقدم عمرو البشيشي معاملة الدرع البشرية، ووضعني
على رأس الضباط وأمناء الشرطة المداهمين لكافيه وردنا بلاغ بأن
مجنونا يحمل كلاشنكوف قتل جميع زبائنه.

صعدت الرصيف الذي تناثر فوقه زجاج الكافيه المتشظي إثر
الرصاصات التي اخترقته، ووقفت عند المدخل أسترق النظر بطرف
عيني فلم أرصد أي حركة. دخل جسدي في حالة استنفار تام وأنا
أقبض على طبنجتي، وسبابتي تلمس طرف الزناد.

عافرت لأخذ نفساً عميقاً تحت ثقل السترة الواقية من البرصاص،
ورددت الشهادة، ثم همست إلى نفسي بجملة قد تكون آخر ما أنطقه:
«منك لله يا ليلي إنتي وأمك!».

ركلت الباب ركلة عنيفة فاقتحمت الكافيه الهادئ المتواري بين
أشجار المعادي، داعساً فوارغ الكلاشنكوف وبقايا الطعام الملوث

بدماء الضحايا الذين سقطوا يمينًا ويسارًا حول طاولاتهم، وأنا أصبح
في الفراغ كما في الأفلام المبتذلة:

- سلّم نفسك، المكان كله محاصر!

تلقت حولي بحذر باحثًا عن القاتل، حتى لمحت في أقصى اليمين
يجلس إلى طاولة ركنية تقابلها نافذة ضخمة. يتدلى من فوق كتفه
كلاشنكوف فوهته تلامس الأرض، وعلى وجهه رذاذ دماء ضحايا،
وتنعكس على عدستَي نظارته الطيبة أشعة شمس الصيف الحارقة،
وبين ثنيات أصابعه قطرات دم متخثرة تركت بصمات على السجادة
التي يدخنها، بينما يشرب كوبًا من الشاي بالنعناع بهدوء وراحة بال
لا يستحق أن ينعم بهما.

ضمّ سيجارته بين شفتيه، ثم رفع يديه إلى أعلى وهو ينظر إليّ
مباشرة، وقال بنبرة سيكوباتية لا يخالطها توتر أو قلق:
- تعال يا وليد، اقبض عليّ.

أزاحني المقدم عمرو عن طريقه بحماسة ليكبل بأصفاده يدي
القاتل السيكوباتي، سالم عبد الرحيم.

* * *

تجمهر الصحفيون والمراسلون خارج الكافيه يوثقون لحظة صعود
سالم عبد الرحيم، الذي سرعان ما لقبوه بـ«سفاح المعادي»، إلى البوكس.
يا له من لقب مبتذل ينم عن الاستسهال وانعدام الابتكار!
تركت عمرو في الشارع يتظاهر أمام الكاميرات والميكروفونات
بأنه قبض على سالم، لأنه أمهر ضباط المباحث، وليس لأن سالم
سلّم نفسه لنا، ودخلت أجيل النظر فيما حولي لأسجل تفاصيل موقع

الجريمة في محضر المستجيب الأول قبل وصول فريق الطب الشرعي الذي تقوده الدكتورة سيليا طرابلسي.

لم يهتم الصحفيون بدخول الكافيه الذي يؤمّن مدخله عسكري وأمين شرطة، بل اكتفوا بالتقاط بعض الصور عبر الزجاج المهشم، فتصوير السفاح والحصول على تصريح منه أشد أهمية، لأننا صرنا نعيش في عالم يتعاطف سكانه مع وحوشه المثيرة للهلع أكثر من ضحاياه المثيرين للشفقة.

انتقلت وسائل الإعلام برفقة عمرو إلى القسم لاستكمال تغطية الخبر، وبقي تحت قيادتي ثلاثة عساكر وأمين شرطة يؤمّنون محيط موقع الجريمة في الشارع، وأنا أقف وحيداً محاطاً بإحدى عشرة جثة، أكرر: «منك لله يا ليلي إنتي وأمك!».

شاء الله أن أترك فتيات القاهرة كلهن، وأحب فتاة سكندرية اسمها «ليلى»، اشترطت أمها أن نسكن في الشقة التي تقابلها، لأنها لن تحتمل أن تعيش ابنتها الوحيدة في محافظة أخرى.

رّق قلبي إلى توصلات حماتي، ولم أريد أن أفرق شمل أسرة خطيبتي، وإذ بي أكتب بيدي التي ليّتها قُطعت قبل أن أقدم طلباً باسم وليد عطية عصام للانتقال إلى مرور كرموز.

لم أكن أعلم أن هناك ضابطاً آخر اسمه وليد عطية عاصم تقدم بطلب في نفس التوقيت لينتقل من مباحث كرموز إلى مباحث المعادي، وإذ بالبيانات والطلبات تختلط على الإداريين، ويجد وليد عطية عاصم نفسه في مرور كرموز، وأنا أجد نفسي في مباحث المعادي بين الدماء والجثث والأشلاء.

فشلت محاولاتي لتقديم طلب انتقال آخر قبل عام على الأقل من الآن، وحين شاركت هذا الخبر مع ليلى وأمها، قالتا إنهما لن تنتظرا نى عاماً، ورفضتا اقتراح الزواج فى القاهرة بشكل مبدئى إلى أن أحل المشكلة وأتمكن من الاستقرار فى الإسكندرية.

كلمة مستفزة منها واعتراض صريح منى، تعنت من ناحيتها، وعناد من ناحيتى، أنهينا الخطوبة.

تحولتُ فى بضعة أشهر من المقدم وليد عطية الضابط فى جهاز المرور المُقبل على الحياة، المواظب على الرياضة ورفع الأثقال، المحب لطهو الطعام الصحى، العاشق لأفلام ديفيد فينشر، إلى المقدم وليد عطية ضابط المباحث الجنائية الذى يقترب من منتصف الثلاثينيات من دون رفقاء غير القولون العصبى والأرق وبوادى اكتئاب أرتعب من أن يتمكن منى فىلحق بى ما لحق بأمى، غفر الله لها.

هجرت الصالة الرياضية، وانسحبت من ورشة كتابة السيناريو التى نُقلت إلى التخرج منها بنجاح، وجربت التدخين لأول مرة فى حياتى، ولكن الحمد لله أقلعت عن هذا السُّم بعد خمس سجائر. «منك لله يا ليلى إنتى وأمك!»، بعد أن كنت شاباً يحلم بتغيير

العالم، صرت بالكاد أملك الطاقة لتغيير ثيابى فى نهاية يوم أفنيته بين القتلى والقتلة. أعود إلى شقتى الواسعة على منهنك الفكر، مخدر الحواس، أطلب عشائى بعد منتصف الليل عبر تطبيق يحرم منى من التعامل البشرى، فيصل إلى طعام مفرط فى دهونه وسكرياته. أذوق فى مكوناته يأسى ووحدة وشبابى الذى أهدره على أشياء تقرضنى لحظات من السعادة الزائفة الخالية من المعنى. ألتهم وجبتى بسرعة

لأن الحياة سلبتني نعمة البطء، بينما أشاهد عبر شاشة هاتفي الصغيرة مقاطع قصيرة من قناة «Peace Cake» فأصطنع الضحك والتفاعل لأوهم نفسي بأن الشباب في هذه الفيديوهات أصدقاء يشاركونني وجبتي، فأنسى لمدة عشرين دقيقة أنني يتيم لا ونيس له، ولا وقت عنده للخروج، ولا طاقة لديه لإقامة أي علاقة حقيقية.

* * *

صنفت الدكتورة سيليا الثلاثينية، شبيهة مارلا سينجر من فيلم «Fight Club»، سيارتها الفورد العالية التي أظن أنها من مخلفات الحرب العالمية الثانية، بمحاذاة الرصيف المقابل للكافيه. بقيت داخل السيارة تنهي كعادتها كوبًا عملاقًا من القهوة الأمريكية، بينما تداعب أطراف شعرها غير المتساوية، وتزيح خصلاته الداكنة الساقطة فوق حاجبيها الرفيعين، وفي أذنيها سماعتان تضخان موسيقى، يدفعني هز رأسها على إيقاعها إلى الخلف وإلى الأمام بعنف، إلى درجة أن نظارتها الشمسية المستديرة السوداء سقطت عن وجهها الباهت النحيل، إلى التخمين أنها موسيقى الميتال أو ما يشبهها.

أعادت ارتداء النظارة، وأشعلت لنفسها سيجارة «LM» التي أمسكتها بأصابعها الرفيعة، المطلية أظفارها دائمًا بلون براق عجيب لم أتبين درجته الآن عبر الزجاج.

توقفت عن متابعة انتحار الدكتورة سيليا البطيء بالسهم الذي تدخنه قبل دخول أي موقع جريمة، واستأنفت تدوين كل ما وقعت عليه عيناى وأنا أفكر: ماذا حدث للعالم!

أعلم أن العالم لم يعد متنزهًا، نعيش في غابة يحكمها حفنة من
المسعورين، لكن أمن الضروري أن نصير، نحن الشعب، حيوانات
ضارية تفترس أضعفها بلا ضمير؟ أمن الضروري أن يصير الإنسان
ذئبًا لأخيه الإنسان؟

انتبهت لبركة دم عند غرفة العاملين المفتوحة في أقصى زاوية
من الكافيه، فتقدمت لأتفقددها، ولكني لم أنتبه لخطواتي، فدُست
على بقايا كرواسون ملقاة إلى جوار ماكينة القهوة. استغفرت الله،
وأسرعت آخذ خطوة إلى اليسار حتى أرفع النعمة عن الأرض،
ففوجئت بأنني في أثناء هذا أدعس بكعبي أصابع جثة رجل ضُرب
بآلة ثقيلة على وجهه، حتى صار يشبه السفاح فريدي كروجر.
أفلتت مني سبة بذينة لأداري بها هلعي من منظر الجثة المشوهة،
فسمعت من يصيح من خلفي:

- أَلْفاظُك يا وليد!

التفت نحو باب الكافيه، فرأيت الدكتورة سيليا تدخل موقع
الجريمة حاملة حقيبة أدواتها، ومرتدية ملابس الطب الشرعي
البيضاء التي تخفي ملامحها كلها إلا عينيها البنيتين الواسعتين اللتين
تكحلهما، وتزين جفونهما بلون أسود قاتم فتزيدهما اتساعًا.

تملكني الحرج لأنني أمقت السباب ولأنها سمعتني، فقلت لها:
- آسف يا دكتورة، كنت فاكِر إنني لو حدي.

هزت رأسها متقبلة اعتذاري قبولًا فاترًا، كأن السبة التي انزلت
على لساني أبشع من حقيقة أننا نقف وسط أحد عشر قتيلاً غارقين
في دمانهم.

ألفت نحوي نظرة نارية وهي تتفقد موضع قدمي، وتقول بصوتها
الرفيع ونبرتها الأمرة كأنها ناظرة مدرسة بنين:

- جزمك يا وليد!

انتبهت إلى أنني في أثناء تجنبي للدعس على أي طرف آخر من
أطراف القتل المشوه، دُست على دمه فتبع حذائي الرياضي الأبيض
الجديد، الذي اشتريته إلكترونياً بالعملة الصعبة، ومعه طرف بنطالي
الجبردين المفضل.

زفرت سيليا متفعلة، وقالت:

- ينفع كده يا وليد؟

- بيه!

كان هذا ردي على إصرارها على توبيخي بفضاظة في أثناء تأدية
عملي.

أغمضت عينيها الكحيلتين، ثم فتحتهما وهي تعلق باستنكار:
- أفندم؟

- زي ما بقولك دكتورة سيليا، تقوليلي يا وليد بيه أو يا وليد باشا
أو يا حضرة الظابط.

لم أر سوى عينيها اللتين تحترقان كشف مشاعرهما، والشعور الذي
رأته في عينيها الآن هو الامتعاض.

لم تعلق على كلامي، بدأت تحضر أدواتها، وتركتني أتأمل جثة
لرجل.

شعرتُ بأن ساعة يده الذهبية المرصعة بالأحجار الكريمة مألوفة
لي، وكذلك عطره الذي طغى على رائحة الجثث. لمحت طرف

محفظته بارزاً من جيبه، ففتشته بحذر، والدكتورة سيليا تقف خلفي لتراقبني.

وجدت حفنة من العلكة بالمستكة، وزجاجة فضية صغيرة ممثلة بكحول لا أعرف كنهه - لأنني والحمد لله لم أذق الخمر في حياتي - وسيجاراً كوبياً ملفوفاً في سلوفان وعلبة ثقاب، ومفاتيح كثيرة، أبرزها مفتاحا سيارتين؛ واحد عليه علامة جيب التجارية، والآخر عليه علامة «MG»، وهاتف آيفون حديثاً.

فتحت محفظته فوجدت فيها بطاقاته البنكية، ورخصة السيارة الـ «MG»، ولكن استوقفتني رخصته الشخصية التي رأيت فيها صورته، ثم قرأت اسمه الرباعي: هادي بسيوني رجب الحكيم.

* * *

لا أؤمن بأن الإنسان أصله الشر وفطرته العنف، كما يدعي سالم الآن وهو يجلس قبالي مكبلاً بالأصفاد، بينما نسجل أقواله في المحضر.

لسنا مخلوقات من نار كالشياطين، ولا من نور كالملائكة، نحن من الطين الذي شكلنا الله منه، حتى يكون جوهرنا الاعتدال والتوازن والنماء، ومع ذلك، تجد من يفاجئونك بأن الإنسان قادر على أن يتوحش توحشاً يفوق كل الضواري.

شعرت، بينما أنا والمقدم عمرو نستجوب سالم، بأننا في إحدى حلقات مسلسل «Mindhunter»، نجلس في حضرة سفاح سيكوباتي مختل يحاول إقناعنا بفلسفته الفاسدة بمتهى الهدوء والثقة. حين سأله لماذا قتل الجميع بالرصاص، لكنه اختار هذه الطريقة

البشعة لقتل وتشويه صديقه هادي الذي كان يقف لي بالمرصاد كلما استجوبت سالم بشأن مقتل ابنه وتسمم زوجته، تهرب من الإجابة بأن اعترف بأنه قتل زبائن الكافيه، لأنه ببساطة كان يملك فائضاً من الذخيرة، ولا يعرف فيم يستخدمه.

لم أهتم بإجابته المختلة، على الرغم من أنها كانت لتشكّل مشهداً مثيراً يليق بأفلام فينشر التشويقية. كل ما أردته هو أن أغلق القضية باعتراف واضح من سالم أنه هو وهادي المسؤولان عن الجرائم التي حققتُ فيها منذ أن انتقلت إلى هذا القسم الملعون، بداية من مقتل الطيبة النفسية سلوان عبد السميع في عيادتها برصاصة في الرأس، وحتى طعن هند شندويلي اثنتي عشرة طعنة على مسمع من موظفي كول ستر «إلقف».

لم يعترف بأي شيء، وظل يهذي بمنطق مشوّه لا يتبناه سوى المجاذيب والسيكوباتيين الساديين أمثاله، ويرمقنا بنظرات مهيبة ترافقها ابتسامة سادية، أعلم أنها ستطاردني في كوابيسي الليلة. لم أعد أحتمل أن أستنشق نفس الهواء الذي يستنشقه هذا المختل، فنهضت عن مقعدي، وتركت عمرو يستأنف الفيلم الذي يروقه.



خرجت من القسم أفك إسورتي قميصي وأزراره من عند العنق وحتى بداية صدري، أكره الاختناق المصاحب لارتداء القمصان والأحذية الجلدية وكل الملابس الرسمية المقيدة للجسد في هذا الحر المقيت.

ركبت سيارتي، وألصقت وجهي بالمكيف الذي شغلته على أقصى

درجة، لا بصبرني على صهد الصيف سوى التفكير في حبات المانجو
التي تنتظرني في ثلاجتي. فتحت الراديو فسمعت ألحان ساكسفون
رائق يتبعه صوت محمد منير يغني:

ليلي يا ليلي
يا ويلي يا ليلي
اسمك الغالي

أطفأت الراديو سريعاً وأنا ألعن ليلي واسمها، ثم ساد صمت لا
يقطعه سوى أنفاسي المضطربة وأنا أستعيد إشاعة أحداث اليوم التي
كانت أرحم من استعادة تخلي ليلي عن مستقبلنا معاً.
القتلة المأجورون والسفاحون مثلهم مثل المستذنبين ومصاصي
الدماء، يستمتع الشعب المصري بمشاهدتهم على الشاشة، ولكن
يستحيل أن تقنعه بأنهم كائنات حقيقية تعيش حوله.
أفكر: كم حياة كان من الممكن أن نُنقذها إذا صدقني رؤسائي
حين طرحت عليهم منذ شهور أن الجرائم التي نتلقى بلاغاتها في
المنطقة ليست جرائم منفصلة، بل مرتكبها سفاح محترف، وله
نمط واضح!

اتهموني بأن الأفلام لحست مخي، بينما لحست أمخاخهم
البيروقراطية والروتين وكل ما هو دون الوسط. عدت عليهم
التشابهات فقالوا إنها مصادفات، قلت لهم ما من شيء اسمه مصادفة،
قالوا أتعارض القدر؟

نلوم القدر على كارثة مبهمة مجهولة الأساس، لأننا أكسل من
إعمال عقولنا، حتى صار التفكير النقدي إثماً وفجوراً.

سخرُوا مِنِّي، وأقنعوني بأنني متأثر بفيلم «كلاشنكوف» أكثر من اللازم. الأغبياء منعدمو الذوق السينمائي لم يستخدموا حتى فيلم (Léon: The Professional) في السخرية مِنِّي!

همست إلى نفسي بضيق وأنا أميل برأسي نحو النافذة لأستريح قليلاً من الصداق الذي تملكني: «أنا صبح يا ميديو كريا ولاد العادية!». أخرجت من جيبِي كيس «سكوتش منت». ورثت إدمان طعمه النعناعي المنعش من أمي - غفر الله لها - وألقيت حبة منه في فمي لأنخلص من احتقان الحلق الذي تمكن مِنِّي بمجرد أن انتبه ضميري إلى أنني أعيش لحظة جنون عظيمة كهذه، فقرر تذكيري بأنني لست المحقق ديف توشي الذي كرّس عمره لمطاردة السفاح في فيلم (Zodiac). لقد تمادى سالم وهادي في سفك الدماء، لأنني لم أفعل شيئاً يمنع استمرار جرائمهما، غير أنني خمنت تخميناً حدسياً لم أجتهد بما يكفي لأعثر على دليل واحد يثبتهُ.

لست في حنكة نوح، ولا في ثقافة قطز، لو وقعت هذه الجرائم في إدارتهما لوجدنا بدل الدليل الدامغ ألفاً، ووضعنا هذين القاتلين خلف القضبان.

لا عزاء لي الآن إلا أن أقنع نفسي بأن الأمر انتهى. سالم سجين، وهادي قتل، لكن هذا لم يخرس الصوت الذي يهمس إليّ من مؤخرة رأسي بأننا قبضنا على الدمى من دون أن نقطع اليد التي نحرك خيوطها.

انتبهت لخروج العساكر وأمناء الشرطة يسوقون سالم - لعنه الله - إلى سيارة الترحيلات ليُعرض على النيابة التي أثق بأنها لن

تبت في أمره قبل أن يُعرض على أطباء الخانكة ليتأكدوا من سلامة قواه العقلية.

قبل أن أطفئ المكيف لأخرج من السيارة، تفاجأت بأن المقدم عمرو يفتح الباب ويجلس في المقعد المجاور لي أمرًا:
- اطلع يا ويلي.

حككت ذقني الحليق قائلًا بنبرة جاهدت ألا تبدو حادة أو منزعة
انزعاجًا صيانيًا:

- مش قولنا بلاش ويلي دي!
- أعمل إيه، كل ما أشوف عيونك الزرق وشعرك الأشقر المهفهف
على ودانك ده أفكر كلب مراتي.
تناديني باسم كلب زوجتك يا ابن الكلب!
رنّ هاتفه، فتفقد اسم المتصل، ثم قال:
- اطلع بقي، أحسن جناب الدكتورة سيليا وصلت ويتستعجلنا.
- وصلت فين؟
- بيت هادي الحكيم.



@ART_OF_BOOK

قطر

أُتُعرف أن الملك تحتمس الثالث ينسب مجده العسكري إلى
حلم؟

خلال إحدى رحلاته للصيد في منطقة الجيزة، قرر أن يستريح
أسفل تمثال أبو الهول، فغلبه النعاس، وزاره أبو الهول في الحلم،
وأمره أن يزيح الرمال المتراكمة عند قاعدته، وفي المقابل، ستباركه
الآلهة في حروبه، وتصد الأعداء عن حدوده.

تدفعني هذه الحكاية إلى التفكير، هل الأحلام رسائل من عالم
آخر كما آمن الأقدمون، أم أنها مجرد طريقة يفرغ بها عقلنا الباطن
أمنياته وعقده النفسية كما تصور فرويد؟

تنزهت بين حقول المعلومات المحفوظة في دماغي، حتى قطفت
معضلة تفسير الأحلام بين العلم والخرافة لأصرف النعاس الذي
يдахمني في حيلة لثيمة من عقلي، لأتخفف من ثقل الذنب الذي
يعتصر روحي، بينما أجلس في غرفة الانتظار متشبثاً بيد آسيا، باحثاً
عن سكينتي بين أصابعها.

نظرت أمامي، كان يقابل مقعدي أنا وآسيا صلاح يجاوره فادي الذي تبينت تعبيرات القرف على وجهه، بسبب ارتشاف صلاح الشاي بصوت مسموع يتردد صدها في غرفة الانتظار. لو كان نوح معنا لانزعج أكثر من فادي، ولربما زجر صلاح على سلوكه الهمجي، فأذناه تتحسنان من أبسط الأصوات.

هل آذاه أزيز الرصاصة التي أصابته، أم أن هول الصدمة أصمّه؟ يا الله، لماذا تركته وحيداً! حدسي أخبرني بأن ثمة أمراً مريباً حين عانقني وشكرني على وجودي معه قبل أن أتجه إلى مطعم «أبو تريكة» لأشتري الفطور، كأن الله ألهمه توديعي.

أحرقني شعوري بالذنب، وحمّلني ضميري المسؤولية الكاملة عما أصاب نوح والشاب خالد، وأعتقد أن آسيا شمت دخان جلد ذاتي، فوضعت كفها الأخرى فوق يدي الممسكة بيدها، ثم همست إليّ:

- هيخرج منها على خير، وهيقي زي الفل.
ربّت على كفها، وهززت رأسي ببطء.

منذ أن وصلت إلى المستشفى وهي تتولى الاستعلام من الأطباء، وتدوين التفاصيل المهمة، وملء الاستمارات المطلوبة. تنقلها في المستشفيات لسنوات، مع والدتها القعيدة وخالتها مريضة اللوكيميا وابنها طاهر المبتلى بمشكلات في قلبه منذ ولادته، أكسبها خبرة واسعة في التعامل ببراعة مع التوتر والضغط والمعلومات الطبية.

كنت على وشك أن أعبر لها عن امتناني لوجودها معي، لكن بر

محادثتنا صوت امرأة تقول بحماسة بالغة وبلهجة شعبية تلتصق فيها
حرف الشين بحرفي التاء والطاء:

- حضرة الظابطش بيرس؟

التفتُ فوجدت ممرضة أربعينية شديدة النحافة، ترتدي حجابًا
تسدل من مقدمته غرة مصبوغة بلون برتقالي مشوب بحُمْرة.

ضحك صلاح ضحكة خشنة، ثم صحح للممرضة:

- اسمه قطز يا نيرس.

- لا مؤاخذه يا باشا، دوكهه برضك كان في وإسلاماه.

دخلت الممرضة الغرفة، ووقفت أمامي أنا وآسيا موجهة
كلامها إليَّ:

- إنت مسكت قضية وداد أختشي من قيمة سنتين. معقولة مش
فاكرني يا باشا؟ أنا شكرية.

استحضر عقلي الخطوط العريضة لقضية مقتل زوجة المنتج
يوسف الميناوي في حفل رأس السنة، فتذكرتها، وتذكرت انطباعي
الوحيد عنها آنذاك، امرأة لثيمة، ولاؤها الوحيد للجنيه.

كنت على وشك أن أعلق على كلامها، لكن صلاح وضع كوب
شايه الفارغ على الأرض، ثم قال للممرضة وهو يغمز إليها:

- عاشت الأسامي يا نيرس شكرية. العسل زيرو كام بقى عشان
نظمن منك على زميلنا اللي في العمليات؟

أدركت أنني أحفظ حركات صلاح، إلى درجة أنني أعلم أن هذه
النبرة المصاحبة لحركات الجسد التي يقوم بها الآن هي مقدمات
محاولة مخزية ومثيرة للإحراج لملاطفة الممرضة.

التفتت شكرية إليه بابتسامة أوحى إليّ بأنها ستستجيب لملاطفته،
فتدخلت قاتلاً إعجابهما المقزز في مهده:

- فاكرك يا مدام شكرية ...

- آنسة يا باشا.

- ماشي. فاكرة الطابط اللي كان معايا وقتها؟ نوح؟

- أو مال، هي دي هيبة تنسي برضك؟

- هو لسه داخل العمليات عشان عنده كسر في الحوض وواحد
رصاصة.

- أيوه، اللي مع دكتور نعيم، لسه مستأصلين له... يوه، ما يصحش
أقول غير لما الدكتور يطلع.

سألته بصوت خرج مني عاليًا وحادًا:

- استأصلوا إيه؟

- يا باشا أنا لو عليّ أقولك كل حاجة، بس الدكاترة لو عرفوا إني

اتكلمت قبلهم هيخصمولي، يرضيك أتضر في أكل عيشي؟

ابتسمت لي ابتسامة واسعة فهمت دافعها على الفور، أخرجت

من جيبى مائة جنيه انتشلتها مني بلهفة ودستها في جيبها، ثم قالت:

- استأصلوا طحاله!

رددت ما قالته بانفعال شديد، لكنها شرحت لي من دون أن

تنكمش ابتسامتها المادية:

- يا باشا استئصال الطحال زيه زي استئصال اللوز، استهدى

بالله أو مال. إحنا قلقانين بس من النزيف اللي لقوه على مخه.

قالت الجملة بأريحية كأنها تعلن لي أنهم وجدوا بثرة في جيبه.

لم أتمكن من تكوين جملة سليمة من فرط القلق، فتطوعت آسيا
بسؤال الممرضة:

- التزيف في أي حثة في المخ، وهياثر على وظائفه إزاي؟
- والله ما أعرف يا مدام، حاكم مش أنا اللي معاهم في العمليات،
بس يعني ممكن أتطقسلك.
- يبقى كتر خيرك.

شرعت في الخروج، فلحقها صلاح وهو يقول:

- يا نيرس، برضو ما قتلش زيرو كام.
- خرجا من غرفة الانتظار، وبقيت أفكر في أسوأ السيناريوهات
التي قد تنتج عن هذا التزيف، حتى ثقل رأسي من فرط التفكير،
فملت إلى الأمام، وأسندت مرفقي فوق ركبتي، ثم وضعت رأسي
بين كفي.

نهض فادي قائلاً إنه سيحضر لنا بعض القهوة، ثم تركني جالساً
في هذه الوضعية، بينما تربت آسيا على ظهري بحنان.
دعوت الله أن يُنجي نوح، ويرفع عنه بلاءه حتى رنَّ هاتفي، فرفعت
رأسي ببطء وتفقدت اسم المتصل، كان تيتة إحسان.
لمحت آسيا اسمها على شاشة الهاتف، فسألته:

- إنت لسه ما قتلهاش؟

- كنت فاكر إنني هقدر أماطل لحد ما يطلع من العمليات وأتطمئن
عليه. مش عارف أقولها إيه.

- أنا هبلغها. هات مفاتيح العربية هروح أجيبها من بيتها بدل ما
أقولها على التلفون ويحصلها حاجة.

توقف هاتفي عن الرنين فأعدته إلى جيبِي، وأخرجت مفاتيح
سيارتها وأنا أقول بأسف شديد:

- أنا انشغلت باللي حصل ونسيت أقولك إن نوح لما وقع من
البلكونة نزل على عربيتك. أتظمن عليه بس وهرجعهالك
جديدة و...

تلفتت حولها، وبمجرد أن تأكدت من أننا بمفردنا، طبعت قُبلة
سريعة على خدي قاطعت بها اعتذاري، ثم قالت بابتسامة تجمع
بين الشهامة والركة:

- خدت الشر وراحت. خلي بالك من نفسك لحد ما أجيب طنط
إحسان وأرجعلك.

أخذت حقيبتها، وعطرها، واحتواءها لي، وتركتني وحيداً على
المقعد المعدني غير المريح تحاوطني رائحة المنظفات الكيميائية،
والقفازات اللاتكس، وضوء غرفة الانتظار الأبيض الكئيب.
دخلت غرفة الانتظار امرأة أربعينية بصحبة مراهقة، أظنها ابنتها،
تشرب عصيراً أصفر صفاراً باهتاً في كوب بلاستيكي شفاف به قطع
من الثلج. ألقت الأم عليّ السلام، ثم جلستا على مقعد يبعد عني
بثلاثة مقاعد.

أرجعت رأسي إلى الخلف مستنداً إلى الحائط البارد الذي يلتصق
به مقعدي، وتنفست بعمق وأنا ألقي نظرة مطولة على حقيبة متعلقات
نوح على حجري، ثم أغلقت جفني المرهقين، ودعكتهما وأنا أئنأب
بعنف.

- اقفل بئك وإن بتتاوب!

فتحت عيني فوجدته جالسًا على المقعد المجاور لي واضعًا
ساقًا فوق الأخرى، عاقدًا ذراعيه بأريحية، وعيناه تنظران إليّ بشفقة
وأنا أتمتم:

- نوح؟!

علق بابتسامته الساخرة ونبرته المستهزئة:

- لا، أمه!

كيف أراه أمامي الآن في غرفة انتظار المستشفى على نفس الحالة
التي تركته عليها قبل أن أذهب لشراء الفطور بقميصه الأسود وساعته
انفضية وبنطاله الأسود، ووجهه خالي من الجروح، وجسده بلا
رضوض أو كدمات؟!

- أنت جيت هنا إزاي؟

أشار بذقنه نحو المراهقة التي تشرب العصير بجوار أمها، فدققت
النظر، وأدركت أنها تشرب عصير ليمون.

عرفت من نوح أن الأرواح تطوف على الأرض أربعين يومًا بعد
الموت، وفي أثناء هذه الأيام، تجذبها رائحة الليمون.

هل مات نوح؟ وحتى إن مات فكيف أرى روحه وأنا لا أملك
العين الأثرية التي وهبه الله إياها؟

حدقت إليه بخليط من السعادة لرؤيته سليمًا والخوف من أنه
مات في العمليات، وأني أحادث روحه. خطر على بالي ألف سؤال،
لكنني لم أتمكن من صياغة واحد منها. كنت أشبع عيني برؤيته
صحيح البدن.

نظر إلى حقيبة متعلقاته، ثم سألني:

- إيه ده؟

- حاجتك.

انتشل الحقيبة من حجري وفتحها. ألم يقل لي إن الأرواح لا
تقدر على الإمساك بأي شيء؟
أول ما أخرجه كان دفتره الأسود الصغير، فتحه وقرأ أوراقه سريعاً،
ثم استأنف فحص محتويات الحقيبة: محفظته، ومفاتيحه، ودبلته،
وساعته، وأصفاده، ثم مد يده يبحث عن شيء في قاع الحقيبة، لكنها
كانت فارغة، فسألني:

- مش حاسس إنك ناسي حاجة؟

أومأت إليه بالنفي، فقططق بلسانه في استنكار مشاكس، ثم قال:
- طبنجتي فين يا أهطل!

شعرت بهزة عجيبة على المقعد، فانتفضت من مكاني، وفتحت
عيني فاكشفت أنني منذ أن قررت غلقهما كي أريح جفوني من
فرط الإرهاق، غلبني النوم ولم أفتحهما ثانية إلا الآن وفادي
يهز المقعد بسبب جلوسه عليه، وفي يديه كوبان من القهوة وهو
يسألني:

- كنت بتحلم ولأ إيه؟

بالطبع كنت أحلم، فأنا لا أرى الأرواح، ولكن هذا الحلم كان
شديد الواقعية، كما كانت الأحلام التي ظهرت فيها روح فتون لي
لتهددني بقتلي أنا ونوح منذ قرابة العام والنصف.

يا ربي يا رحيم، هل مات نوح وزارني في منامي؟! ألم يخبرني
بأن الأرواح تتواصل مع الأحياء من خلال الأحلام؟

انتفضت من مكاني، وخرجت من غرفة الانتظار متجهًا إلى منطقة
غرف العمليات.

وصلت إلى الباب الملتصق عليه تحذير واضح بأن المنطقة
مخصصة للطاقم الطبي فقط، وقبل أن أدفع الباب مخالفًا التعليمات
على غير عاداتي، وُضعت يد على كتفي من الخلف، فالتفت ورائي
لأجد صلاح يسألني:

- بتعيطي ليه يا بيضا؟

لم أفهم تعليقه السخيف إلا حين وضعت يدي على وجنتي،
فاكتشفت أن دموعي الناتجة عن الإرهاق والقلق هربت مني من
دون أن أنتبه.

مسحت دموعي، ودفعت يده عني بغضب، واستدرت لأنتقل إلى
نسم العمليات، ولكنني وجدت الباب المؤدي إليه يُفتح وتخرج منه
شكرية وهي ترتدي كمامة، أنزلتها عن فمها لتقول:

- اتظمن يا باشا، النزيف طلع محدود ووقفوه، الدكتور هيبقى
يشرحلكم التفاصيل لما يخرج.

- يعني مفيش خطر على حياته؟

- لحد دلوقتي كله في السليم.

تنفست الصعداء، وبقيت واقفًا مكاني، فاقترب صلاح وهمس إليّ:
- اخلع بقى يا نسكويك، ما تبقاش قطاع أرزاق.

تركتهما، وقلت لنفسي في طريق عودتي إلى غرفة الانتظار إن ما
حدث منذ لحظات كان مجرد حلم عابر. نوح لم يتحول إلى روح
تجذبها رائحة الليمون، ما زال حيًا يرزق.

جلست إلى جوار فادي، فعلق وهو يعرض عليّ كوب قهوة:
- فيه جديد؟

- وقفوا التزيف.

أخذت القهوة، ودست يدي في جيبي وأنا أسأله:
- حسابك كام؟

- يا برو ولا حاجة. أنا بس عايز منك خدمة.

هزرت رأسي مرحبًا بسماع طلبه، فهمس إليّ بنبرة توسل:
- بابا هيجي دلوقتي و...
- بابا؟

- قصدي اللوارشوان.

- إنت ابن اللوارشوان؟

هز رأسه مؤمنًا على كلامي، فضربت كفًا بكف، وقلت:

- وليه ما قلتش ده لنوح أول ما شك فيك يا فادي، ده اللوارشوان
في مقام أبونا!

- بابا نبه عليّ ما أعرفش حد، عشان ما تفتكروش إنه هيفضلني
عنكم في القسم. وبعدين أنا ما رضيتش أقول لنوح بالذات
عشان أسلوبه معايا مستفز يا برو.

- طب اتكلم بأدب، عشان ما تغابش عليك يا برو.

راقبته بعض على شفتيه، كأنه يجبر نفسه على ألا يتجاوب مع
انفعالي عليه.

أخذتُ رشفة من القهوة ابتلعها ببطء، ثم استوضحت منه بهدوء:
- إيه الخدمة اللي عايزها؟

- أنا بحاول أفتح صفحة جديدة مع بابا، ومش عايز حاجة تبوظ
شكلي قدامه دلوقتي. لما يسألك عن اللي حصل، ممكن
ما تحكي لوش كل حاجة بالتفصيل؟
حدثت إليه للحظة لأستوعب مطلبه.

أخرجت من محفظتي مبلغاً قدرت أن يكون كافياً كثرمن للقهوة
من كافيتريا المستشفى، وجذبت يد فادي بعنف، ودست فيها
المال وأنا أقول:

- خد تمن قهوتك، وياريت تاخد صلاح في إيدك، وتاكلوا إنتو
الأتين على الله.

- إنت قفشت ليه يا برو؟

- عشان إنت وصلاح من ذوات الدم البارد يا برو. هو بيحاول
يشقط الممرضة وإنت شاغل بالك بصورتك قدام دادي، لا حد
فيكم قلقان على الراجل اللي كان هيدفع حياته تمن استهتاركم،
ولا حد حاسس بإنني هتجلط لو ما طلعت منها صاغ سليم.
ظل يرمقني بنظرات غامضة، لم أتمكن من تفسير منبعها، لم تكن
غاضبة ولا عدائية كما توقعت أن تكون.
ترك المال الذي أخرجته من محفظتي على مسند مقعدي، وقال
بعصية:

- على فكرة أنا فاهم إنت حاسس بإيه، عشان كده بحاول أشتك.
سأله مغتاظاً:

- كان لك صاحب بين الحياة والموت قبل كده؟

- كان لي أخ!

صمت، وتذكرت أنني غبي!

اللواء رشوان ليس مجرد رئيسي في العمل، بل هو أيضًا صديق أبي، مما جعلني أعرف أن ابنه البكري حين وصلت إليه نتيجة الثانوية العامة، وأدرك أن مجموعته لن يجعل منه جراحًا كما أمل والداه، بكى في غرفته بانفعال ما كان يجب أن يفعل أي مريض تمدد شرايين دماغية، فارتفع ضغط دمه فجأة، وانفجر أنيوريزم دماغه، فأصيب بسكتة دماغية في أثناء نومه الذي لم يستيقظ منه قط!

الآن أستطيع تفهم استهتار فادي وتهوُّره، مات أخوه البكري، لأنه تعامل مع الحياة بجدية أكثر مما ينبغي، فيبدو أنه اختار أن يكون على النقيض منه لينجو.

ولى وجهه إلى الأمام مبعداً نظره عني، ثم تنهد بثقل، ونهض فجأة كأنه لم يعد يطيق البقاء في غرفة الانتظار بعد أن سمعت الجدران مأساته، فأمسكت رسغه وأنا أقول:

- مش هقول حاجة لسيادة اللوا بشرط، تجيبلي كوباية قهوة كمان عشان تبقى رشوة عليها العين.

ابتسم بامتنان، ثم خرج من الغرفة ليحضر لي مزيداً من القهوة. أرجعت قدمي أسفل المقعد فارتطمت بشيء، ملئت لأجد حقيبة متعلقات نوح.

انتشلتها سريعاً من الأرض، وفحصت محتوياتها، طبنجة نوح لم تكن موجودة فعلاً كما في المنام، هل سرق القاتل سلاحه؟ أخرجت دفتره الأسود الصغير من الحقيبة، عسى أن أجد فيه تفصيلاً تدلني على القاتل.

فتحت، ففاحت من بين صفحاته رائحة صديقي وأنا أقلبها وصولاً
إلى تاريخ الليلة الماضية وتوقيت تلقي البلاغ وموقعه وتفاصيله.
كتابة نوح ممتلئة بالأخطاء الإملائية لقلة قراءاته، وخطه يشبه
خط الأطباء، رفيع ومتشابك، ولا يلتزم باستقامة خطوط الصفحة،
ويكاد يكون شخبطة سريعة غير مفهومة، كأنه يسابق أفكاره، ولكنني
عاشرته بما يكفي لفك ألغاز خواطره المدونة.

قربت الدفتر إلى عيني، ورُحت أقرأ كل سطر على مهل في
محاولة لفهم ما توصل إليه وكاد يدفع حياته ثمناً له، لم أجد معلومة
لم يشاركها معي إلا هذه المكتوبة في منتصف آخر صفحة:

العيادة أجازة الجمعة

عميد النجدة نادي الناجي = القاتل

شعرت بهزة المقعد مجدداً، فالتفت إلى يساري لأجد صلاح
يجلس إلى جوارِي، ويضع ساقاً فوق الأخرى معلناً:

- وصلني إخبارية إنهم لقوا جثة صاحب الكول ستر على
الشاطئ في الساحل، والفحص الأولي يقول سبب الوفاة
جرعة هيروين زائدة، ومش لاقين اللابتوب بتاعه، لا في
بيته، ولا في الشاليه، ولا في عربيته. بتوع الطب الشرعي
لسه ما أكدوش الشبهة الجنائية، بس جسم الراجل مفيهوش
شكة واحدة غير شكة الجرعة الزائدة دي، يعني مش مدمن
وبعدين...

قاطعته بنبرة اتهام حادة وصريحة:

- إنت سُفت كارنيه عميد النجدة اللي وصل موقع الجريمة؟
أنزل ساقه على الأرض، وحك شاربه ثم سالفه، وقال بنبرة
تدعي الغباء:

- العميد نادي الناجي؟
- يبقى ما سُفتش الكارنيه يا صلاح!
- عايز كارنيهه في إيه دلوقتي؟
- العميد هو القاتل، ونوح اكتشف ده، ومن الظاهر إنه واجهه
عشان كده حاول يقتله.

- إزاي يا ابني وهو ساب مسرح الجريمة من بدري و...
توقف عن الكلام، ونهض فجأة يؤدي التحية العسكرية لشخص
خلفي.

التفت ورائي، فوجدت اللواء رشوان يجاوره فادي الذي تندى
جبينه بالعرق، وهو ينظر إلى الأرض ممسكًا كوبَي القهوة.
نهضت بدوري احترامًا للواء المتأمل وجوهنا بخيبة أمل، حتى
سألني بنبرة غاضبة أكثر من كونها قلقة:

- زميلك خرج من العمليات؟

- لسه يا فندم.

هز رأسه وهو يحك شاربه الكث بإصبعه المكتنزة، ثم نقل نظره
بين صلاح وفادي، حتى قال بانفعال:

- إنتو الاتنين متحولين للتحقيق، وخلوني أبشركم بأن نتيجة
هتبقى تنحيتمكم عن شغل المباحث وتحويلكم لضباط نظام.
يا حلاوتكم إنتو الاتنين في الأبيض.

ضغط اللواء على كتف فادي، وقال بأداء أب يوبخ أكثر أبنائه
مساكسة:

- ياذن ربنا التان الصناعي الجميل اللي إنت مخلص فلوسك عليه
ده هخليهولك طبيعي من كتر البرم في الشوارع.
مز رأسه مطيعاً أباه، بينما تبرم صلاح، وقطب، حاجبيه وهو يقول:
- بس يا سيادة اللوا أنا شغال على قضية اختفاء فتيات الليل من
محيط كوبري قصر النيل، ودي قضية خطيرة و...
- من فضلك يا صلاح، اكتم خالص.

صمت، فالتفت اللواء رشوان إليّ وقال:
- عمت مواصفات المجرم اللي انتحل شخصية وكيل نيابة؟
- تقصد اللي انتحل شخصية عميد النجدة يا حضرة اللوا؟
أجابني مستنكراً سؤالي البريء:
- أنا أقصد اللي قلته يا قطز. أنا قلت لنوح إن النيابة ما تبلغتش
بالجريمة، يعني اللي كان عامل فيها وكيل نيابة ده مجرم.
- اللي نفذ الجريمة اتنين مش واحد؟
- والاتنين لبسوكم السلطانية يا باشوات، لأن محدش فيكم كلف
خاطره يطلع على كارنيهاتهم.

رمق فادي وصلاح بمزيد من الغضب، ثم أضاف:
- إحنا راجعنا كاميرات المنطقة كلها، مفيش لقطة واضحة وش
الاتنين.

قال فادي بنبرة خافتة مرتعشة من دون أن يرفع عينيه عن الأرض:
- أنا حفظت رقم لوحة العربية الجيب اللي اتحركوا بها و...

- متفبركة. بما إنكم اختلطوا بينهم كل الساعات دي، حد عنده معلومة تدلنا عليهم؟

- بابا أنا ممكن...

حدق اللواء إليه بجدة، فصصح فادي خطأه سريعاً:

- أقصد يا سيادة اللوا بما إن مفيش لقطات واضحة لو شهم فأنا

ممكن أستخدم موهبتي في مساعدتك.

- موهبتك في العك ساعدتنا بما فيه الكفاية.

انزلق العرق عن جبينه وهو يوضح مقصده لأبيه:

- أقصد موهبتي في الرسم، أنا فاكر ملامح الاتنين بوضوح،

وحضرتك عارف إن لولا يعني الظروف كان زماني رسام

عالمي بيع لوحاتي بملايين، مش قاعد بحقق في جريمة قتل!

صمت اللواء للحظة يبدو أنه تأمل فيها تلميح فادي الخبيث

لقمعه له، ثم قال له:

- ترسم وش المتهمين وتصوره صورة واضحة وتبعتهولي.

اتفضل!

نفذ فادي أمر أبيه، فانصبت نظرات اللواء اللاذعة على صلاح،

فحك الأخير قفاه، وأدى له التحية العسكرية، وغادر غرفة الانتظار

في صمت.

جلس اللواء على المقعد، وجذبني من مرفقي لأجاوره، ثم قال

مغيراً نبرته من نبرة رئيس جهاز المباحث لمنطقة قصر النيل، إلى

نبرة أونكل رشوان صديق أبي:

- أنا مضطر أتحرك على المديرية دلوقتي بس هتابعك بالهاتفون.

مش محتاج أوصيك تتماسك قدام دكتورة سعاد، كفاية اللي هي فيه.

- أول ما نوح يخرج من العمليات بالسلامة هتصل بيها أبلغها.

- تتصل بيها إيه؟ أنا سايبها في الجراج في عربية جوزها.

دخلت طنط سعاد إلى غرفة الانتظار متشحة بالأسود، يتبعها زوجها مرتدياً بدلة شديدة التكلف.

نهضت مقترباً لاستقبالها، وبمجرد أن رأته سالت دموعها، وألقت بنفسها بين ذراعي وهي تسألني ألف سؤال عن حالة نوح بصوت متحرج.

أكدت لها أن إصابته بسيطة، ولكنني في الواقع كنت منشغلاً بسؤال غير الأسئلة التي طرحتها عليّ، من الذي أخبرها بأن نوح في المستشفى؟

* * *

رأيت عاطف الهمشري، زوج طنط سعاد، مرتين في حياتي؛ الأولى في عزاء ابن خالة نوح، والثانية الآن وهو يسير بعرج ملحوظ ليجلس قبالة مقعدي.

راقبت كيف تجذب طنط سعاد حجابها الأسود وتعديل وضعيته بما سمح لكشف جزء من وجنتها وعنقها وذقنها وما عليها من علامات حمراء قارنتها بالكدمات الزرقاء على براجم عاطف.

هل اتصلت بنوح عشرات المرات في الأمس لأنها تعرضت للتعنيف مجدداً؟

نهضت عن مقعدي، وجلست في المساحة الضيقة بين طنط سعاد

وزوجها، مما أجبره على إفساح مجال للجلوس بينهما من دون أن
ألتصق فيه التصاقاً مزعجاً.

ملتُ إلى عاطف، وقلت وأنا أمد يدي إليه:

- ما عرفتُكش بنفسي، أنا قطز صاحب نوح.

قبض على كفي بشدة وهو يقول:

- تشرفنا.

سألت طنط سعاد وأنا أربت على كتفها بحنان:

- حضرتك عرفتُ باللي حصل لنوح منين؟

زمتُ شفتيها، وأعادت جذب طرف حجابها لستر كدماتها، بينما

أجابني عاطف بالنيابة عنها:

- أنا اللي قتلها.

- حضرتك كنت موجود وقت الحادثة؟

- لا، بعد ما زميلكم صلاح خد أقوالي رجعت البيت. البواب

هو اللي بلغني بالحريق وباللي حصل لابن سعاد.

- أتمنى تكون مأمّن على شقتك، لأن أضرار الحريق كانت بشعة.

قال بابتسامة باردة شعرت بأنه يود أن يرسل إليّ بها رسالة ما

وهو يقول:

- أنا معنديش حاجة مش مأمّن عليها.

نهضت طنط سعاد تضرب الأرض بخطوات مضطربة، وخرجت

من الغرفة متجهة إلى الممر الذي ينتهي بالحمامات.

تنهد عاطف، وأراح ظهره على المقعد عاقداً ذراعيه يتأمل السقف،

فانعكس نور المصابيح النيون على عدستي نظارته الطبية، كأن عينيه

عبنا شبح أبيض. بقي على هذه الوضعية المتأمل من دون أن ينطق بكلمة. لم أسمع إلا أنفاسه الثقيلة البطيئة لقراءة الدقيقة.

ضايقني السكون، فوقفت أطرق فقرات ظهري، وأفرد ذراعي، وأدعك كتفي، ثم اتصلت بي «حياتي»، وأخبرتني بأنها مع تيتة، وأنهما في طريقهما إلى بيت نادية الآن، فشكرتها، وأخبرتها بأنني أحبها، ثم أنهينا المكالمة.

وقفت أثني ساقي نصف ثنية باتجاه الحائط في صمت مطول مزعج، أنهاء وقع خطوات شاب هزيل في آخر الممر يرتدي قميصاً أسود فضفاضاً، وشعره بني طويل معقوص لأعلى. رأيت وجهه النحيف بوضوح حين وقف أمامنا، له أنف معوج، وأذنان ضخمتان، وندب غليظ في حاجبه أضاف إلى ملامحه غير الناضجة لمسة أثارت ريتي.

نظر إليّ نظرة مقتضبة، ثم إلى عاطف، وسأله بصوت رفيع:

- أنت صاحب الزلموكة البيضاء اللي في الجراج؟

توقف عاطف أخيراً عن تأمل السقف، ونظر إلى الشاب، وأوماً إليه بالإيجاب، فأردف صاحب السؤال:

- طب غير ركنتها يا دكترة عشان ساذة مطلع الإسعاف.

نظر عاطف إليه نظرة مطولة، ثم زفر ببطء، ونهض عن مقعده، بدأ رمشي في الممر يتبع ذا الندب من دون أي تعليق من كليهما.

عاطف

هذا الصباح، أيقظني ألم غاشم في ساقَي اليسرى فاندفعت أدلكها،
ثم تذكرت أنني لا أملك ساقاً يسرى.

هذا ما يُسمونه «الألم الوهمي»، سخافة يمارسها عليك عقلك
ليقنعك بأنك تعاني ألماً شديداً في عضو أفقدتك الدنيا إياه. إن كان
عقلك قادراً على خداعك إلى هذه الدرجة، فما بالك بخداع خصومك؟
تجاهلت ألم ساقَي المبتورة، وانشغلت بألم رأسي الذي يبدو
أنه كان يتربص بي في أثناء نومي، حتى أوقعني في كمينه بمجرد أن
فتحت عيني.

تأقلمت مع الألم، ثم بدأت أدرك أنني نائم في مغطس حمام فارغ،
وقبضتي مُحكمة على عنق زجاجة فودكا نصف فارغة، ونظارتِي
الطبية متروكة على مقعد الحمام المغلق، وطرفي الصناعي ملقى
على البلاط الأسود بإهمال إلى جوار هاتفي وكاميرا كانون مغطاة
بالسخام والرماد، ومحول فيه كارت ميموري ملطخ بدماء جافة،
وطبنجة في جرابها الجلدي.

جلت بنظري في الحمام لأسترجع في أي بيت من بيوتي أمضيت
الليلة، فوجدت الإجابة في تفاصيل مثل عبوة الصابون غير المستخدم
عند الحوض، والمنشفتين النظيفتين المعلقتين بدقة موظفي الفنادق
على يميني، ومعجون الأسنان الجديد والفرشاة المغلفة بالبلاستيك،
والقضبان الحديدية حول النافذة، وقفل الباب الإلكتروني الذي لا
يعمل إلا ببصمة إصبعي، أنا في أكثر بيت لا أطيع المكوث فيه، بيت
سعاد في المعادي.

تركت الفودكا على الأرض برفق، إنها المرة الأولى التي لا أسقط
زجاجة الخمر من يدي فأستيقظ على صوت تحطمها. نهضت بحذر
من وضعية نومي التي آذت فقرات عنقي، فاكتشفت أنني عارٍ كما
ولدتني أمي، وأن على براجمي كدمات مؤلمة.

هل ثملت وضربت سعاد مجدداً؟

التقطت هاتفي لأتفقد الوقت، كانت الساعة التاسعة والثلث
صباحاً، في مثل هذه الساعة منذ تسعة وأربعين عاماً ماتت شريفة،
حببتي الأولى ورفيقة طفولتي.

لا أملك لشريفة صورة غير المحفوظة في قلبي. اعتدنا التغيب
عن المدرسة كل صباح أربعاء، لنلتقي في حقل القطن عند التربة،
نرقص رقصات الفلكلور المصري، ونحلم بالانضمام إلى فرقة الفنون
الشعبية التي تطوف المحافظات لجمع التبرعات للمجهود الحربي.
علمتني الرقص الفلاحي، وأنا علمتها رقصة البمبوتية، بحكم
أنني من بورسعيد، وانتقلت إلى قريتهم بعد أن هُجِّرنا قسراً من مدن
القنال إثر حرب الاستنزاف.

في ذاك الصباح، جد شريفة الأكبر أمسكها متلبسة وهي تحاول
التهرب من المدرسة للقائي، وأجبرها على دخول الفصل، ثم عاد
إلى بيته، وبقيت أنا في الحقل أنتظرها، حتى سمعت أزيزاً وقرقرة
بشعة، كأن السماء توحشت، وصارت تزار، ثم رأيت خمس طائرات
تحلق على ارتفاع شديد الانخفاض.

حتى هذه اللحظة، يرتعب فؤادي من ضجيج أي طائرة، لأنه
ارتبط عندي بلحظة قصف الصهاينة لمدرسة بحر البقر الابتدائية،
مدرسة حبيبتني شريفة.

ركضت القرية كلها لانتشال جثث ثلاثين طفلاً من أبنائهم من
تحت الأنقاض، وأنا بحبي وطفولتي وبراءتي ألقيت بنفسي أسفل
الركام من دون حذر باحثاً عن حبيبتني، فأنحشرت تحت حطام فصل
شريفة، وما زاد الطين بلة أنني في أثناء معافرتي للخروج سقطت،
واخترق ساقِي اليسرى من فوق الركبة سيخ حاد.

الصهاينة سلبوني ساقِي، وسلبوا شريفة رأسها، وسلبوا جدها
الفدائي الشهير الذي تغنى الشعراء بمأساته، أيوب المنوفي، نبضه،
فقلب العجوز لم يحتمل المنظر، ولحق بحفيدته الصغيرة خلال
سويعات.

فتحت صنبور المغطس لتنهمر المياه فوق رأسي، عسى أن تمحو
آثار ثمالي التي يترأى لي فيها جسد شريفة وهو يبحث عن رأسه.
جلست أسفل المرشة أقلب في أحداث الأمس الممتلئة بثغرات
اتسعت وتحولت إلى فجوات عميقة بعد أن تجرعت كؤوس فودكا
وويسكي مللت من عدها.

آخر ما أذكره أن زعفران أخبرني بأن موظفة استقبال الكول ستر لم تمُت، لأن هادي ابن الحرام أصيب بنوبة سعال قوية وهو يطلق رصاصة على رأسها، فلم يُصِبها في مقتل.

لا، ليس هذا آخر ما أذكره، أخبرني بعدها بأنهم اكتشفوا كاميرات مدسوسة في كل غرفة بالشقة، خَمَّنت الشرطة أنها متصلة بدرايف يخص صاحب الكول ستر، أي مستأجري اللعين أحمد سراج، فأرسلت أحد صبياني لسرقة هاتفه وحاسوبه وحياته بجرعة هيروين زائدة، تيمناً بطريقة قتل سلطان الدغش العبقريّة لابنة آمنة؛ شقيقته. لم أمر بتصفية شخص آخر بعد مستأجر شقة الكول ستر. زعفران قتل الفراش المختبئ في المخزن من تلقاء نفسه قبل أن يشارك نوح أي معلومة مفيدة.

نوح!

نظرت إلى الطبنجة، هذا السلاح ليس سلاح، وما حكاية الكاميرا وكارت الميموري؟

أغلقت صنبور الماء، ونهضت بحذر حتى لا يفقدني دوار ما بعد الثمالة توازني، وتنكسر ساقي السليمة مجدداً.

قفزت على ساقي الوحيدة لأنتشل المنشفة، ثم جلست على طرف المغطس أجفف ساقي المبتورة، وأعيد ارتداء طرفي الصناعي، ثم نهضت وارتديت رداء الحمّام الأسود، ووضعت نظارتي الطبية، وحملت الطبنجة والكاميرا وكارت الميموري.

بمجرد أن فتحت باب الحمّام الملحق بغرفتي وجدت بخاخة الربو وجهاز حقن الإبينفرين المضاد للحساسية ملقّين على الأرض بجوار

بدلة حفل تأبين سلطان الذي اضطررت إلى أن أنسحب من منتصفه
لأتابع الوضع في شقة الكول ستر والوضع في بيت هند شندويلي،
وأحاول أن أمحو اسم رجال الدغش عن الجريمتين.

لم أهتم بللملة ثيابي، همّني تفقد حالة بابي الذي لم يكن موصداً
بالقفل الإلكتروني، فتركت بصمتي على القفل، ودعست زر الإغلاق.
اتجهت نحو خزانة ثيابي، فتحت درفتيها العملاقتين، وأزحت
بدلاتي إلى الجانبين لأتمكن من دفع ظهرها الجرار وأسحب الرف
السحري الذي تقبع فوقه خزنتي السرية.

سجلت بصمتي، وأدخلت أرقام الخزانة الثمانية، تركت فيها
الكاميرا المتفحمة والطبنجة التي لم يسترجع عقلي هوية صاحبها
ولا سبب حصولي عليها، ثم انتشلت هاتفاً من الهواتف التي برمجها
لنا سالم، ووضعت فيه المحول بكارت الميموري.

لم أجد على الكارت سوى فيديو وحيد يصور من زاوية ثابتة
غرفة ممتلئة بزجاجات الكحول، وأدوات التعقيم، ورجالاً يرتدون
ملابس الطب الشرعي.

مرت دقائق على هذا الوضع الممل، طبيب يدخل وفني يخرج، أدلة
تُحرز وتحفظ وتكتب عليها أرقام متسلسلة، حتى رأيت السبب الذي
جعلني أبقى كارت الميموري أمام ناظري حتى وأنا تحت تأثير الثمالة.
زعفران يدخل الغرفة الفارغة، يسحب زجاجات الكحول
ويسكبها في أنحاء المكان، ثم يستخدم قداحة تمسك شعلتها في
طرف كرتونة ثم يخرج.

الآن تذكرت أن آخر مكالمة تلقيتها من زعفران كانت تخص

تفاخره بأنه أحرق الأدلة كلها، فذهبت إلى هناك لأتفقد شقتي،
وعدت بعدها إلى هنا لأشرب كأسًا احتفالية، ثم حملت الزجاجة،
وقررت أن أستحم لأتخلص من الحرارة والعرق اللذين التصقابي،
ثم نمت في مكاني.

لا، أنا لا أعاقِر الخمر بغرض الاحتفال في بيت سعاد أبدًا، ولا
أضربها حين أتمل بدافع السعادة، لا أتصرف هذا التصرف المشين
إلا إذا كنت قد ثملت لأهرب من أفكاري.

ما الفكرة التي حاولت الهرب منها في الأمس إذا كان زعفران
نجح في التخلص من أي دليل يديننا؟

رنّ هاتفي، فتركت المحول وكارت الميموري بجوار الطبنجة،
ثم أغلقت الخزانة وخزانة الثياب وأنا أتفقد اسم المتصل، الفار.
جاءني صوته الرفيع كالصرير عبر الهاتف وأنا أجلس على طرف
سريري غير المريح:

- دكترة، أنا وصّلت زعفران للمطرية، وراقبت الجوزي ما أمرتني.
المصور تعيش أنت، بس الظابط لسه فيه الروح. أفضل متابعه في
المستشفى لحد ما يخرج من العمليات وأكمل مكان زعفران؟
حاولت تذكر ما يقصده من دون أن أشعره بأنني لم أكن في وعيي
وأنا أملّي عليه هذه الأوامر.

بعد بضع ثوانٍ، تذكرت منظرًا لا أدري إن كان ذكرى أم هلوسة،
ابن سعاد يبصق دمه على وجهي.

أغلقت عيني وأنا أضغط بكفي على جبیني، وأسأله سؤالًا أتمنى
أن تكون إجابته بالنفي:

- تقصد نوح؟
طُرق بابي طرقًا عنيفًا يصاحبه صراخ وصياح سعاد الذي لا ينتهي
وهي تقول بأسلوب أقرب إلى النواح:
- عملت إيه في ابني يا عاطف! افتح الباب بدل ما أكسره على
دماغك!

نهضت وأنا أهمس إلى الفار:
- عينك عليه، وما تعملش حاجة غير بأمر مني.
أنهيت المكالمة، وألقيت الهاتف في جيب ردائي قبل أن أفتح
الباب لسعاد.

اقتحمت الغرفة، ووقفت أمامي بقامتها الفارعة والدموع تظفر من
عينها السوداوين اللتين أسرتاني منذ ما يزيد على ثلاثين عامًا، مبللة
وجهاها الأسمر الجميل الذي تسيطر عليه تكشيرة مرعبة.
لا تقوى تعبيرات غضبها على محو رقة أنفها وشفتيها المحمرتين
حمرة طبيعية كالنبيذ، ولا يخفي عني حجابها نعومة شعرها الطويل
الذي خضبت فضة الشيب جذوره لتصبح سعاد هي تصوري الحي
عن شكل شريفة لو قدر لها أن تشيب أمام عيني، ولكني ما كنت لأدع
شريفة تدفع ثمن ثمالي، حتى وإن كانت سبب تعاستي مثل سعاد.
لا أذكر لماذا أصبتها بهذه الكدمات، ولن ينفعني التذكر بشيء إلا
الشعور بالذنب تجاهها، وما فائدة الشعور بالذنب إن كان لن يغير ما
حدث، فالبكاء على الأشرقاء لن يخلصهم من شقائهم.

- حاطط ابني في دماغك ليه؟
- أنا هحط واحد أصغر من عيالي في دماغي؟

- أنا سامعك بودني بتقول اسمه في التلفون. ابني حصله إيه
يا عاطف، انطق!

- ابنك اتضرب بالنار يا سعاد، اتسدي بقي.
تجمدت في مكانها، كأنها تحاول استيعاب ما ألقيته عليها، ثم
بدأت ترتجف، وتلطم وجنتيها وهي تصرخ في:
- إنت وعدتني إنك مش هتأذيه!

متى وعدتها بهذا؟
- لو عايز أأذيه كنت أذيته لما اتهجّم عليّ في العيادة.
دفعني بعنف، وصرخت:
- أو مال قتلتة ليه؟

سألت نفسي السؤال ذاته، فلم تسعفني ذاكرتي بإجابة واضحة،
أهذه أعراض الزهايمر؟

قبضت على مرفقيها، وقلت لها بهدوء أعرف أنه يرعبها:
- لسه ما اتقتلش، مرمي في المستشفى.

هدأ ارتجافها وبكاؤها، ودفعني عنها، فحررت مرفقيها من
قبضتي، وتركتها تمسح دموعها بطرف حجابها، بينما أتفقد هاتفي
الذي اهتز في جيبي.

وصلت إليّ صورة لجثة هادي مشوهة ومطموسة الملامح، لقد
نجحت خطة آمنة الدغش، ودفعت سالم إلى قتل صديقه.

أريت الصورة لسعاد، ففزعت من دمويتها، وراحت تحوّل،
وتستعيز بالله، وأنا أقول لها:

- ده اللي ضرب ابنك بالنار، وده كان عقابي له. فاكدة ده مين؟

تأملت الصورة، وبالطبع لم تتعرف على صاحبها من فرط تشوُّه
ملامحه، فوشيت لها بالإجابة:

- هادي الحكيم.

فغرت فاهها، وظلت تحدد إليَّ لثواني، حتى قالت أخيراً بخليط
من الدهشة والشك:

- عايز تقنعني إنك قتلته عشان خاطر نوح؟

- مش عايز أقنعك بحاجة. أنا رايح المستشفى اللي ابنك فيها،
لو مهمة تزوريه اتفضلي معايا، ده لو لسه يعني عندك أي
أمومة ناحيته.

* * *

جلست في غرفة الانتظار في المستشفى أحدد إلى سقفها، أحاول
استرجاع الدافع وراء اختيار بياتي في منزل سعاد بعدما أمرت بقتل
ابنها، بينما يتحدث صديق نوح إلى زوجته، ويتبادل معها ألقاب
التدليل والتلطيف المقرفة.

تعبير رجال هذا الزمن عن حبهم رخو ومخز ومثير للاشمئزاز.
كنت روميو عصري، ولكني ما كنت أبداً لأنعت حبيتي بنعوت مثل
«حياتي» و«قلبي» أمام رجال آخرين كما يفعل هذا العاشق اللزج.
أنقذني من وصلة الرومانسية الركيكة هذه صوت الفار وهو يقف
أمامي ويسألني:

- إنت صاحب الزلموكة البيضا اللي في الجراج؟

فهمت المغزى من سؤاله، فأومأت إليه بالإيجاب، وتركته
يستكمل تمثيلته.



- طب غير ركنتها يا دكترة عشان سادّة مطلع الإسعاف.
نظرت إليه بإحباط، غباء هذا الجيل سيجلطني!
نهضت عن مقعدي تاركًا قطز التافه ومتخطيًا الممر، ووقفت مع
الفار أمام المصعد، فقال وهو يضغط على زر استدعائه:
- سُفتني وأنا عامل نفسي مش عارفك يا دكترة!
- سُفتك وإنّ حمار. عامل مش عارفني وبتقولي دكترة يا بَجم!
تدلى رأسه وهو ينظر إلى الأرض بخزي فبرز تحدّب عنقه أكثر
وهو يقول:

- لا مؤاخذه يا دكترة.
- إيه الحكاية؟
- الرؤوس الأربعة مستنيينك في ليموزين الحاج عبد الغني.
- هنا؟
هزّ رأسه مؤكّدًا، فسألته:
- ناقصهم مين؟
- الدكتورة آمنة.

دخلت المصعد أجاور عامله، الذي يحتسي الشاي بصوت
مسموع، وأنا أفكر، لماذا قررت رؤوس الأسرات المسيطرة على
نقابة الجريمة المنظمة، عقد اجتماع فوري داخل جراح المستشفى
في غياب آمنة الدغش؟

* * *

يتشابه المجرمون في فسادهم، ويختلفون في قصص صعودهم.
فلنسّم الأشياء بمسمياتها الحقيقية، من العته أن تشتهر أسرة مثل

أسرة آل راغب بسيطرتها على تجارة السلاح منذ عهد الخديو توفيق،
ثم يتحفنا الحاج عبد الغني راغب الذي بلغ من العمر أرذله بأنه رجل
مكافح اعتمد على نفسه!

الأمر نفسه ينطبق على أسعد مخيون وابن خالته نبيل عزيز.
نبيل يعاني عقدة نفسية شرسة تجاه النساء، لأن أمه ماتت وهي
تلده، وأخته جيهان عزيز حاولت خنقه وهو رضيع، وبجملته العقد
النفسية والأوهام يحاول إقناعنا الآن بأنه صانع مجد أسرة آل عزيز
في الاتجار بالأطفال حديثي الولادة لصالح الأثرياء الذين لم يرزقهم
الله الأطفال، على الرغم من أن أباه وخاله وضعوا حجر الأساس في
هذه التجارة منذ ستينيات القرن الماضي، وقد ورث نبيل الأربعيني
وأُسعد الثلاثيني كل شيء عن والديهما.

من يخادعون؟ كلنا نعرف أن رؤوس الأسرات الثلاث، آل راغب،
وآل عزيز، وآل مخيون، فتحوا أعينهم على الحياة ليجدوا أهاليهم
يحترفون الجريمة، ويغدقون عليهم بالعطايا والنعم من دون حاجة
منهم إلى الصعود من الطين إلى نجوم.

ما من عصاميين سوى سلطان الدغش وأنا، فبداية صعودي كانت
لحظة سقوط آل راغب الذين أبدتهم عن بكرة أبيهم في أشنع مذبحه
في تاريخ مصر، بعد مذبحه القلعة؛ مذبحه ديسكو الكينج.

تسع قائمة العصاميين أيضًا لتشمل شندويلي، حوت العقارات
الذي يغسل الأموال الملوثة بدماء الجريمة المنظمة داخل غسالة
الاستثمارات العقارية.

لم يتوقف شندويلي عن قلب نظره بيننا بعينين محمرتين من

فرط البكاء على وحيدته التي دفنها هذا الصباح، بينما ينهمك الحاج
عبد الغني بأكل خليط من المكسرات يلوكه كالجمل، ثم يمد يده
بالتطبيق تجاهي.

نظرت إلى الطبق، فوجدت من بين مكوناته «فول سوداني»،
فتساءلت إن كان يود مشاركتي طبقه كبادرة لبدء صفحة جديدة بيني
وبينه بعد أن قتلت أسرته كلها في حفل عيد ميلاد ابن أخيه ياسين
راغب، أم أنه عرف بطريقة ما أنني أعاني حساسية مميتة من الفول
السوداني وهذه طريقته لتهديدي؟

ابتسمت له ابتسامة واسعة خالية من المعنى، وقلت:
- واكل.

لم يعلق، تحسس كرشه التي تبرز من أسفل سترته الرياضية
الضيقة، وعدل النظارة الشمسية التي لا يخلعها أبداً حتى يحدق إلى
مفاتيح النساء من دون أن يُنتبه لنظراته المتحرشة الخسيسة.

تنحنحت حتى يتوقف نبيل الثرثار هو وأسعد مخيون عن رسم
خيالاتهما العصامية أمامنا وسألتهما:

- برضو محدش جاوبني، إحنا متجمعين بربطة المعلم كده
عشان إيه؟

اندفع نبيل يقول بعدائته التي لا تخفى على أحد:

- عشان القطة مخالبتها طولت زيادة عن اللازم.

- بمعنى؟

أجابني شندويلي بصوت مبحوح يتأجج غضباً:

- بمعنى إن آمنة ما بقالهاش يومين ماسكة شغل سلطان، وبعثت

هادي يقتل بنتي، وبعثت سالم يقتل هادي وأنا وانت وكل
الرجالة اللي قاعدين عارفين إن هي اللي وراقت سلطان عشان
اللي عمله في بنتها.

أجبت بهدوء محايد يكرهه:

- إنت وآمنة سمن على عسل، هتؤمر بقتل بنتك ليه؟ الموضوع
ببساطة إن هادي حب ينتقم منك عشان قتلها إن هايدي
خرجت من الحفلة معاه.

- يعني أبقى عارف مين اللي قتل بنتها الوحيدة وأسكت؟
سألني أسعد مخيون، أغبى وأبلد مجرم مرّ عليّ منذ أن احترفت
الإجرام:

- يعني في رأيك يا دكتور عاطف لو عرفنا إنك في خطر، مش
هتبقى مستني مننا نحذرك؟
- دي مش أصول كارنا يا أسعد.

خرجت الكلمات من نبيل كالقذيفة، متفجرة ومفاجئة، وشكّلت
خطراً على حياة الجميع:

- أومال إيه الأصول؟ نخط شنباتنا تحت رحمة واحدة محتكرة
سوق البودرة كله؟ أنا آخذ أوامري من ست يا عطوف؟
- احترم فرق السن يا بلبل، أنا اسمي الدكتور عاطف.

احمرّت وجتنا نبيل البضتان، وضيق عينيه الزيتونيتين، وتكورت
قبضته فوق ركبتيه، وقال:

- لما تبقى خريج طب أبقى أقولك دكتور، إنما خريجين آداب
علم نفس اللي زيك يتقالهم بالكثير يا أستاذ.

قابلت عجرفة عديم التربية المتصابي هذا بابتسامة واسعة أربكته،
قلت:

- طب بما إني لا دكتور ولا أنا من الرؤوس الخمسة، فمفيش
داعي لوجودي بينكم وإنتو بتآمروا على آمنة.
قال الحاج عبد الغني برصانة تليق بسنه وبخبرته وهو يتلع
لمكسرات:

- واللي يخليك منهم؟
سلطت أعين الرؤوس الأربعة عليّ في انتظار ردي.
سألت الحاج عبد الغني الذي عشت ما يزيد على أربعة عقود من
الزمن أتلقى منه تهديدات بالقتل، وإذ به يقرر الآن أن يرفع مكانتي
في سوق الإجرام:
- والمقابل؟

- تصوصلنا بأي معلومة نحتاجها عن آمنة.
أخرجت منديلي الحريري من جيب سترتي، وخلعت نظارتي
الطبية. نفثت بخار فمي على العدستين، وفركتهما بالمنديل على
مهل، بينما يترقب الأربعة إجابتي. أعدت المنديل إلى جيبي، ثم
ارتديت نظارتي، وقلت:

- أنا عشت ثلاثة وستين سنة في سجن الدنيا، شوية أبقى مسجون،
وشوية أبقى سجان، لكن عمري ما كنت عصفورة يا عبد الغني.
هزّ أسعد قدميه بسرعة تفضح توتره وهو يسألني:
- يعني مش هتخط إيديك في إيدينا يا دكتور؟
- لا في إيديكم، ولا في إيدنا آمنة.

- يعني مفيش منك قلق؟

- طول ما إنتو ملتزمين بحدود الاحترام بينا مفيش قلق، بس اللي

هيطمع في اللي يخصني مش هحاسبه محاسبة العين بالعين،

هتبقى العين براسه ورأس عيلته كلها.

لم يعلق الحاج عبد الغني على تلميحي الصريح، ولكني شعرت

بنظراته النارية التي يرمقني بها من وراء نظارته الشمسية المعتمة.

مال شندويلي إليّ وقال:

- طيب عشان يبقى ختامها مسك، إحنا بالصلاة على النبي هنبقى

على كلمة راجل واحد. إنت يا عاطف تلتزم بحيادك، وإحنا

نلتزم بعفونا عنك.

- عفوكم عني؟

قال الحاج عبد الغني وهو يضع طبق المكسرات جانباً:

- أنا ليّ عندك تار من خمسة وأربعين سنة، والراجل ده روفر له

عندك تار من يبجي اتناشر ساعة.

قالها مشيراً إلى شندويلي، فسألته بهدوء:

- طب تار عيلة راغب والكار كله عارفه، إنت بقى إيه تارك معايا

يا شندويلي؟

- تار إنك نضفت ورا اللي قتلوا بنتي يا عاطف، ولأ فاكرا إني ما

عرفتش؟

تباً!

- ما حصلش.

- أومال لا مؤاخذه ابن المدام بين الحياة والموت ليه؟ مش

عشان كان بيحقق في قضية قتل الموظفين اللي شغالين في
شقة باسمك وسمعوا بنتي وهي بتنازع؟

- ما بحبش أكرر نفسي كثير يا شندويلي، هادي هو المسؤول
عن كل اللي حصل إمبرح، من أول قتل هند لحد دخول ابن
مراتي في المستشفى دلوقتي، وأدينا خيلنا سالم يقتله واتعاقب
على عكه.

- موت وحيدتي بالنسبة لك مجرد عك؟ وماله يا عاطف، إن
شاء الله لما المحروس ابن الغالية يقوم بالسلامة نجيب ورد
وشوكولاتة ونزوره عشان نسأله عرف عنك إيه خلاك تطسه
رصاصة.

تبّا، تبّا، تبّا، لقد تذكرت الآن كل ما فعلته بالأمس!
لم تنكمش ابتسامتي الواسعة غير المكترثة حتى بعد كل المصائب
التي تذكرتها، ثم قلت:

- مواعيد الزيارة من الساعة اتنين لأربعة، أول ما يطلع من
العمليات أديك آلو تيجي بوردك وشوكولاتك وتسأله عن
اللي يريح قلبك. البقاء لله في هند يا شندويلي.

فتحت الباب، ونزلت من الليموزين وأنا أدبر لأمرين في طريقي
لسيارتي: نقل الكاميرا وكارت الميموري والطبنجة إلى مكان آمن،
وألّا تتاح لابن يحيى فرصة لقول إنني من أمر زعفران بقتله.

وليد

نصحنى أبى رحمه الله، بحكم أنه كان عالم أحياء، أن ألتزم
 بمواعيد نومي واستيقاظي حتى لا يقرصني عنكبوت.
 العناكب من الأشياء العديدة التي تخيفني منذ طفولتي، فقرر أبى أن
 يستغل دراسته لسلوكياتها فيعلمني قيمة الالتزام، ويجد حلاً لفوبيتي منها.
 علمني أن العنكبوت يدرس روتين صاحب البيت الذي ينسج
 شباكه في زواياه، يحفظ تحركاته، ويتجنب الظهور في ساعات نشاطه،
 وبمجرد أن يخمل الإنسان، ينشط العنكبوت، ويصطاد فرائسه.
 أظن أن استراتيجية العنكبوت هي ما مكنت النحات السيكوباتي
 هادي الحكيم من تزيين غرفة نومه الراقية برف تتراص فوقه رؤوس
 خمس عشرة امرأة حصد أرواحهن من دون أن يُنتبه له.
 تركت الطب الشرعي يفحص تماثيل الضحايا ويلتقط صورهن،
 ورُحِتْ أُنْفَقَد الخزانات الثلاث الفسيحة التي تفوح منها رائحة عطور
 مختلطة، مصدرها ملابس السفاح الأنيق المنسقة تنسيقاً دقيقاً وفقاً
 لدرجات ألوان كل قطعة ثياب.

تفقدت الأدرج، يملك ما يزيد على مائة زوج من الأحذية،
وعشرات الساعات الباهظة، وخزانة من خشب الأبنوس الأسود
مخصصة لحفظ زجاجات العطور، بعضها مطلي بالذهب ومرصع
بماسات براقّة، وفي حمّامه مستحضرات عناية بالشعر وبالبشرة،
أشك أن براد بيت نفسه يملك ربعها!

هذه التفاصيل جعلتني أدرك أنني أقف أمام نموذج محاكاة
لشخصية باتريك بيتمان من فيلم «American Psycho». كان هذا
انطباعي الأول عن هادي الحكيم في أثناء تحقيقي مع سالم بشأن
تسمّم زوجته.

ما أوحى إليّ بهذا هو تشابه ملامحه الأرستقراطية مع ملامح
كريستيان بيل، وإن قلت إن وجهه من خلق الله ولا سيطرة لهادي
عليه، فلا يمكنني قول الأمر نفسه فيما يخص تسريحة شعره الكثيف
المصفف للخلف، وذوقه في الملابس المترفة، وتصنّعه ابتسامة
كابتسامته، واختلاقه لكاريزما ككاريزمته.

لو سلمت بفرضية أن هادي اتخذ من باتريك بيتمان قدوة، سأصل
إلى استنتاج سهل عليّ تحديد العامل المشترك بين ضحاياه اللاتي
فقدن رؤوسهن، من كن أوائل ضحايا السيكوباتي الأمريكي في الفيلم؟
برافو، بائعات الهوى.

في الأمس، حين اتصلت بصلاح قبل أن يكلمني قطر، طلبت منه
أن يشاركني مستجدات قضية موظفي الوردية المسائية لכול سنتر
«إلف» على افتراض أن قاتلهم هو قاتل هند شندويلي نفسه. أخبرني
بأن أتواصل مع نوح، لأنه منشغل بقضية أهم من الهراء الذي نشغل

أنفسنا به، قضية اختفاء بائعات هوى في محيط منطقة قصر النيل.
أليس من الممكن أن يكون هادي هو قاتلهن؟

تركت الخزانات، وعدت للوقوف أمام رف الرؤوس المقطوعة،
ورُحِتْ أصوّر ملامحها ليقارنها زملائي بصور أي فتاة أبلغ أهلها،
إن كان لها أهل، عن اختفائها، وكان صلاح أول من أرسلت إليه
هذه الصور.

شرعت في الخروج من غرفة النوم التي تحتل نصف مساحة
الطابق الثاني في اللحظة نفسها التي تدخلها الدكتورة سيليا، وبسبب
قصر قامتها لم يلتقطها راداري وأنا أسير منشغلاً في التفكير بالقضية،
لم أنتبه لوقوفها أمامي وهي تحمل كبرتين الأحراز إلا حين تأوّهت.
لأنني دعست قدمها الضئيلة بمقدمة حذائي.

لم تعطيني فرصة للاعتذار إليها، بادرت بالصياح:
- مش تفتح يا وليد!

كانت ستستأنف الدخول، كأنه لا يحق لي التعليق على أسلوبها
السخيف، فوقفت أمامها أسد المدخل وأقول بنبرة أمرة جعلت
تعبيرات التفاجؤ ترسم على ملامحها الفتوجينيك:
- بطلي تنادينني وليد حاف، وبطلي تنتططي علي!

غادرت الغرفة، ونزلت الدرج الخشبي الذي تفرشه سجادة حمراء
داكنة تشبه سجاد الفنادق الفخمة وأنا أسب الساعة التي أجبرتني
على العمل مع هذه السنجابة السليطة التي لا تتوقف عن إزعاجي!

* * *

وقفت في الصالة المذهب أثاثها، والمتدلية من سقفها ثريا لامعة

مهيبة، والمنتشرة في أركانها مزهريات كريستال وزهور ملونة،
والمغطاة جدرانها بصور داخل إطارات ذهبية وفضية للسيكوباتي
مع أهم مشاهير وفناني مصر والوطن العربي.

التقطت الصور كلها بهاتفني، ثم ركزت على صورة يظهر فيها مع
شابة ثلاثينية صهباء ترتدي فستانًا لامعًا، ورجل ستيني شعره مجعد
يرتدي نظارة طبية مستديرة وبدلة تشبه بدل رجال المافيا الإيطالية
في أفلام سكورسيزي.

أرسلت الصورة عبر الواتساب إلى نوح الذي كلمته أكثر من مرة
على مدى اليوم، لأطلععه على آخر المستجدات، وكان هاتفه مغلقًا،
فأرقت بالصورة رسالة صوتية تقول:

نوح باشا، إيه أخبار السيطرة؟ كلمني ضروري
عشان لقيت حاجة كده.

أعدت الهاتف إلى جيبي، ثم استأنفت طريقي منتبهًا لخطواتي
حتى لا توبخني الدكتورة سيليا مرة أخرى، يكفي انخراطها في توجيه
أفراد الطب الشرعي الذين انقسموا إلى فريقين؛ الأول يجمع ويحرز
الأدلة من داخل البيت، والثاني في الحديقة يحفر منطقة أنبأني حدسي
أننا سنجد تحتها جثة، لأن تربتها مقلبة تقليبًا لافتًا، وفوقها باقة من
الزهور الذابلة كالتى يتركها المرء على قبر ميت يحبه.

سخر عمرو ورفاقه من اقتراحي، ولكن ولدهشتي وافقتني
الدكتورة سيليا، ثم لدغت زملائي السخفاء بواحدة من نظراتها
السامة وهي تقول:

تفقدت الحفرة التي نبش العساكر مصارينها، وبمجرد أن انتبهت إلى أن هناك طبقة من الأسمنت مصبوبة تحت التراب يفتتها فنيو الطب الشرعي بدقة وحذر مستخدمين مطارق هوائية مخصوصة، تأكدت أنني محق، سنجد جثة أسفل هذا الأسمنت لا محالة.

والله إنك لعبقري، ومواهبك غير مقدرة يا وليد يا عطية!
قاطع جنون عظمتي تداخل أصوات زملائي وهم يصفون لي معابنتهم لقبو البيت، وكيف أنه عازل للضوء وللصوت، وأرضيته سيراميكية مغلفة بالبلاستيك، وجدرانه من البورسلين الأبيض، وبسقفه مرايا ضخمة.

أضاف عمرو وهو يحك حاجبيه الكثين المتصلين ببعضهما:
- على إيدك اليمين رخامة، وعلى إيدك الشمال دولا ب حديد، أول ما تفتحه هتكتشف إنك مش في بدروم، إنت في مسلخ يا معلم.

راح يصف لي أدوات التقطيع والمناشير المتعددة والكيماويات التي كانت في الدولا ب وشكائر الأسمنت، ثم اختتم كلامه قائلاً:
- وخذ الثقيلة بقي يا ويلي، لقينا شنطة سفر فيها كل الموبايلات واللابتوبات بتاعت موظفين الكول سنتر اللي اتقتلوا إمبراح.
انكمشت كتفائي من فرط نفوري من إصراره على مناداتي بـ«ويلي»، ثم سأله من دون أن أرفع عيني عن الحفارين الذين رفعوا آخر قطعة أسمنت كسروها ثم قابلهم المزيد من الطين أسفلها:
- أجهزة الموظفين بحق وحقيقي ولأ ده تخمين منك؟
طار الدخان في اتجاهي، فأخذت خطوة مبتعداً عن نيكوتينه

متصنعًا السعال، حتى يخمد السيجارة أو يتوقف عن نفث دخانه نحوي، لكنه تجاهل رد فعلي، وأجاب عن سؤالي محتدًا:
- يا عم انزل البدروم، واثأكد بنفسك.

تأملت حركة النيل المتأنية وأنا أفكر في سبب يعفيني من النزول إلى القبو غير الاعتراف لعمر و بأن لديّ فوبيا من الأماكن الضيقة والمغلقة والمظلمة، لأن زوجة أبي اعتادت حبسي في خزانة مؤن المطبخ وهي تهددني بأن عنكبوتًا عملاقًا يمزق بأنياه الأطفال الأشقياء أمثالي يسكن الخزانة.

قبل أن أولف كذبة مناسبة، اخترقت الدكتورة سيليا تجمعنا حول الحفرة وهي تنظر إلى السجائر بين أصابع عمرو وزملائه، ثم قالت بتسلط وغلظة يستحقونهما:

- اللوا شهدي عنده علم بإنكم بتدخنوا في موقع الجريمة يا باشوات! تأففوا من تهديدها غير المباشر، ثم ذهب كل مدخن غبي منهم نحو طرف الحديقة يسحب أنفاس سيجارته بعمق، حتى تنتهي بسرعة ثم يلقيها في النيل، بينما تجاورني الدكتورة وأنا أتابع الحفرة. لمحت شيئًا أحمر مديبًا في الحفرة، فدققت النظر لأتبين معالمه، وإذا بالحفارين يرفعون الطين بحذر، وأكتشف أنني أنظر إلى كعب حذاء نسائي أحمر أفلت من قدم هزيلة أصابعها منتفخة وبلا أظفار وجلدها رمادي.

التقط المصور الجنائي صورًا للجثة الوحيدة التي وجدناها مدفونة في بيت هادي الحكيم، وبدأت الدكتورة سيليا تعاین المنطقة، وتعطي تعليماتها للجميع، بينما يقبل عمرو وأصدقائه علينا بفضول. أما

أنا، فقد تخشبت في مكاني، وخفت شريط صوت المشهد الدائر من حولي، ولم أعد أسمع سوى طنين في أذني حين ظهرت الجثة الملطخة بالطين، وفاحت رائحة تعفنها.

كانت ترتدي بنطالاً جلدياً تأكلت بعض أجزائه، وبلوزة حمراء تكشف أنسجة عضلية متحللة كانت فيما مضى صدرها، وينسدل فوق وجهها شعر أسود يلمع لمعة تؤكد أنه بلاستيكي رخيص، وتبرز من أصابعها أظفار صناعية حادة الأطراف.

هذا كل ما استطعت تبينه منها، فباقي معالمها كانت شبه مطموسة، بسبب تحلل جثتها ولون جلدها الرمادي المبقع بالأخضر والأزرق، كأنها زومبي في فيلم «World War Z».

قابلت العديد من الجثث بسبب طبيعة عملي، لكنني لم أر جثة متحللة في حياتي غير جثة أُمي حين قررت أن تستغل سفري أنا وأبي مع عمي وأولاده إلى مرسى مطروح لتبتلع حبة غلة تنهي بها صراعها مع الاكتئاب. لم يكن مشهداً لطيفاً بالنسبة إلى طفل في السادسة من عمره عائداً بحماسة من المصيف مع أبيه!

انتفخ قولوني إلى درجة أنني شعرت بأنه سينفذ من بطني، فضغطت على شرتي بكفي. تقلبت سوائل معدتي، وبدأت تصعد إلى حلقي، بينما يجتاح اللعاب فمي، ففهمت أن هذه إشارة من جسدي لحماية أسناني من الأحماض التي سأقتياها حالاً.

هرولت إلى شط النيل، ثم أفرغت ما في أمعائي على أمل أن أتقياً ذكرى اكتشاف جثة أُمي المتحللة، ولكن بعض الأشياء تظل ملتصقة بكيانك مهما حاولت استئصالها.

أخرجتُ منديلاً من جيبي مسحت به فمي، وبقيت في مكاني
للحظات، ألتقط أنفاسي وأنا أتلقت حولي لأتأكد أنني لم ألفت
انتباههم لوضعي المخزي، ولكنني سمعت قهقهة عمرو ورفاقه
الميديوكر وهم يثرثرون فيما بينهم ويراقبونني.

أوليتهم ظهري، وراقبت ترقق صفحة النيل وأنا ألعنهم، حتى
تفاجأت بأصابع تنقر على ظهري. التفت فوجدتها أصابع الدكتورة
سيليا من دون غطاء رأسها الطبي ولا كماتها، تناولني زجاجة مياه
باردة بابتسامة لطيفة كشفت لي عن غمازتين جميلتين.

وقفت إلى جوارِي، تنظر مثلي نحو النيل والنخيل الذي يسور
الشط المقابل لنا، بينما أتجرع نصف الزجاجة.

شكرتها وأنا أعيدها إليها، فرفعت يدها المزينة بخواتم رقيقة
صغيرة في إشارة إلى الرفض، وقالت:

- خليها معاك يا وليد بيه، ولأ أقولك يا وليد باشا، ولأ يا حضرة
الظابط؟

لم تقل هذه الجملة بالنبرة السليطة التي ظننت أنها لا تجيد غيرها،
قالتها بخفة ظل دفعتنني إلى الضحك.

قبلت دعوتها، وأنهيت الزجاجة كلها، ثم أخرجت كيس «سكوتش
منت»، ألقيت في فمي حبة منه لأتخلص من طعم القيء المقرف،
وعزمت على سيليا بباقي الكيس ففاجأني بأن قالت بحماسة بريئة
لا تليق بأجواء نبش قبر جثة مجهولة الهوية:

- سكوتش منت! تيتة كانت بتجيبلي منه وأنا صغيرة، ما كنتش
أعرف إنه لسه في السوق.

التقطت حبة ووضعتها في فمها، ثم أغلقت عينيها، كأن المذاق
أصابها بحالة من النوستالجيا الطيبة.

- معايا كرتونة منه في العربية، خديها.

ابتسمت الابتسامة اللطيفة نفسها التي ناولتني بها زجاجة المياه،
ثم سألتني:

- ما فكرتش تكتب أفلام سسبنس؟

ضحكت من سؤالها المفاجئ، أتعرف شيئاً حول اهتمامي بكتابة
السيناريو، أم أن ما قالته كان مجرد تخمين عشوائي قررت أن تفتتح
به حديثاً يشتتني عن حالتي المثيرة للشفقة؟

كسرت حبة السكوتش منت القاسية بين ضرسي فهيمن مذاق
النعناع البارد على فمي، ثم سألتها مماًزحاً من دون أن أشاركها
الفوضى التي تسكن رأسي:

- بتقوليلي شُفلك شغلانة تانية بالأدب يعني؟

سمعتها تضحك للمرة الأولى منذ أن جمعنا القتلى والقتلة،
فاكتشفت أن لها ضحكة واسعة تجبرها على غلق عينيها اللتين اكتسبتا
لوناً عسلياً تحت ضي الشمس.

- قصدي إن خيالك حلو. كل الحاجات اللي اقترحتها في
التحقيقات طلعت صح، حتى طريقة طرحك لنظرياتك طريقة
حد فاهم سرد وإيقاع.

- إنتي دارسة سيناريو؟

- لا، بس إخواتي الخمسة شغالين في السينما، وخالي منتج منفذ
وبقاله شوية مهتم بالسسبنس وبيدور على ورق حلو. أظبطك معاه؟

وصلت إلينا أصوات عمرو وزملائه مرة أخرى يضحكون كخفة
من المراهقين المعاتيه، فقلت لسيليا كأنني أفكر مع نفسي بصوت
عالٍ:

- وشغل الداخلية؟

- على أساس إنك ناوي تكمل معاهم؟

- باين عليّ إني مش مبسوط وسطهم؟

- باين عليك إنك مش ميديوكر زيهم.

لم أسمعها تستخدم وصف «ميديوكر» من قبل، ولا أدري لماذا
شعرت بفقاعة من الدوبامين تطرق في عقلي بخفة، فتشرب بداخلي
شعورًا عجيبًا بالبهجة لمجرد أنها تعمدت استخدام لفظي المفضل.
ناداها أحد أفراد فريقها، فالتفتت لتشير إليه بأنها قادمة، ثم قالت لي:
- على فكرة، أنا بتعمد أقولك وليد حاف عشان حاسة إننا ممكن
نتعامل من غير رسميات، مش عشان بتنطط عليك زي ما قلت.
تدبرت ما قالته، واسترجعت تفاصيل تعاملها معي، أكانت حقًا
تحدثني بتكبر وتأمري وتنهاني وتوبخني كما صور عقلي لي، أم أن
هذا كان انطباعي عنها لأنني أنفر من عملي ومن كل المشاركين فيه؟
لم تنتظر مني تعليقًا، ابتعدت عني خطوتين، وإذ بي أفاجا بأنني
التفت بجسدي كله معها لأتأملها وهي تغطي شعرها المتموج، وتهم
برفع الكمامة لتغطي شفتيها الورديتين وأنفها المليح، وأكتشف أنني
أتأمل جمال أنثى فريدة من نوعها!

ناديتها بلهفة غير مفهومة، فاستدارت سريعًا كأنها كانت تنتظر
ندائي.

قلت والعرق ينزل في مجرى عمودي الفقري:
- فيلم براد بيت الجديد نزل السينما.

?Once Upon A Time In Hollywood -

أومات إليها مؤكداً صحة تخمينها، ثم سألتها:
- تحبي تشوفيه معايا بكرة؟

استقبلت عرضي بابتسامة ودود وهي تضيق عينيها الباهرتين
لتحميهما من ضوء الشمس فتكرمش أنفها كرمشة لطيفة، ثم قالت برقة:
- أحب.

استعجلها زميلها، فسارت نحو الجثة تعطي تعليماتها بحزم يتنافر
كلياً مع اللطف الذي حدثتني به، وتركتني أبتسم لإرادياً وأنا أسأل
نفسي: «سيليا يا وليد؟!».

لم يدم انشغالي بهذا السؤال الذي قد يغير سينماتوغراف حياتي
بالكامل، فاقتراب المقدم عمرو نحوي جعل ابتسامتي تنكمش حد
الاختفاء، خصوصاً حين أراني صورة على هاتفه لورقة مرسوم عليها
يدويًا بروفيل محترف لرجلين، الأول هادي الحكيم والثاني أجهله.
بلعت ريقى المُنكّه بالنعناع، ثم سألته وأنا أدس يدي في جيبى
باحثاً عن منديل أمسح به العرق عن قفاي:
- ده إيه؟

- اللوارشوان بعتلنا اسكيتش رسمه واحد من ظباط قصر النيل
اللي اتعاملوا مع مجرمين الكول ستر. ده هادي وخلاص
وقعته، الثاني بقى بيقلولوا انتحل شخصية وكيل نيابة اسمه
رياض السعيد وركب صاحبك القتم قطر ستة إلا تلت.

«صاحبي القتم» كان الاسم الحركي لنوح بين عمرو البشيشي وأمثاله من الضباط متوسطي الكفاءة. ليس لأن نوح ثقل الظل، بل لأنه بالنسبة إليهم مثل ابن خالتك الذي تعايرك أمك بتفوقه وتميزه طيلة الوقت، حتى تغار منه، وتكرهه من دون أن يكون قد آذاك فعليًا.

- صحيح، أقولك الفضيحة اللي عرفتها عنه؟

لم يمهلني فرصة للرد، أسرع يقول:

- سالم طلع جوز بنت خالته.

- بنت خالة مين؟

- بنت خالة نوح صاحبك.

لم أصدق الهراء الذي يتفوه به، أخرجت هاتفي من جيبي لأتصل

بنوح وأساله بنفسي، ولكن عمرو قال:

- مش هيرد، اللوا شهدي لسه قايلي إنه اتضرب بالنار ونقلوه

مستشفى القصر العيني.

شعرت بقولوني يتنفخ مجددًا من القلق على زميلي، فمددت

يدي في جيبي أخرج مفاتيح سيارتي منسحبًا من الحديث مع عمرو،

فسألني بصوت عالٍ وأنا أبتعد عنه:

- على فين يا ويلي؟

رفعت سبابتي في وجهه، وقلت له بنبرة باردة سيكوباتية متقمصًا

أداء هادي في مقابلاتي المعدودة معه:

- لو قتلتي ويلي تاني يا عمرو هضم راسك لرف التماثيل اللي

في أوضة النوم دي.

قطر

أتعرف أن أبي علمني قيمة النزاهة، وأمي علمتني قيمة الثقافة،
وطنط سعاد علمتني قيمة الحب؟

في سنوات مراهقتي، اعتبرت أمي الحديث عن العلاقات العاطفية
صفافقة، ولكن طنط سعاد اعتبرت الحب تعريف الإنسانية، فلا يكون
المرء إنساناً بحق إلا إذا كان على استعداد للتضحية بالغالي والنفيس
لأحبته.

قيمتها الشاعرية هذه دفعتني إلى اللجوء إليها حين كنت أستعد
لمقابلة آسيا للمرة الأولى في حفل عيد ميلاد يحيى وياسر، ولولا
نصائحها عن الطريقة المثلى لكسب قلبها، ما كانت آسيا زوجتي
الآن.

أتعرف أن نوح لا يعلم أن أمه مستشارتي العاطفية؟
بينما كان يخفي عني أنه قتل «أبو قرن»، كنت أخفي عنه صداقتي
المستمرة بأمه، حتى بعدما قاطعها لأنها تزوجت عاطف بعد استشهاد
أونكل يحيى.



ولأنني أعتبر طنط سعاد صديقتي وأمي الثانية، لُمت في سري
تيتة إحسان على ما فعلته حين رأتها في غرفة الانتظار.

* * *

لم يبقَ في غرفة الانتظار إلا أنا وطنط سعاد، أربت على كتفها
لأهون عليها الوضع، حتى سمعنا نشيجًا وخطوات مهرولة تقترب منا.
التفت إلى الباب لأجد طارق تسبقه نادية بعنق منتفخ ودموع
محتقنة في عينيها المحمرتين، ووراءها تيتة إحسان متأبطة ذراع
آسيا، وهي تسير بثقل لم أرها تسير به إلا في جنازة أونكل يحيى.
جلست تيتة على أقرب مقعد وهي تنشج نشيجًا مسموعًا، وبمجرد
أن لمحت نادية أمها، هرولت نحوها لتلوذ بحضنها. تعانقتا وراحتا
ترددان اسم نوح بحرقة، وأنا وطارق نربت على كتفيهما مكررين
عبارات الطمأنة، ولكن تيتة إحسان قررت مقاطعتنا بتوجيه حديثها
إلى طنط سعاد بصوت أرهقه البكاء، ولكن نبرته الحادة لا تخلو من
السخط والمرارة:

- لابسة إسودليه يا سعاد، بتفوّلي على حفيدي عشان يلحق أبوه؟
رأيت ذقن طنط سعاد يرتعش وعينيها تغمرهما الدموع من غلاظة
الاتهام الموجّه إليها، ومع ذلك لم تدافع عن نفسها، واستسلمت في
صمت، ولا أدري إن كان السبب هو شعورها بالذنب لتدهور علاقتها
بنوح، أم أنها اعتادت قسوة تيتة إحسان!

وددت أن ألطف الأجواء وأقول شيئًا يجبر بخاطر طنط سعاد،
لكن نادية التي لم تذرف أمامنا دموعًا واحدة حتى الآن، هبت للدفاع
عن أمها قائلة:

- إيه الكلام ده يا تيتة، ماما ما قلعتش الأسود من ساعة بابا.
هزت تيتة رأسها هازئة بتبرير نادية، ثم قالت:
- ونعم الإخلاص!

* * *

بعد ثلاث ساعات من محاولة طمأنة نادية، وجبر خاطر طنط
سعاد، وتصبير تيتة إحسان، لم أعد أحتمل البقاء في غرفة الانتظار
أكثر من هذا، فتركتهن في عهدة آسيا، واستغللت نزول طارق لشراء
الغداء ورافقته إلى الجراج.

أوصلته حتى سيارته، ثم استندت إلى عمود أضيق سيجارتي
بشفتي، بينما أبحث عن قداحتي في جيوبي.

ضرب عيني نور كشافي سيارة تدخل الجراج وتصطف أمامي،
عرفت قائدتها من أول لمحة.

أعرف ما العنصر المشترك بين الإله المصري القديم حورس،
والإله النوردي أودين، وأبي أنور المحمدي؟
ثلاثتهم فقدوا عيناً لهدف نبيل.

هذا ما قالته لي أمي والطبيب يركب لأبي عيناً صناعية تعويضاً عن
التي فقئت: «فقد حورس عينه اليسرى ليسترد عرش أبيه، وقدم أودين
عينه اليمنى قرباناً لحارسة بثر ميغوردر لينهل منها الحكمة اللانهائية،
وفقد أبوك عينه اليسرى ليحمينا من لص اقتحم شقتنا ليلاً، فأصبحنا
آمنين»، وأصبح هو صارماً صرامة لا مثيل لها بعد هذه الواقعة!
الجملة الأخيرة إضافة من عندي بالطبع، ما كانت أمي لتتقد
أبي أبداً!

هأنذا أراه ينزل من سيارته الأوبل السوداء، يغلق بابها ثم يتجه إلى باب أمي ويفتحه لها كما يليق بجنتلمان أصيل. لمس كعب حذاءها العالي الأرض، ونزلت من السيارة وهي تعدل خاصرة تنورتها البيج الطويلة التي تتطابق مع بلوزتها الستان الرقيقة، وتجذب مقدمة البونية الأبيض الذي تستر به شعرها.

وقفت تتلفت حولها، وتتفقد محيطها، كما هي عاداتها، حتى انتبهت لوقوفها قبالتها. وكزت أبي المنشغل بوصد أبواب السيارة، ثم همست إليه بشيء ما، فالتفت نحوي، ورماني بسهم نظراته الغاضبة.

ارتعبت من غضب أبي الذي أقمر شعره الغزير، وصبغ الدهر شارب به بالشيب، فبصقت السيجارة من فمي كمراهق جبان، وركلتها بخفة وراء العمود في تخيل ساذج مني بأنه لا يعرف أنني أدخن منذ عشر سنوات.

اقتربت منهما بخطوات مترددة، فهذا لقاءنا الأول منذ أن طرداني من البيت.

وقف أبي ويداه تستقيمان إلى جانبه كما يقف التلميذ الملتزم في طابور الصباح، بينما تطوي أمي ذراعيها نحو صدرها، وتمسحني بعينيها البنيتين الضيقتين من أعلى إلى أسفل وكجهاز أشعة سينية سيكشف لها أحلك أسراري.

لم أعرف ماذا أقول كأنني غريب عن أهلي، فبادرت أمي بقول:

- ابني لسه ما خرجش من العمليات؟

- أيوه. الجماعة في الدور الـ...

قاطعني أبي بعدائية لا أستحقها منه:

- وإحنا مستنيينك تعرفنا يا بيه؟ نادية أول ما وصلها الخبر كلمت أبوها.

شدد على كلمة «أبوها»، كما شددت أمي على كلمة «ابني»، ليوحيا إليّ بتوبيخ غير مباشر، أن ثمة من هم أجدر مني بأبوتهما المقدسة.

شقّ أبي طريقه نحو مدخل المستشفى، وبقيت أمي تحديق إلى قسمات وجهي وهي تتحسس عنقها الطويل بأناملها الوردية، حتى علقت بصوتها الرخيم الذي اشتقت إليه على الرغم من صرامته:

- خلي مراتك تنضفلك القرف اللي على قورتك.

استدارت تتبع أبي ليردد صدى كعب حذاءها وأنا أجذب طرف التبعة الرياضية التي أعتمرها لأثبتها فوق رأسي، كأن هذا سيمحو أنها ليست شخصية طاهر بقلم ماركر في محاولة طفولية منه لرسم نجمة على جبينني، لأنني «شطور» كما وصفني.

بمجرد أن دخلا المستشفى، زفرت نفسًا كتمته من هيبة وقوفي أمامهما، واستندت إلى العمود مجددًا لأخذ جرعة النيكوتين التي حرمانني منها.

* * *

ما إن أشعلت سيجارتي حتى دخلت سيارة أودي بيضاء قديمة تصطف بالقرب مني، نزل منها زميلنا في مباحث المعادي، المقدم وليد عطية.

وليد من ألطف الشخصيات التي يمكن أن تتعامل معها، شاب

شديد التهذيب وخدم إلى درجة تسهل على أي مستغل أن يسلبه ما يشاء بسيف الخجل، إلا أنه كأي إنسان خلقه الله، له عيبان؛ الأول، حساسيته المفرطة التي تحول أتفه طرفة إلى إهانة شخصية. والثاني، أنه شكاء بكاء كشقيقة طه حسين الصغيرة، خصوصًا بعد أن أنهى منذ أربعة أشهر خطبة دامت شهرين، فزادت جرعة النكد والتشاؤم والسوداوية التي يسممنا بها كلما التقينا، وصار يتوق إلى التعاسة، ويحترف إجهاض البهجة وإبادة الأمل في مستقبل مشرق. لهذا، أعطيته أنا ونوح اسمًا حركيًا لن نكشف له عنه، «مبيد عطية». أوصد سيارته من دون أن ينتبه لي، فناديته.

أقبل عليّ بقلق شديد، وسألني قبل أن يلقي السلام:

- اللي سمعته ده بحق وحقيقي؟ نوح اتصاب؟

- بحق وحقيقي.

شاركته ملخص ما حدث وأنا أنفث دخاني، فقام كعادته باصطناع السعال الشديد، فأخمدت سيجارتي على الفور.

قص عليّ تفاصيل مجزرة كافيه المعادي التي تناقلتها الأنباء ومواقع التواصل الاجتماعي، ولكن بحكم انفصالي عن العالم خارج جدران المستشفى لم أعرف بالأمر إلا الآن.

عرض عليّ صورًا وجدها في بيت رجل حدقت إلى ملامحه لأجدها تتطابق مع الاسكيتش الذي رسمه فادي لعميد النجدة المزيف.

تنفست الصعداء حين أدركت أنهم قبضوا على الوغد الذي خدع نوح وزيف صداقته بأونكل يحيى، ثم بدأ وليد يسرد لي تفاصيل ما

وجدوه في بيته بطريقة سينمائية مشوقة يستحيل ألا تجبرك على الانغماس فيما يحكيه.

أدخلني بكلماته في المشاهد الخارجية والداخلية لبيت السفاح هادي الحكيم، كأني شهدت معهم على ساديته وبشاعة مصير ضحاياه، وانبهرت بترف بيته، وعبقريته إضاءته، وأناقة أثاثه.

شاركني ندالة عمرو البشبيشي، وتنمر زملائه، ثم تفاخر وليد بأن كل تخميناته كانت في محلها، وراح يمجد مجهودات سيليا طرابلسي، والذي دفعه ذكر اسمها إلى الابتسام ابتسامة عفيفة.

كنت أعلم أن شرارة ما ستشتعل بينهما عاجلاً أم آجلاً، فولد يشكو منها مر الشكوى كلما اجتمعنا. فسر نوح الأمر على أن الوحدة تمكنت من وليد حتى أصبح يشخصن تصرف كل زميل له، ويتخذه حجة لتعكير مزاجه، ولكني رأيتُ أن التفسير الوحيد لاهتمام وليد بتفاصيل سيليا والإفراط في تحليل نبرتها ونظراتها وكلماتها إلى هذا الحد هو أنه معجب بها، حتى وإن كان لا يدرك الأمر بعد.

في ظرف آخر، كنت لأسأله عن التفاصيل التي خلقت ابتسامة حلاوة البدايات الرومانسية هذه، ولكني لا أملك الطاقة لهذا الآن، تركته يستأنف وصف موقع الجريمة حتى استوقفني خبر أنهم وجدوا حواسيب وهواتف ضحايا الوردية المسائية من الكول سنتر، فسألته:

- لقيتوا إيه على لابتوباتهم؟

- كلها متدغدغة، فهنشوف لو الطب الشرعي هيقدر يلاقي أي

هارد سليم.

مططت شفتي محبطًا من قلة الأدلة، فسألني:

- نوح خرج من العمليات؟

- لسه شوية، أنا عارف إنك وراك هم ما يتلم فما تعطلش نفسك.

هكلمك لما يسمحوله بالزيارة.

- ربنا يطمنا عليه. بس قبل ما أمشي، أنا سمعت هجص غريب

من عمرو. هو نوح له ولاد خالة اسمهم حبيبة وعمر؟

- آه.

- وحبيبة جوزها اسمه سالم؟

- ما أعرفش، بس إشمعني؟

- الفترة اللي فاتت كنا شغالين على جريمة قتل شاب اثبتت على

الطريق الصحراوي وسرقوا فلوسه وعريته وضربوه رصاصة

وسابوه في الصحرا. الموضوع كان مشبوه، موقع الجريمة يدل

على أن الجثة انتقلتله بعد ما اتقتلت مش إنها اضربت بالنار

فيه. راح عمرو مبرشط على القضية ومطلسمها، وأنا فضلت

مكمل في سكتي، ولسه هبدأ أستجوب أخت القتل لقيت ابنها

اتقتل، وفي نفس الليلة هي كمان ماتت.

- إيه دخل ولاد خالة نوح بالفيلم ده؟

- ما دي البلوت تويست. السفاح اللي اقتحم الكافيه النهارده

وشوّه هادي الحكيم يبقى سالم عبد الرحيم، جوز بنت خالة

نوح.

حدقت إليه هنية في محاولة لاستيعاب ما قاله. صحيح أننا

عرفنا أن عمر قُتل في الصحراء، وهناك من اعترف بالجريمة التي

كان دافعها السرقة، ثم أحيل إلى النيابة، ولكننا لم نعرف أن هناك شبهة جنائية في موت حبيبة.

- عرفت الحكاية دي منين يا وليد؟

- عمرو وشلته الميديوكر عملوا تحريات لرصد تحركات سالم ومراته في الفترة اللي فاتت، حبيبة قبل ما تتسمم كانت بتتردد على ثلاث أماكن، بيتها، والنادي، وبيت خالتها سعاد. اللي هي مامت نوح.

حدقت إليه مجددًا سارحًا في هذه التفاصيل العجيبة وأنا أحك مقدمة شعري من أسفل قبعتي الرياضية، ثم علقت أخيرًا على كلامه:
- نوح بقاله سنين مقاطع ولاد خالته، يعني الكلام ده لو حقيقي فهو ما كانش يعرف.

- ولا مامته كانت تعرف؟

لم أجد ردًا قاطعًا، وسوس الشيطان إليّ محوّلًا استفسار وليد البريء إلى اتهام صريح لطنط سعاد التي تتصرف تصرفات مريبة منذ الأمس.

أجبت:

- ما أعتقدش حد من العيلة يعرف. إنت لسه قايل بنفسك إن هادي عاش في المجتمع بوشين، وأكيد شريكه في الجريمة زيه.
- أنا برضو قلت كده، نوح عمره ما هيتستر على مجرم مهما كانت درجة القرابة بينهم.

- خليني أنا أشوفلك المسألة دي. بس مش عايز الكلام ده يتنشر يا وليد، فاهمني؟

- فاهمك طبعًا.

تفقد ساعته، ثم قال:

- أنا مضطر أتحرك عشان أكمل محضر الاستدلالات، اديني آلو أول ما نوح يخرج.

- حاضر، وابعثلي كل الصور اللي في بيت هادي، يمكن يكون متصور مع الحيوان اللي عملنا فيها وكيل نيابة.

* * *

وجدت آسيا تقف بمفردها في الممر المؤدي إلى غرفة الانتظار منشغلة بالكتابة على هاتفها، ففهمت أنها خرجت لتتجنب التعامل مع والدَي.

انصب تركيزها فيما تكتبه، إلى درجة أنها لم تنتبه لوقوفني إلى جانبها إلا حين داعبت خدها.

التفتت إليّ مبتسمة، وألقت هاتفها في حقيبة يدها، ثم قالت بنبرة مشاكسة شغلتنني للحظة عن التفكير في المعلومة المربعة التي شاركني وليد إياها عن ابنة خالة نوح:

- سيادة اللواشن حملة أمنية على المستشفى ويستجوب الدكاترة والمرضين عن صحة نوح.

ضحكت ضحكة باهتة على تعليقها الساخر، ثم سألتها بجدية:
- قالوك حاجة؟

- أول ما دخلوا عملوا أنفسهم مش شايفني، مامتك جريت على طنط سعاد ونادية اترمت في حضن باباك. قتلهم مساء الخير، مامتك تقريبًا ما سمعتنيش، وباباك رد عليّ تحت

تهديد السلاح، وأنا خدت بعضي وطلعت عشان يبقوا على راحتهم.

حمدت الله على عدم وقوع أي خسائر في أثناء اللقاء الأول بين زوجتي ووالدي، وضممت ذراعي نحو صدري، فعلقت يديها بمرفقي، وقالت بطريقة طريفة:

- باباك بيعامل نادية بحنية جدًا، شكله كان نفسه يخلف بنت.
- إنتي بتقولي فيها، ده من كتر حبهم في نادية كان نفسهم في بنت زيتها. ولما خلفوني ورضخوا للأمر الواقع فضلوا يقولولي اتجوزلنا واحدة جدعة زي نادية، هي دي اللي هتشيلنا لما نكبر.

- قمت جبتلهم واحدة دمرتلك العلاقات خالص.
ضحكت كأن ما قالته مجرد طرفة، لكنني شعرت بالذنب لأن ذكرى لرغبة والدي في تزويجي بامرأة على مقاسهما اضطرها إلى السخرية من نفسها.
كفرت عن ذنبي بأن قبّلت يدها، ثم حاوطة ظهرها بذراعي وأنا أقول:

- بابا وماما فايتهم جدعنة كثير أوي.
أتاني صوت أبي يناديني بنبرة حادة لا يستخدمها إلا عند اكتشاف مصيبة ارتكبتها، فأجفلت، وحين رأيت تعبيرات القلق على وجه آسيا مازحتها قائلاً:

- لو اتأخرت عليكى اطلبي البوليس.

* * *

عمّ الغرفة صمت عجيب لا يقطعه سوى صوت نادية الواقعة عند
النافذة تراجع مع طارق مواعيد تمارين الأولاد، وطنط سعاد جالسة
في الزاوية إلى جانب أمي التي لم تنزل عينيها عني منذ أن دخلت
الغرفة متجهًا إلى أبي الذي أمرني بالاقتراب بإشارة يد غاضبة.
كان يجلس إلى جوار تيتة إحسان بينما تقرأ من مصحفها، فجلست
على يسار المقعد لتبقى تيتة عازلاً رادعاً بيني وبين أبي. اضطر إلى
أن يستدير برأسه نحو اليسار ليراني بعينه اليمنى السليمة، ثم همس
وهو يفحصني:

- مفيش حلاق قريب من بيتكم يا بيه؟ وقفت قدام مديرك بالهيئة دي؟
تحسست ذقني الذي أطلقته في أثناء شهر العسل وأطراف شعري
الذي طال حتى منتصف قفاي مستسلماً لتوييخه، فلست الرجل الذي
يجادل أباه.

أغلقت تيتة مصحفها، وقالت:

- هقوم أصلي.

قدّم أبي ذراعه لها لتكئ عليها، فنهضت بصعوبة في رفقته، بينما
وكز قدمي بطرف حذائه قائلاً:

- الكبار واقفين!

نهضت عن مقعدي محرجاً، ويبدو أن تيتة إحسان انتبهت لذلك،
فسلمت مصحفها لأبي، ثم أمرته بنبرة تجعلني أتصور أنه سيظل في
نظرها الصبي الصغير صديق ابنتها، وليس اللواء السابق أنور المحمدي
الذي تهتز الشوارب من هيئته:

- لو رجعت لقيتك ما سك في خناق ابنك، هرميكم إنتو الاتنين بره.

هز رأسه، وقال بتهذيب مفرط:

- أوامرك يا ماما.

رفضت أن يوصلها إلى المصلى، فظللنا واقفين حتى أولت ظهرها لنا وغادرت الغرفة، وقتها فقط عاودنا الجلوس.

جلس مكانها ليكون أكثر قرباً مني، ويتمكن من توبيخي بصوت أخفض وبحرية أكبر:

- اللوارشوان قالي إنك سبت أخوك في موقع الجريمة ورُحت تجيب فطار.

ثاني أكثر شيء يقيد حرية الإنسان بعد أن تكون أمه معلمته التي تراقبه أربعاً وعشرين ساعة داخل الفصل وخارجه، أن يكون مديره صديق والده!

- كنا خلصنا شغل وهنرجع القسم ف...

- فايه؟ إزاي ما مسكتش المجرم؟

- مسكناه.

- زمايلك في مباحث المعادي مسكوا هادي الحكيم القدر، إنما

اللي مسمي نفسه رياض السعيد ده فين؟

يا إلهي! حتى بعد أن تقاعد ما زال يتابع القضايا أكثر من أنشط

ضابط في الخدمة.

أضاف بعصية جعلت عروقه الزرقاء تبرز من أسفل جلده الأبيض،

وألهبت حمرة الندب الطولي الذي تسبب في فقء عينه وترك أثره من

أسفل حاجبه الأيسر وحتى مبتدأ عظمة خده:

- إزاي تبقى في موقع الجريمة وما تقبضش عليه متلبس يا بيه؟

- كنت مشغول بنقل نوح مع الإسعاف يا بابا و...

- إنت شغال مسعف ولا ظابط مباحث؟

تحول ارتباكى إلى غضب يتأجج بداخلى فحاولت كظم غيظى والتزام الصمت، ولكن أبى ما كان لينهى توبيخه ببساطة، اقترب منى أكثر، وقال بمزيد من التحقير والحدة:

- ناوى تلاقى اللي ضرب أخوك بالنار إمتى؟

- حضرتك لقيت اللي ضرب أونكل يحيى بالنار إمتى؟

تلقى إجابتي كأنها بخة مسمومة من أفعى مجلجلة، احتقنت الدماء فى وجهه، ولمعت عينه اليمنى بالغضب.

قررت الانسحاب من جلسة تأنيب الضمير هذه قبل أن تتحقق نبوءة تيته إحسان ويمسك حقاً فى خناقى.

اهتز هاتفى فى جيبى ورنٌ بإشعارات متتالية، فقلت لأبى وأنا أنهض عن مقعدي وأخرج هاتفى من جيبى:

- عن إذن حضرتك.

خرجت من الغرفة، صوت الإشعارات العديدة كان مصدره رسائل من وليد تأخرت فى استلامها بسبب سوء شبكة الإنترنت.

فتحت الصور التى التقطها لهادي من على جدران صالة بيته، كان يقف بنظرات تجعل شعر جسدك ينتصب قلقاً، كأنك تواجه التجسيد البشرى لكلمة خطر، أو لعل مجسات رصد الخطر عندي مفرطة الحساسية، فلا أظن أن أيّاً من الممثلين والموسيقيين والرسامين رأى فى عيني هادي ما رأيته أنا، ولا حتى نوح، وإلا ما صدق أنه كان من تلاميذ أونكل يحيى رحمه الله.

قلبت في الصور سريعًا، حتى توقفت عند صورة جعلتني أتجمد
في مكاني من الصدمة.

كانت صورة التُّقُطت في الليل عند حَمَّام سباحة يرتدي كل مَنْ
يشغلون خلفيتها فساتين سواريه وبدل توكسيدو، على الطرف الآخر
من حَمَّام السباحة آلة هارب ضخمة تقف بلا عازف، وأبطال الصورة
هم شابة صهباء ترتدي فستانًا ذهبيًا لامعًا يجاورها هادي الحكيم،
أجحمه الله، كلاهما يمسك كأسًا من النبيذ الأحمر، يجاورهما
شخص مجسات الخطر عندي ترسل إليَّ إنذارات خافتة كلما رأيته،
فكنت أرجع ذلك إلى تأثير كراهية نوح له فيَّ. ولكن رؤيتي له الآن
في رفقة السفاح السيكوباتي هادي الحكيم، تخبرني بأن الأمر ربما
أكبر من مجرد نفوري منه، لأنه سبب دمار علاقة نوح بطنط سعاد،
جسدي كان يخبرني بأن عاطف الهمشري خطر، وها هو ذا الدليل.
قبل أن أبدأ في ربط الأمور ببعضها، شعرتُ بحركة مريبة، فالتفت
خلفي، ورأيت الممرضة شكرية تنادي على أسرة نوح فيقتربون معًا
من الممر المفضي إلى قسم غرف العمليات الجراحية.
نوح خرج من العمليات.



دليلة

ارتدى الموت بدلة سوداء أنيقة كبدايات عازفي الأوبرا، وجلس على كرسي خشبي أمام شاب وسيم نائم، ثم راح يعزف له على الكمان.

ارتشفت اليانسون المغلي في فنجان المزرکش بالزهور الملونة، وأنا أتأمل لوحة «الفنان المحتضر»، للرسم البولندي زيغمونت أندريكييفيتش، التي تعرضها أُمي علينا الليلة، وتنتظر منا تأويلها.

لا يحتاج الأمر إلى كثيرٍ من التأمل، اللوحة تحكي لك عن فنان شاب كان يرسم عملاً جديداً، ثم مات في فراشه.

يمكن الجزم بذلك بسبب الاسكيتشات المتناثرة أسفل فراشه، والأوراق المبعثرة على الكومود بجوار المحبرة المفتوحة التي ينعكس عليها ضوء الأباجرة، واللوحة المعلقة على مسند الرسم بزاوية تخفي تفاصيلها عن المشاهد، وتجعل حقيقة انتهائها من

عدمه غير مؤكدة، لكن وجود الكرسي الذي يشغله الموت في المسافة بين فراش الرسام واللوحة يوحي إليك بأنه مات قبل أن ينهيها.

قررت الانغماس في تفاصيل اللوحة لأشتت نفسي عن كريشندو تقلصات أمعائي، وانقباضات رحمي، والألم الذي يعتصر بدني، وعن مرور أربع وعشرين ساعة منذ أن عرضت على نوح أن يأخذ استراحة قصيرة مني حتى يحسم أمر زواجنا.

اعتاد أبي تشبهي بنغمة التبكير، وليلو بنغمة التأخير، كان يرجع ذلك إلى أن ليلو تؤخر التعبير عن مشاعرها حتى إنكارها، وأنا أبكرها إلى درجة تقدير البلاء قبل وقوعه.

كان محققاً - رحمة الله عليه - منذ أن علمت أن الله لم يقدر لي الإنجاب وأنا أترقب اللحظة التي سيعلن فيها نوح إنهاء علاقتنا، حتى يرتبط بمن ستشبع توقه إلى الأبوة. صحيح أن الآية لو كانت معكوسة ما كنت لأتخلى عن نوح أبداً، ولكن كوني اعتدت التضحية والعطاء لا يعني أن الجميع سيبادلوني بالضرورة القيم نفسها.

أعلم أنه يحبني بصدق، حتى وإن لم يكن يعبر عن هذا بالكلام، فأنا أراه في أفعاله، في اهتمامه بأمي وليلو، في قلقه عليّ، في تفضيل تمضية وقته معي على أن يرتاح بين مناوبة وأخرى، في مجاراته لطلباتي غير المنطقية في بعض الأحيان بغرض طمأنتي كما فعل بالأمس، ووافقني على اقتراح الاستراحة من علاقتنا.

مع ذلك، كان يقرع الشك طبوله من حين إلى آخر لأشد عن

نوتة ثقتي بزواجي المستقبلي، ويوسوس إليّ بأن نوح يدعمني بدافع الشهامة الآن، وبعد شهر أو اثنين سيمل من تدمري، وبكائي، وتذبذبي، وحسرتي على أمومتي المسلوقة، وينفصل عني.

لكن بعد عام من المحاولات الفاشلة للعلاج من دون أن أحرّم من رحمي، لم يمل نوح من مراثياتي الشجية وألحاني الجنائزية، ولم يلمح إلى احتمالية انفصاله عني.

عاملني أمس بنضج وسعة صدر شديدين، ومع هذا أصبت بانهيار عصبي بعد مكالمتنا، لأنني لم أتمكن من عزف التشيلو. أصابني انتفخت كما انتفخ وجهي وبطني وقدمي كعرض جانبي لحالتي الطبية، رافق هذا الانتفاخ شعور فظيع بالتحسس من ملمس الأوتار المشدودة وخشب قوس التشيلو.

فشلت في عزف مقطوعة باخ «Suite No. 1 In G Major»، فتركت التشيلو، وألقيت هاتفي بعصية صوب الحائط فتحطم، ودفست وجهي بين وسائدي أبكي ضعفي وآلامي وتشوشي حتى نمت.

استيقظت هذا الصباح، وكان أول ما فعلته أنني نقلت شريحتي إلى هاتفي القديم إلى أن أصلح هاتفي الذي راح ضحية انهيار العصبي، ولكنني لم أتمكن من استرجاع رسائل الواتساب.

وددت أن أتصل بنوح لأسأله إن كان قد حاول الاتصال بي أو ترك لي رسالة، ولكنني قلت: كيف أفرض قانونًا ثم أكسره بنفسني؟ منعت شوقي إليه، والتزمت باتفاقنا، وها قد مرت أربع وعشرون ساعة، وانتهت مهلة الاستراحة ولم يكلمني.

استأنفت ليلو شرحها للوحة باختصار، بينما أرتشف رشفة أخيرة

من اليانسون، وأتفقد الوقت من شاشة هاتفي، تأخر عن الميعاد المتفق عليه بعشر دقائق لا أكثر. يجب أن أكون أكثر صبراً، حتى وإن كانت كل ذرة بجسدي تتوق إلى سماع صوته.

تنحنحت أُمي فانتبهت لها، تفقد الهاتف ممنوع منعاً باتاً في أثناء جلساتنا الفنية اليومية.

ألقيت الهاتف في جيب منامتي، وعادت التركيز على لوحة أندريكييفيتش وأنا أداعب بطرف سبابتي المتورمة حواف الفنجان الذهبية، بينما تقول ليلو وهي تعيد فنجانها فارغاً إلى الصينية:

- دي طريقة زيغمونت أندريكييفيتش في التعبير عن أن الموت هو آخر صديق هيزورنا مهما كنا مشهورين أو محبوبين.

ما المقطوعة التي قد يعزفها الموت على الكمان في زيارته للفنان المحتضر؟

لو كنت الموت لعزفت مقطوعة باخ الأكثر هيبية وحزناً «Violin Sonata No. 1 In G Minor»، إنها الموسيقى التصويرية الأنسب للاحتضار.

تسلل لحن كمان الموت إلى عقلي، وهيمن على أفكاري، وأنا أتساءل إن كان ما أراه أمامي في اللوحة مشهد احتضار بريثاً. الأوراق والاسكيتشات على الكومود وعلى الأرض ليست مجرد أوراق مبعثرة، إنها ممزقة، والكتب المفتوحة ليست منقلبة على وجهها وفرش ومعاجين الألوان ليست على الأرض لأن الفنان كسول، بل لأنها أُلقيت بعنف في سَوْرَة غضب كتلك التي أُلقيت فيها هاتفي نحو الحائط حين عجزت عن إتمام عزفي.

ثمة تفصيلة غيرت نظرتي تمامًا للمشهد المرسوم، الزجاج المتناثر
على الأرضية.

في رأيي، الموت لم يزر الفنان المعذب الباحث عن الإلهام على
حين غرة، لقد لبي دعوة تلقاها منه في لحظة يأس.

- وإنتي شايقة إيه يا دليلة؟

أعدت فنجاني الفارغ إلى الطاولة وأنا أقول:

- شايقة إن الإزاز المتكسر على الأرض ده إزازة سم شربها من
يأسه من الفن اللي ما عرفش يداوي روحه المتعذبة.

رأيت علامات القلق على وجه أمي، ربما استغربت سوداوية
تأويلي للوحة، لكن أليس من الطبيعي أن تتغير ترجمتي للفن بما
يتناسب مع التغيرات التي طرأت على حياتي برمتها؟

كانت حياتي تهويده رقيقة إلى أن مات أبي، وشُرخ صوت لحن
دنياي، وتنافرت الأصوات، حتى ظهر نوح كنغمة أتونالية خارجة عن
المألوف، لا مقام ولا سلم موسيقي لها، فأحببته في يقظتي ومنامي،
وعادت معه الأنغام إلى حياتي.

جاء المرض، وباغتني بخسّة كتذبذب عشوائي خارج عن
الإيقاع، فتحوّلت التهويده إلى أوبرا بالاد عشوائية صوتها نشاز
يرهق الأعصاب، وتنفر منه الآذان.

ربما هذا الوصف الأدق لحالي الآن، أنا أذن موسيقار تنفر من
ألحانه.

ضحكت أمي، ثم قالت ممازحة:

- شكلك اتعديتي من نوح.

أين نوح؟ لماذا لم يتصل بي حتى الآن؟
هل تمضية يوم كامل من دون تبادل كلمة واحدة معي جعلته يدرك
أن حياته من دوني أكثر انسيابية؟ هل أخذ اقتراحي على محمل
الجد وقرر أن تتحول الاستراحة إلى قفلة هارمونية تامة لا رجعة
منها؟

ولد الخوف في أحشائي، ثم زحف حتى عيني، فتجمعت دموعي
فيهما إلى درجة أن ليلو انتبهت لحالتي، ونهضت من مقعدها وجلست
إلى جوارِي، وقبضت على رسغي، وسألني بنبرة هادئة:
- فيه حاجة واجعاكي؟

انضمت أُمي إلينا على الأريكة، وقالت بقلق يناقض هدوء ليلو:
- أكلم الدكتور ي... ..

قاطعتها بانفعال جعل صوتي يخرج صاخبًا ساخطًا:
- ليه اخترت لوحة عن الموت دلوقتي؟ كنتِ استنيتي لما أموت
في العملية.

تخلّى عني تماسكي، وغلبني البكاء، فكرهت دموعي وفضاظة
أسلوبِي مع أُمي التي أعِي حسن نيتها.

وددت أن أعتذر إليها، ولكنني خاصمت المنطق منذ فترة، ولا أظننا
ستتصالح الآن. تملصت من قلق أسرتي عليّ، وهرعت إلى غرفتي.

* * *

ثمة غراب معشش في رأسي يتصيد لحظات الانفعال كهذه لينعق
ويخلق بين جنبات عقلي، حتى يطغى خفق أجنحته ونعيقه القبيح
على أي فكرة إيجابية قد تراودني.

صفقت باب غرفتي، وألقيت بنفسي على الفراش رازحة تحت
ضغط الحزن والغضب والألم والقلق ونعيق غراب رأسي. كل
شيء يؤلمني؛ عظامي، عضلاتي، جلدي، ذكريات الماضي، أفكار
الحاضر، أحلام المستقبل.

أتحسس من كل شيء، من منامتي الكتانية الفضفاضة التي تنسدل
حتى رسغي، ويتدلى بنطالها حتى كعبي، من أطراف شعري التي
تلامس كتفي، من كلمات الطمأنة ولمسات الاحتواء، حتى من
الهواء الذي يدخل رئتي.

شعرتُ بأنني أضعف من حياتي التي فقدت السيطرة عليها، وأنني
وحيدة على الرغم من أن الجميع حولي، وأنني فقدت شغفي على
الرغم من أنني ما زلت أعزف الموسيقى، وأتأمل اللوحات، وأشاهد
الأفلام، ويخفق قلبي حين يمسك نوح يدي.

أين نوح؟

زاد نعيق الغراب المحلق، وداهمني الألم بنذالة، فأطلقت أنينًا
اختفى بين نشيجي وشهيقِي وزفيرِي، وضغطت على بطني بكفِّي
عسى أن أكبح جماح هذا التوجع، ثم صمت حين انتبهت لصرير
باب غرفتي.

وقفت ليلو عند الباب، وهمست بحذر كأنها تحدث مسدسًا
بلا صمام أمان على وشك أن يطلق رصاصة طائشة نحوها:

- ينفع أدخل؟

مددت يدي نحوها، وأشارت لها بالاقتراب. بمجرد أن جلست
إلى جوارِي، ألقيت رأسي على حجرها فمسدت شعري وهي تقول:

اضطرت إلى الاتصال بأكثر شخص لا يطيقني، وللمفارقة كان
الشخص الوحيد الذي رد على مكالمتي.
- آلو يا طنط إحسان.

- أيوه يا حبيتي.
فاجأتني بحنان نبرتها وبكلمة «حبيتي»، لم أكن «حبيبته» قط!
- آسفة يا طنط لو أزعجتك. أنا بس قلقت على نوح عشان تلفونه
مقفول....

- ماما وأختك معاكي؟

- معايا.

- كويس، أصل هقولك خبر مش عايزاكي تسمعيه وإنتي لو حدك.

* * *

تكاثرت الغربان، وتناسخت حتى ملأت رأسي كله، ونعقت حتى
لم أعد أسمع صوت أفكاري.

اندفعت من البيت لا أحمل سوى هاتفي ومفاتيحي، ثم ركبت
سيارتي، واتجهت إلى المستشفى من دون أن أخطر أسرتي. وصلت
بمعجزة إلهية، فدموعي المنهمرة ضربت رؤيتي للطريق، ورعشتي
الجزعة أفقدتني السيطرة على المقود أكثر من مرة.

ركبت المصعد فرمقني العامل المسن بغرابة، مما جعلني أتفقد
حالي.

اكتشفت أن الصدمة دفعتني إلى الخروج من البيت بشبشب
الحمام المزين بالريش الملون، وبمنامتي الزرقاء الفضفاضة من
دون حتى أن أمشط شعري. في وضع آخر كنت سأشعر بالخجل

الشديد، وأتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني، ولكن شعوري بالهلع
فاق أي مشاعر أخرى.

خرجت من المصعد فكانت آسيا أول من رأته أمامي بقامتها
الفارعة التي تشعرني بأنني قزمة، وسترتها الرياضية الحمراء
الأنيقة وبسطة إكسسواراتها. لم تنتبه لوجودي إلا حين هرعت
نحوها وجذبتها من مرفقها لأسألها بصوت تردد في أذني عاليًا
ومذعورًا:

- نوح فين؟

استقبلت هلمي بعناق وتريته على ظهري، كأنني طفلتها المذعورة،
وقالت بصوت مريح:

- خرج من العمليات بالسلامة، الحمد لله.

- وديني أشوفه.

أحاطت كتفي بذراعها المديدة، وسارت بي نحو ممر ينتهي بحمام
النساء، فوجدتها تفتح الباب، وتقودني للدخول.

وقفنا عند أقرب حوض، فقالت لي:

- خيليني أشرحلك الوضع عشان ما تتخضيش لما تشوفيه. نوح

، قع من الدور الثاني، بس نزل على عريية، فده خفف عنه

انصدمة، شوية كدمات وشروخ بسيطة وكسر في الحوض و...

- كسر في الحوض؟! يعني هيقدر يمشي؟

- الدكتور قال إن ثلاث شهور علاج طبيعي، ويرجع يمشي عادي،

المهم ناخد بالنأ منه.

- أنا هحطه في عينيا، بس أشوفه.

- مش عارفة أشكرك إزاي على البريك داون ده، إنتي قدمتيلى
أحسن خدمة فى حياتي.

نهضت من مضجعي، وأسندت ظهري إلى مسند السرير وأنا
أستفهم منها:

- خدمة إيه يا زفتة؟

- ماما هتلغي طقس البحلقة فى اللوحات لحد ما تقومي بالسلامة
من العملية.

ضربت ردفها بخفة وسببتها بالألمانية، فضحكت، ثم قبّلت خدي،
وأراحت رأسها على صدري.

طردت ضحكات أختي نعيق الغراب الأسود من رأسي ومنعته
من الاستفراذ بي، وراحت تسألني وهي تعبث بدبلتي ومحبسي:

- ما سمعتكيش بتكلمي سيادة الظابط من الصبح يعني؟
- واخدين بريك.

- على أساس إنكم ريتشيل وروس؟!!

حكيت لها تفاصيل ما حدث فنعتني بالغيبة الباحثة عن النكد،
ثم أمرتني بالاتصال بنوح فى الحال، وخرجت لتترك لي مساحة
للتحدث معه بخصوصية. كأنني كنت أنتظر تشجيعًا بسيطًا كهذا،
انتشلت الهاتف، واتصلت به على الفور، لكنني تفاجأت بأن هاتفه
مغلق.

أخبرني قلبي بأن الوقت ممتاز للقلق!
اتصلت بنادية مرتين متتاليتين، لكن لم تجبني.
أخبرني قلبي بأن الوقت ممتاز للהלح!

- هاخذك تشوفيه، بس توعديني ما ننهاريش قدام أهله، الناس متدبرين بما فيد الكفاية.

- هو فيه حاجة تانية غير الكسور؟

- للأسف أيوه. نوح خدر صاصة أدت لاستئصال طحاله وجاله...
توقفت عن الكلام حين انتبهت إلى أنني أضغط على أسفل بطني،
لأن كريشندو الألم زارني عازفاً مقطوعة من التقلصات والانقباضات
التي لا تنتهي، بينما أقول:

- يعني هحتاج طحال؟ أنا هتبرعله باللي محتاجه، بس يرجع زي الأول.

ابتسمت، وربت على كتفي بشيء من الاستحسان، ثم قالت:
- مش مستاهلة، اللي مستنينه يعدي على خير دلوقتي هو تدفق
الدم للمخ.
- يعني إيه؟

- الوقعة عملتله نزيف محدود في المخ، الدكاترة الحمد لله وقفوه،
بس لأن نوح مدخن شره فتدفق الدم اتأثر، ودخل في غيبوبة.
جرفتني موجة من البكاء المذعور فتركتني أبكي من دون أن تطلب
مني الهدوء أو التوقف، ربت على كتفي حتى أفرغت مكنون روحي،
ولم أجد دمة أخرى أذرفها.

فتحت الصنبور، وبدأت تغسل وجهي كما كانت تفعل أمي
لأستفيق قبل الذهاب إلى المدرسة، وقالت بمزيج من الحنان
والصرامة يجعلني أومن بأن قطز اتخذ القرار الصحيح بتمسكه بها
رغم أنف الجميع:

- كده فضينا كل اللي عندنا، دلوقتي بقى نغسل وشنا، ونصلب طولنا، ونطلع نسند الناس اللي فوق. مامت نوح وجدته ونادية وضعهم يحرق القلب، وقطر ماشي بيكلم نفسه، وباباه مش عاتقه غلاسة. أنا وإنتي اللي هنشيل العيلة دي لحد ما ابنهم يطلعنا بالسلامة، صح ولا إيه؟

- صح.

زاد الوجع، فضغطت على أحشائي أكثر، فقالت وهي تغلق الصنبور:

- محتاجة دكتور؟

- أنا كويسة.

- ما ينفعش اللي حصل لنوح يآثر عليك، عمليتك يوم الخميس وما...

- أنا مش هعمل حاجة غير لما نوح يقوملي بالسلامة.

- أهو ده بقى الكلام اللي يزعل. ما دام الدكتور حددلك ميعاد لاستئصال الرحم لازم تلتزمي به. مفيش تهريج في الأورام يا دليلة، اسأليني أنا.

ناولتني مناديل الحمّام الخشنة لأجفف وجهي، بينما تمشط شعري بأصابعها، وتقول بنبرة ممازحة لطيفة:

- عايزة نوح لما يفوق يقولنا إننا ما عرفناش ناخد بالنا من عروسته ولا إيه؟

* * *

رأيته من خلف الزجاج نائمًا في ثوب المستشفى الأبيض، وتفصل

بينه وبين المريض الوحيد الذي يشاركه غرفة العناية المركزة ستارة زرقاء.

برزت من أسفل حواف غطاء سريره أطراف براغي ومسامير المثبتات الخارجية التي تخترق لحمه لتثبت عظام حوضه، ومعلق بطرف إصبعه مقياس التأكسج النبضي، وتنغرس في شرايين ذراعيه إبر المحاليل. حول عنقه مثبت رقبة بلاستيكي، ويغطي أنفه قناع التنفس، وتملأ وجهه القمحي الحسن الكدمات والجروح، ولُف رأسه بالشاش والضمادات إثر جرح العملية.

تزلزلت روحي من رؤية حبيبي في هذه الحالة، فارتجفت بدني كله، وأخذت أسناني تصطك، ولكني لم أبلِّ كما وعدت آسيا، حبستُ دموعي داخل فؤادي، وبقيت متماسكة حتى جذبتني يد من مرفقي.

التفت فكانت يد نادبة التي أتت من خلفي من دون أن أشعر بها وعانقتني بلهفة، جعلتني أجهل إن كانت تضميني إليها أم أنني التي أضمتها إلي! كل ما أعرفه أن كلتيما انهارت باكية في حضن الأخرى، حتى تدخلت والددة نوح التي لم أكن أعرف من تكون إلا حين نادتها نادبة بـ «ماما» وهي تعانق اثنتين، محيطة كل واحدة منا بذراع وانضمت إلى سيمفونية بكائنا.

عابتني أمي لأنني ذهبت إلى المستشفى بمفردي، وواجهت هذه المصيبة من دونهما.

قضيت الليل في فراشها كما طفلة رأت كابوسًا بشعًا فأوت إلى

حضن أمها، وفي اليوم التالي ذهبت معي هي ولبلو إلى قصر العيني، لدعم أسرة نوح وحتى تحين ساعة زيارته.

نصحتني في الطريق بإسماعه أغانيه المفضلة، وبالتحدث إليه كأنه واعي، لأن هذا ما فعلته مع أبي حين تعرض لحادث عنيف في بداية زواجهما ودخل في غيبوبة لثلاثة أيام استفاق منها متذكرًا الكثير مما قالته له.

قابلنا قطز أمام المستشفى، كان يفرك عينيه المحمرتين بأصابع مرتعشة، ويدخن سيجارة على الرصيف بالملابس التي رأيته بها بالأمس، ولكنها كانت متربة، فأخبرني بأن سبب التراب هو حمل نعش زميلهم المصور الذي قُتل ونزوله به إلى مدفنه.

حاول أن يخفي إرهاقه عنا بأن رسم ابتسامة على وجهه الذابل، واصطنع المرح في صوته وهو يرحب بقدمنا ويخبرنا بأنه سيذهب إلى منزله ليستحم ويغير ملابسه، ثم سيعود إلينا وقت الزيارة.

عبرت له عن امتناني لاعتنائه بنوح، وأثنت أمي على شهامته، ثم ودعناه، وصعدنا إلى طابق العناية المركزة.

انضممنا إلى نادبة وطنط إحسان في غرفة الانتظار، وتعرفت أمي على والددة نوح التي تفاجأت بلطف معاملتها وحميمية عناقتها المعاكس للجفاء الذي عاملت به ابنها لسنوات.

تضايقت طنط إحسان من تقرب والددة نوح مني، فنادتني لأجلس بينها وبين نادبة التي أظهرت لي محبة زائدة عن العادة، إلى درجة أنها اخترعت اسم تدليل تناديني به «ليلا».

أمضينا ساعات في غرفة الانتظار نتجاذب أطراف الحديث، حتى حانت ساعة الزيارة، وذهبنا لرؤيته.

غادر شريك نوح الوحيد في غرفة العناية المركزة، فدعوت الله أن يلحق به حبيبي عاجلاً.

دخلت نادبة وطنط إحسان ووالد قطز أولاً لزيارته، وبقيت طنط سعاد ملتصقة بالزجاج وتشرب بعنقها وتقف على أطراف أصابعها لترى نوح من دون أن تدخل الغرفة.

بخروجهم، سمحت لنا شكرية بالدخول فأسرعت متلهفة لرؤيته.

جلست على الكرسي القريب من سريره، فقد ماي المتورمتان لم تعودا تتحملانني، وهمست إليه:

- بيبي، أنا هنا. كلنا حواليك. مش هتصحى بقى عشان تشوف الصنايعي هبب إيه في الشقة زي ما قلتلي؟

فرت مني ضحكة لا أدري إن كانت إنكاراً لقسوة الوضع أم تستراً على توترتي، ولكن أمي راقها مزاحي فراحت تستحث نوح على الاستيقاظ حتى تنتهي من تشطيب الشقة، ثم ألقت ليلو بضعة تعليقات هزلية، ووعدته بأنها ستصحبه معها إلى المزيد من حفلات ويجز و مروان بابلو، حتى دخلت شكرية وطلبت منا الخروج ليتسع وقت الزيارة لـ «كل حبايب الباشا» على حد قولها.

كان المتبقي من «حبايب الباشا» هو صلاح، الذي ألقى علينا التحية في أثناء مغادرتنا، وسألنا إن كنا بحاجة إلى شيء.

عدنا إلى غرفة الانتظار نتبادل المستجدات والتوقعات بحالته، حتى انتهت أمي إلى أن طنط سعاد منبوضة من الجميع، إلى درجة أنها تجلس بمفردها في أبعد مقعد عنا، فذهبت أمي إليها، واقتربت عليها النزول إلى الكافيتريا لتناول الشاي.

سألتنني نادبة للمرة الرابعة تقريباً عن صحتي، ثم عن استعداداتي لميعاد العملية، فتوترت، وحاولت التملص من الحديث.

أجهل سبب شعوري بالانزعاج عند مناقشة هذه التفاصيل مع أحد غير أمي وأختي وخطيبي، فتحججت بأنني سأنهض لألقي نظرة أخيرة على نوح قبل انتهاء موعد الزيارة، وتركت الغرفة التي وترتني أجواؤها.

قابلتني أمي في الممر وهي تتبادل الضحك مع طنط سعاد، ويبدو أنها بدأت معها صداقة على الأغلب سيتزعج نوح منها، وأعطتني كوبها الحراري الذي ملأته لي باليانسون المغلي من الكافيتريا.

أخذته منها بامتنان، وسرت حتى ممر العناية المركزة الذي خلا من الزائرين، فأدركت أن ميعاد الزيارة قد انتهى، ولكني لن أعود لتضعني نادبة مرة أخرى تحت المجهر، سأراقب نوح من خلف الزجاج.

وصلت عند باب الغرفة المفتوح فاكتشفت أن صلاح ما زال في الداخل، يميل إلى نوح ويقول بنبرة تشي بأنه يعافر لقمع مشاعره:

- إنت يعني طهقت من صداقتنا يا نحنوحة فقلت تخلع بشياكة؟

ما طول عمرك ضد المية وضد النار جاي تفيض قبل فرح صبوحة؟ أفرح للبت إزاي دلوقتي وأنا عارف إنني السبب في

رقدتك دي؟ يا ابني قوم حريم العيلة مقطعين أنفسهم عليك،
ولأبلاش كلمة ابني عشان بتقمص. قوم يا عم عيالي، هلاقي
مين غيرك أرازيه؟

اختق صوت صلاح، فتراجعت حتى لا يشعر بوجودي، لا أظن
أنه سيرتاح لفكرة أنني رأيت في حالة إنسانية هشة كهذه.
لم يُطل بقاءه بعد هذه الكلمات، خرج وبمجرد أن لمحني عند
الباب تنحنح، وقال بصوت أجش يغطي به آثار الحزن والتأثر:
- ناقصك حاجة يا مزمازيل داليدا؟

لم أبال بتصحيح اسمي، فأنا أنادي باسم داليدا أكثر مما أنادي
باسمي الصحيح، شكرته، فhez رأسه ثم سار في الممر وتسلفت أنا
إلى الغرفة.

جلست على الكرسي القريب من سرير نوح، ووضعت الكوب
الحراري على الأرض، ثم شغلت له أقرب أغاني حكيم إلى قلبه
بصوت خفيض.

لمست يده، كانت باردة كندفة ثلج، فضممتها بين كفي الدافئتين
إثر حمل اليانسون المغلي وأنا أقول:

- مش هتصدق اللي حصل، صلاح كان هيعيط عليك. عارف
لو صحيت دلوقتي عشان اتأثرت بكلامه، هعمل فيك إيه؟
قبّلت يده التي صارت أكثر دفئًا، ثم قلت وأنا أتحمس رسغه
وبراجمه وأعافر كي لا تفر مني دموعي:
- هصلي ركعتين شكر، بس إنت تقوم.

شعرت بحركة عند الباب، فالتفت وراني لأتبين مصدرها.

وجدت طبيبًا شابًا هزيلًا، يقترب مني ويهمس بغضب:
- مواعيد الزيارة انتهت يا آنسة.

مسحت عيني، وهمست إلى نوح بوعد أن أقابله غدًا، ثم خرجت
من الغرفة، وبقيت عند الزجاج أنامله من خلفه، ولكن الطبيب صاحب
الشعر المعقود للخلف كذيل حصان جذب الستائر ليحجب عني
الرؤية تمامًا.

فظا!

زفرت بضيق وسرت بضع خطوات فرأيت صلاح يقف في آخر
الممر منشغلًا بالتسامر مع شكرية التي تضحك بغنج، وتعرض عليه
كوبًا به مشروب ما.

ذكرني هذا بأنني تركت كوبي الحراري على الأرض بجوار
السري، فعدت إلى الغرفة.

وجدت الطبيب موليًا ظهره نحو الباب وفي يده حقنة كاد يدسها
في وريد نوح، ولكنه تراجع بمجرد أن انتبه لدخولي إلى الغرفة.

التفت إليّ وصاح فيّ بغضب:

- مش قلتك مواعيد الزيارة انتهت؟

- نسيت حاجة.

حملت الكوب عن الأرض وأنا أتفقد نوح بنظري، فانتبهت إلى
أن قناع الأكسجين مرفوع عن وجهه والإبرة المتصلة بالمحاليل
منزوعة من ذراعه ومقياس التأكسج النبضي لم يعد معلقًا بإصبعه،
ثم لمحت الطبيب يلقي الحقنة الفارغة في جيب البالطو الأبيض
الواسع.

أسرعت أثبت قناع الأكسجين على أنف نوح، ثم وقفت بينه وبين الطبيب المريب الذي صاح في بارتباك جعل أصابعه ترتجف:
- بتعملي إيه؟

فتحت غطاء كوبي الحراري، وطرحت عليه سؤالاً سيحدد إن كان شكلي في محله أم لا:

- مش خطر ترفع الأكسجين عن واحد لسه عامل قلب مفتوح؟
- إنتي هتفهميني شغلي؟ هي دي أول عملية قلب مفتوح أتابعها؟

أي طبيب هذا الذي يخلط بين مريض أجرى جراحة في المخ ومريض أجرى عملية قلب مفتوح؟ أي طبيب هذا الذي يملك الوقاحة ليقبض على مرفقي الآن بعنف شديد، ويهمس إليّ بتواعد إجرامي:

- اطلعي قبل ما...

ألقيت اليانسون المغلي في وجهه قبل أن يتم جملمته، فصاح متفاجئاً من ردة فعلي.

لم أمهله أن يستوعب ما فعلته، استخدمت الكوب المعدني الثقيل لضرب وجه الطبيب المزيف، حتى انكسر مقبضه، وسقط الكوب على الأرض، محدثاً جلبة عالية.

حملت الكرسي الذي كنت أجلس عليه بكل ما فيّ من قوة وألقيته عليه، فسقط على الأرض يئن من هجومي المباغت عليه. ألقىت بنفسي فوق بدنه الضئيل من دون أي تخطيط، لم يهمني

سوى ألا أدع له فرصة لاستكمال مهمة قتل خطيبي، ولكنه كان أسرع مني.

أخرج من فمه نصف موسى مشطور، فرفعت مرفقي تلقائياً لأحمي وجهي فأصاب معصمي بدلاً من خدي.

لم أنهض من فوقه، بدني كان ساخناً ومهتاجاً، إلى درجة أنني لم أشعر بالألم من هذا الجرح الغائر فأمسكت يده حتى لا يمزقني بموساه الحاد.

ركل بطني حتى يتخلص من قبضتي، ولكنني تماسكت حتى لمحت صلاح يقتحم الغرفة أخيراً ويدعس بقدم يد القاتل التي تحمل الموسى، ويضع القدم الأخرى فوق عنقه، وقتها فقط سمحت لنفسي بالنهوض والإسراع صوب نوح لأنأكد من سلامته تاركَةً خطأً ربيعاً من دماء جرحي على الأرض.

لَكم صلاح الطبيب المزيف، ثم صفعه صفعة دوت طرقتها في الغرفة، بينما دخلت شكرية وهرعت إليّ لتتفقد جرحي النازف وهي تقول:

- عمل فيكي إيه ياخشى!

صرخت وما زال الأدرينالين يسيطر على أفعالي المستثارة:

- كان عايز يدي نوح حقنة هوا.

أسرعت شكرية تتفقد وظائف نوح، بينما صفع صلاح القاتل الهزيل صفعة أخرى أفقدته وعيه، وقال:

- عايز تقتل عم عيالي في وجودي؟

راح بنعت القاتل المُغشى عليه بالفاظ أخجل من سماعها، إلى
درجة أن شكرية شهقت، وعلقت بنبرة سوقية:

- ما خلاص يا صلوحة باشا، ما يصحش تقول الألفاظ الوسخة
دي قدام الحريم.

رفعه عن الأرض من قفاه، وقال ملاعبًا حاجبيه لشكرية:
- لا مؤاخذه يا شكشك. ثانية، أسلم الكلب ده للقسم وأرجعك.
ضحكت بدلال وهي تعيد إبر المحاليل، وتتفقد نبض نوح
ومقاييس وظائفه الحيوية، بينما يغادر صلاح.

أمسكت يده، ثم سألتها وقد بدأت أشعر بحرارة شديدة وخدر
في منطقة جرحي:
- هو كويس؟

- ياخشي زي الفل، ما يقاش قلبك قلب خساية كده، هروح
أنادي الدكتور.

بمجرد أن خرجت، شعرت بأصابعه تضغط على يدي، ثم بدأ
يفتح عينيه ببطء.

ذرفت دموع الفرح وأنا أتأمل وجه حبيبي الذي ينظر إليّ بحنان
كأنه يحدثني بعينه، فقبلت باطن كفه بشوق.

عادت شكرية في رفقة طبيب كهل تحكي لي تفاصيل ما حدث،
وعن بطولة صلاح الخارقة في القبض على المجرم.

سألني من أكون، ثم نصحني بالإسراع لخطاطة جرحي، ولكنني
آثرت البقاء معه وهو يتفقد مؤشرات نوح الحيوية، ويضرب كشافًا
صغيرًا في عينيه ليتابع حركة مقلتيه مع النور، ثم أمره بنبرة جافة:

- لو سامعني كويس غمض عينيك وافتحها ثاني.
أغلق عينيه وفتحهما على مهل، فزادت فرحتي، لكن الطبيب
الحق أمره الأول بأمر ثان:

- لو فاكرا اسم خطيبتك، غمض عينيك وافتحها ثاني.
لم يحرك نوح جفنيه، ظل ينظر إليّ بعينه الناعستين، وارتسمت
ابتسامة محبة على شفتيه المجروحتين، فأدركت وبكل أسى أن زوجي
المستقبلي نسي اسمي.



@ART_OF_BOOK

أتعرف ماذا قيل لأوديب حين سأل مستشاره كيف يجد قاتل الملك لا يوس؟

قيل له إن الآلهة تبلغك حكمتها: «ابحث، تجد». وهانذا أبحث منذ أمس عن القاتل الذي تسبب في اصطفاقنا الآن في المسجد لنصلي صلاة الجنازة على الشاب خالد، ثم ندفنه تحت الثرى ليجاور زوجته وأولاده في مستقرهم الأخير، بينما تبكيه شقيقته، وتتوسل إلينا لنقتصر لدماها أخيه.

عدت من المقابر إلى المستشفى وأنا أدعو الله ألا يلاقي نوح مصير الشاب خالد نفسه، وأن يستفيق من غيبوبته سالمًا معافي. أمضيت اليوم بين مراقبة نوح، ومتابعة ما توصل إليه وليد وعمر وفي المباحث وتقارير الطب الشرعي التي شاركها معي حسني المستكاوي أولًا بأول.

آخر تقرير قرأته أشار إلى أن الدم على مخالب القط الذي وجدوه مفتولًا سحقًا في مطبخ الكول ستر، والدم على شوارب الهريرة

الصغيرة التي وجدها صلاح ولفها في قرطاس، يتطابقان مع الحمض النووي الخاص بهادي الحكيم، ولكنه لم يتطابق مع الدم والأنسجة التي جمعها نوح تحت أظفاره إثر مقاومته للمجرم الذي أطلق عليه الرصاص.

نملك الآن الحمض النووي لمتتحل هوية وكيل النيابة، ولا نجد ما يطابقه، ونملك أوصافه التي عمت على الكمائن والأقسام، ولم تصل إلينا إخبارية واحدة عنه، كأننا نطارد شبحًا.

ليتني كنتُ نوح، آخذ ليمونة، وأقف في شرفة الكول ستر، وأشقها إلى نصفين فتظهر لي روح الشاب خالد، وتحكي لي ما حدث له هو ونوح بدقة فأجد في كلامه تفصيلاً توصلني إلى قاتله. ليتني نوح حقًا، فلو كنت أنا الضحية لوجد قاتلي ببراغته المعهودة، وما كان ليسمع لمشاعر الذنب والتخاذل والعجز أن تشتت عن التفكير كما يحدث معي الآن.

زاد توترني من الأفكار المرهقة التي تعيث الفساد في رأسي، ومن حضور أبي في الصباح الباكر إلى الممر الذي أطل منه على نوح في سريره من وراء الزجاج. وقف إلى جوارني ينتحني، فألقيت عليه تحية ردها بفتور، ثم ساد صمت لا يصح أن يطول بين الابن وأبيه، فقلت له:

- أجيّب لحضرتك قهوة معايا؟

أوما إليّ بالرفض، فاستأذنته وتركت الممر بكل ما فيه من توتر وإرباك، ونزلت إلى كافيتريا المستشفى.



طلبت كوبًا من الكاكاو الساخن، فأخبرني عامل البوفيه بأنه لا يملك الكاكاو بنبرة يلوثها الاستهزاء.

طلبت كوب شاي بالحليب، ووقفت أنتظر استلام طلبي وأنا أحرق إلى الوجوه من حولي، حتى لمحت طنط سعاد جالسة بمفردها إلى طاولة تقرأ في مصحفها، وأمامها كوب يخرج منه بخار. أخذت مشروبي وانضمت إليها، فانتبهت لي وأنا أجز الكرسي المقابل لها وأسألها مما زحًا:

- مستخية من تبة إحسان؟

أغلقت المصحف، ووضعت جانبا بابتسامة مرهقة، وقالت:

- مستخبي من أبوك؟

شاركتها ضحكاتها المجعدة، وراقبتها وهي تشرب من كوبها الذي تفوح منه رائحة النعناع، ثم قررت أن أشاركها ما يشغل بالي منذ أمس:

- إيه اللي حصل يوم الجمعة يا طنط وخلاكي تتصلي بنوح؟

اغرورقت عينها بالدموع بمجرد أن نطقت اسمه، فربت على كفها الدافئة. مسحت دموعها بطرف حجابها، وقالت بنبرة متماسكة:

- اتخانقت مع عاطف.

أتعرف أن الفص الأيمن لمحك هو المسؤول عن الشق الإبداعي والتخيلي لديك، مما يجعل مقلتيك تميلان إلى اليمين حين تريد اختلاق حكاية، كما فعلت طنط سعاد الآن وهي تجيب عن سؤالي؟ شعرت بالارتياح تجاهها، ووجدت عقلي يدفعني إلى معاملتها معاملة المشتبه فيه. لم أستجوب في حياتي مشتبهًا فيه بمفردي،

اعتدت ممارسة لعبة «الشرطي الصالح والشرطي الطالح» مع نوح لدفع المستجوبين إلى الاعتراف، ولكن بما أنني أحمل الآن على عاتقي مهمة الوصول إلى الحقيقة بمفردي سأضطر إلى لعبة جديدة، لعبة «الشرطي الثرثار».

ارتشفت الشاي لأرتب أفكاري، ثم قلت لها بنبرة مهمة:

- إنني معمولك عمل.

- مع إني والله يا قطز محصنة نفسي، ويمسح كل يوم بمية بملح. أنا مش عارفة الناس هيفضلوا حاطيني أنا وولادي في دماغهم لحد إمتى.

- ياريتها على قد ولادك يا طنط، ده ابن أختك اتضرب بالنار في الصحراوي وابن حبيبة اتقتل عند سور النادي، وحبيبة نفسها اتسمت وأديكي شايفة حالة نوح، وكمان جوز حبيبة حولوه على الخانكة.

لم تنظر إلى اليمين، نظرت إلي مباشرة واتسعت حدقتها، ويبدو أنها صُدمت صدمة حقيقية مما قلته. تركت المشروب من يدها، وقالت:

- حبيبة ماتت مسمومة؟

أريكني تعليقها، هل تسئم حبيبة صادم بالنسبة إليها أكثر من أنها كانت متزوجة من قاتل مأجور؟

- حضرتك ما كتتش عارفة؟

- وأنا لو أعرف إن فيه شبهة جنائية في موتها مش هلعجالك يا قطز؟

- ولا كنت تعرفي حوار سالم؟

طلبت كوبًا من الكاكاو الساخن، فأخبرني عامل البوفيه بأنه لا يملك الكاكاو بنبرة يلوثها الاستهزاء.

طلبت كوب شاي بالحليب، ووقفت أنتظر استلام طلبي وأنا أحرق إلى الوجوه من حولي، حتى لمحت طنط سعاد جالسة بمفردها إلى طاولة تقرأ في مصحفها، وأمامها كوب يخرج منه بخار. أخذت مشروبي وانضمت إليها، فانتبهت لي وأنا أجز الكرسي المقابل لها وأسألها مما زحًا:

- مستخية من تبة إحسان؟

أغلقت المصحف، ووضعت جانبا بابتسامة مرهقة، وقالت:

- مستخبي من أبوك؟

شاركتها ضحكاتها المجعدة، وراقبتها وهي تشرب من كوبها الذي تفوح منه رائحة النعناع، ثم قررت أن أشاركها ما يشغل بالي منذ أمس:

- إيه اللي حصل يوم الجمعة يا طنط وخلاكي تتصلي بنوح؟

اغرورقت عينها بالدموع بمجرد أن نطقت اسمه، فربت على كفها الدافئة. مسحت دموعها بطرف حجابها، وقالت بنبرة متماسكة:

- اتخانقت مع عاطف.

أتعرف أن الفص الأيمن لمحك هو المسؤول عن الشق الإبداعي والتخيلي لديك، مما يجعل مقلتيك تميلان إلى اليمين حين تريد اختلاق حكاية، كما فعلت طنط سعاد الآن وهي تجيب عن سؤالي؟ شعرت بالارتياح تجاهها، ووجدت عقلي يدفعني إلى معاملتها معاملة المشتبه فيه. لم أستجوب في حياتي مشتبهًا فيه بمفردي،

اعتدت ممارسة لعبة «الشرطي الصالح والشرطي الطالح» مع نوح لدفع المستجوبين إلى الاعتراف، ولكن بما أنني أحمل الآن على عاتقي مهمة الوصول إلى الحقيقة بمفردي سأضطر إلى لعبة جديدة، لعبة «الشرطي الثرثار».

ارتشفت الشاي لأرتب أفكاري، ثم قلت لها بنبرة مهمومة:

- إنني معمولك عمل.

- مع إني والله يا قطز محصنة نفسي، ويمسح كل يوم بمية بملح. أنا مش عارفة الناس هيفضلوا حاطيني أنا وولادي في دماغهم لحد إمتى.

- ياريتها على قد ولادك يا طنط، ده ابن أختك اتضرب بالنار في الصحراوي وابن حبيبة اتقتل عند سور النادي، وحبيبة نفسها اتسمت وأديكي شايفة حالة نوح، وكمان جوز حبيبة حولوه على الخانكة.

لم تنظر إلى اليمين، نظرت إلي مباشرة واتسعت حدقتها، ويبدو أنها صدمت صدمة حقيقية مما قلته. تركت المشروب من يدها، وقالت:

- حبيبة ماتت مسمومة؟

أريكني تعليقها، هل تسئم حبيبة صادم بالنسبة إليها أكثر من أنها كانت متزوجة من قاتل مأجور؟

- حضرتك ما كنتيش عارفة؟

- وأنا لو أعرف إن فيه شبهة جنائية في موتها مش هلعجالك يا قطز؟

- ولا كنت تعرفي حوار سالم؟

- هي تصرفاته كانت غريبة، وكنت بقول لحبيبة إنه مش مترن، لكن هو بصراحة عمره ما آذاها. بس أنا فاهمة أنه ممكن يتحول على الخانكة بسبب صدمة اللي حصل لابنه ومراته.
- سالم ما اتحولش على الخانكة عشان جتله صدمة نفسية يا طنط، سالم طلع قتال قتلة.

ارتعش ذقنها، وفاضت دموعها في صمت من دون نشيج مسموع، فلان قلبي لحالها، ونهضت مسرعاً عن مقعدي، واقتربت منها أريت على كتفيها، وأخرج لها منديلاً من جيبي.
- أنا آسف يا طنط، ما تخيلتش إنك فعلاً مش عارفة.
دفعت يدي عنها، وصاحت في:

- يعني هعرف إن بنت أختي البتيمة المسؤولة مني متجوزة سفاح وهسكت يا قطز؟ ما تعقل سؤالك هي نقصاك!
نهضت عن الطاولة تضم مصحفها إلى صدرها، وتركنتي مخلقة لديّ خليطاً من الخجل لفظاظتي معها، والارتباب منها، فأنا أعرفها بما يكفي لأنأكد من أنها تصبح فقط لتغطي على سر تعرفه.

أتعرف أن مستشفى قصر العيني تأسس في العام نفسه الذي مات فيه بيتهوفن؟

لا أعرف الغرض من أن يربط عقلي هاتين المعلومتين العشوائيتين ببعض الآن وأنا أقف في الشارع أسترق سيجارة بعدما قابلتني دليلاً وأسرتها قبل ميعاد زيارة نوح ببضع ساعات.
نهشت شمس الظهيرة الحارقة فروة رأسي وأنا أنفث دخاني أمام

الصرح الطيبي الذي يقارب عمره المائتي عام، ثم أنهيت السيجارة قبل أن ينهي صهد الصيف عليّ.
نلت حولي باحثاً عن سيارة أجرة بيضاء تعيدني إلى بيني لأستحم وأغير ثيابي التي لطلخها تراب المقابر، ولكن استوقفتني نداء اللواء رشوان وهو يقترب مني قائلاً:

- إنت ما روحتش بيتكم من إمبراح؟
- ما أنا المرافق معاه.

- لازم تريحلك شوية، نوح هيجتاجك أكثر لما يفوق ويعدين أنا وأبوك موجودين.

- أنا كنت ماشي بس بما إني شفت حضرتك، فأنا حابب أعرض عليك حاجة. أنا عايز أمر من النيابة بتفتيش بيت ومصحات عاطف الهمشري. الراجل ده له يد في اللي حصل لنوح.
قام بحركة لا يقوم بها إلا إذا كان غير مقتنع بوجهة نظر محدثه، حك طرف ذقنه المدبب، ثم لوى الجانب الأيسر من فمه فيما يشبه نصف ابتسامة، وقال:
- اقنعني بفرضيتك.

- أنا مطبق طول الليل على تقارير موقع الجريمة. الطب الشرعي ما لقاش في الكول مستر سلاح نوح، وقائمة كاميرات وأدوات الشاب خالد ناقص منها كاميرا ديجيتال «Fireproof» ماركة كانون. ده معناه إن القاتل خد السلاح الميري والكاميرا. أنا بقي حاسس إننا لو فتشنا بيت عاطف ومصحاته هنلاقيهم عنده.
هز رأسه بهدوء، ثم مال إليّ، وعلق هامساً:

- هو أمر التفتيش بيطلع من النيابة بالإحساس يا قطز؟

شعرت بسذاجة طلبي وغباء تبريره حين صاغه بهذه الطريقة.

أغمضت عيني حتى أمتطق أفكارى، ثم قلت:

- شقة الكول ستر ملك عاطف، وهادي اللي قتل كل موظفين

شيفت الليل متصور معاه.

- وليلى علوي متصورة مع هادي، أطلع أمر ضبط وإحضار ليها

هي كمان؟

أدركت أن لا فائدة من محاولة إقناعه، لماذا أريد مباركته من

الأساس، لو كان نوح هو الذي يحقق في هذه القضية لانطلق وحيداً

متحدياً جميع السلطات والأوامر، حتى يحقق العدالة لصديقه.

- مفهوم يا سيادة اللوا. أنا هعمل تحرياتى عنه و...

- إنت مش هتعمل حاجة غير إنك هتستجده مع أهل صاحبك

لحد ما نتظمن عليه. إياك تتصرف في القضية دي من غير ما

ترجعلى، مفهوم؟

- مش فاهم أوامرك!

زفربيطء، ثم قال بنبرة أقل حزمًا:

- القضايا اللي بيتحقق فيها بالعواطف مش بتتحل، الدوافع

الشخصية بتعطل العدالة، وأديك شُفت واحدة زي فتون لما

اناخرنا في إننا نجيب حقها مصيرها كان إيه، عايز الدكتوراة

سعاد تقابل نفس المصير؟

فتحت باب شقتي في الطابق الأرضي، فرحبت بي رائحة شواء

ريش لحم الضأن، واحتضنتني صوت آسيا وهي تدندن مع شادية أغنية «آه يا أسمراني اللون».

خرجت من المطبخ، واستقبلتني بجرعة حنان تتناسب مع قدر

الإحباط الذي لم أحاول إخفاءه عنها. عانقتني فالتصق عطرها المثير

بأنفي، وسألتني عن سبب أذيال الخيبة التي أجراها خلفي، وأنا أخلع

حذاثي عند المدخل، وأضعه جانباً وألقي نفسي على مقعدي المفضل

في الصالة قبالة صورة زفافنا البسيط الذي أقمناه نهاراً على شط البحر

الأحمر في مدينة العين السخنة وسط أصدقائنا وأحبائنا، وجميعنا

نرتدي ملابس صيفية بيضاء.

فتحت لي المكيف، ووقفت خلفي تدلك كتفي وعنقي وهي

تنصت إلى شكواي وقلقي اللذين لا أضطر إلى كبتهما أمامها،

فواستني وطببت خاطري، ورفعت معنوياتي، ثم شاكستني، وقبلتني،

وأغرقتني بمحبتها حتى أنانا صوت طاهر.

أتى يركض من غرفته حاملاً دفتر رسوماته وقلم تلوين أزرق،

ووثب أمامي وهو يناديني بمخارج حروف طفولية تجعله يسيء

نطق اسمي تمامًا:

- تُطز، تُطز، تُطز رَسْمَتِكَ.

اضطرت إلى أن أظهار بأن عالمي لم ينقلب رأساً على عقب،

في الحقيقة، كنت بحاجة إلى هذا التظاهر البريء.

حملته بمحبة، وأجلسته على حجري وأنا أسأله بفضول عن

تفسير رسمته.

ابتسمت حياتي ابتسامة المحها على وجهها الجميل كلما رأته

منسجماً مع طاهر، ثم طبعت قبلة على خد كل منا، وعادت إلى إعداد الغداء في المطبخ.

أراني خطوطاً ودوائر سريرية تشكّل بورتريه عائلياً لي أنا وأمه وجدته، جاعلاً أنفي البارز يحتل نصف مساحة الورقة، فضحكت على هذه اللمسة الكوميديّة. يبدو أن صغيرنا سيصبح رساماً كاريكاتورياً.

أنصت إلى تفسيره لفنّه وأنا أمدد ساقي فوق طرف الطاولة الخشبية المنخفضة المزينة بالريزن الأخضر، مقلّداً نظري بين مكتبتنا التي نسقتها تنسيقاً يعجز أمهر أمين مكتبة عن تنسيقها، وبين شرفتنا المطلة على أشجار كثيفة تعزلنا عن المنظر الصحراوي للأرض الفضاء المقابلة لعمارتنا.

رائحة طعامي المفضل تسيطر على حواسي، وهواء المكيف يروح عن جلدي حرارة اليوم، ومقعدي الوثير يضمّني بنعومة، ورأس طاهر الصغير مرتاح على صدري، وقلبي يسكنه صوت شادية المفرط في حساسيته وصدقه وهي تغني كلمات الأبنودي على ألحان بليغ حمدي.

اعتادت أُمّي أن تغني هذه الأغنية لنوح في طفولتنا بحكم أنه أسمر، فأغار لأن ما من أغنية تقول «آه يا أبيضاني اللون»، حتى أخبرنا جدو حسين الألفي ذات سهرة أسرية بأن شادية تغني هذه الأغنية بشجن شديد، لأن كلماتها تذكرها بحبها الأول لجارها الذي كان شاباً أسمر وسيماً، لكنه مات في حادث مأساوي، لهذا تكاد تسمع قلبها يبكي وهي تقول:

جونبي... سألوني
جاوبتهم عني دموع عيني

حين أدركت طنط سعاد أن هذه الأغنية تُعدّ مريّة وليست غزلاً عفيفاً في الرجال السمر، أجبرت أُمّي على أن تقسم لها إنها لن تغنيها مجدداً لنوح، لأن هذا فال شؤم قد يجعله يلقي مصير حبيب شادية الأول.

ربما كانت طنط سعاد على حق.

أغمضت عيني، وشعرت للحظة بأن كل شيء على ما يرام، ولكن سرعان ما تنبّهت غريزتي إلى أن هناك خطراً يهدد أمن أسرتي.

اخترقت رصاصات غادرة زجاج شرفتنا.

تلقى طاهر رصاصة في رأسه فمات من دون صراخ، ركضت آسيا نحونا فأصاب الرصاص عنقها، وسقطت على الأرض، ورأسها بين قدمي.

حاولت النهوض، لكنني لم أقو على التحرك، كأن جلدي خيط بقماش المقعد، صرخت مستغيثاً ولكن صوتي لم يخرج، فقدت التحكم في جسدي.

خفت صوت شادية، وسكن كل شيء، ثم اخترق الصمت صوت يقول من ورائي بلغة عربية فصحيّ بليغة المخارج وبأداء مسرحي شديد الدرامية:

- أكون أو لا أكون، هذا هو السؤال!

عرفت صاحب الصوت من دون الحاجة إلى الالتفات لرؤيته، هذا نوح.

أتى من ورائي مرتدياً ملابس ضيقة من القطيفة السوداء كالتي
يرتديها نبلاء البلاط الأوروبي، ويتدلى من خصره سيف في غمده،
وفي يده اليسرى جمجمة.

مال إليّ مستنذاً بكفيه إلى مسند ذراع مقعدي، ثم همس إليّ كأنه
يبوح بسر خطير:

- الشيء الذي يبدو جلياً ليس دائماً كما يبدو.

جاهدت لأنكلم، ولكن لم تتحرك شفتاي، خصوصاً أنني تفاجأت
بدماء تنفجر من حيث لا أدري وتغرق وجهي، فأغمضت عينيّ
سريعاً.

سمعت صوت سقوط شيء على الأرض ففتحت عينيّ، وتفاجأت
بأن عاطف ظهر من العدم، ويقف أمامي ببذلة شديدة التكلف التي
رأبته بها في المستشفى، ووجهه ملطخ بالدماء مثلي، ويمسك سيفاً
يقطر دماً.

نظرت إلى الأرض، وجدت بدن نوح ملقى إلى جوار آسيا بلا
رأس، لأن رأسه الذي قطعه عاطف بسيفه هوى على حجري، ولكنه
ما زال حيّاً، ويهمس إليّ بهدوء مرعب:

- لا تثق بما تراه يا رفيقي.

تمكنت أخيراً من الصراخ فانتعقت من هذا الكابوس الشكسيري،
وانتفضت ألّهت قائلاً:

- هاملت!

ضحك طاهر الجالس بسلام على حجري، وخرجت آسيا من
المطبخ تسألني بحنان:

- بتقول حاجة يا حياتي؟

تلقت حولي، زجاج النافذة سليم، والطيور ما زالت تغرد بين
أغصان الشجر خارج الشقة، وظاهر يرسم على كفي باللون الأزرق،
وشادية لم تنتو بعد من رثاء حبيبها الأسمر.

* * *

الإرهاق، والارتباك، وعدم وصولي إلى تفسير واضح لرمزية
كابوسي المرعب، حرمتني من الاستمتاع بوجعتي، فاضطرت إلى
افتعال التمتع بشفتي بلذة شاكرًا مجهود حياتي.

ساعدتها على لملمة الأطباق وغسلها، ثم خرجت إلى الشرفة
موصداً بابها خلفي، حتى لا يتسلل دخان سجائري إلى طاهر وأنا
أحاول إيجاد عنصر مشترك بين هاملت ونوح غير أن كليهما يحدث
أرواح الموتى.

لضمت سيجارة في الأخرى، بينما أقلب صفحات دفتر نوح،
وأراجع تفاصيل الجريمة حدثاً حدثاً.
لم يذكر عاطف إلا في جملة واحدة.

الشقة ملك الدكتور زفت

فتحت هاتفني، أحرق إلى الاسكيتش الذي رسمه فادي للقاتل
اللعين!

- صورة مين اللي سرحان فيها دي؟

أجفلت حين سمعت صوت آسيا تطرح عليّ هذا السؤال من دون
أن أشعر بدخولها الشرفة.

مدّت يدها إليّ بكوب كاكاو تحترف إعداده وتضيف إليه قطعاً من المارشملو كان نوح ليجعل مني مسخرته إذا رأيته وأنا ألثمها الآن بمتعة طفولية.

- اللي انتحل شخصية وكيل نيابة.
- وده مش لاقينه إزاي لحد دلوقتي؟ ملامحه مميزة جداً.
- هلاقيه، أنا بس محتاج أركز عشان أعرف أبداً منين.
- إنت في العادي بتبدأ منين؟
- نوح اللي بيبدأ. هو يلاقي أول الخيط وأنا أضمهوله.
- تركت كوب الكاكاو، وأسندت مرفقيّ إلى ركبتيّ، ثم ألقيتُ رأسي بين كفيّ وأنا أقول:
- أنا عمري ما اشتغلت في قضية من غيره. ما كنتش أعرف إني فاشل كده.

قالت وهي تستند بذقنها إلى كتفيّ:

- هو فيه فاشل كان هيقدر يحل قضيتي لوحده؟
- ابتسمت لها ممتناً، فمسدت أطراف شعري بأصابعها وهي تضيف:
- تيجي نحقق في القضية دي كأنها رواية من اللي بنقرأهم؟ لو إنت مسيو دويين كنت هتعمل إيه؟

مسيو دويين هو بطل أول نوفيلا بوليسية كتبت في التاريخ، وعلى عكس انبهار أغلب كتّاب الجريمة بهير كيول بوارو الذي ابتكرته أجاثا كريستي، أو بشرلوك هولمز الذي صنعه آرثر كونان دويل، اختارت آسيا شخصية مسيو دويين التي خلقها إدجار آلان بو لتصير متيمة بطريقة تفكيره وأسلوب تحقيقه.

أومأت إليها بالموافقة فسألتني:

- إنت والقاتل ما اتكلمتوش في أي حاجة قبل الحادثة؟
- ضيق عينيّ كأن هذا سيساهم في تنشيط ذاكرتي لاسترجاع كل تفصيلة خزنتها عن رياض السعيد. لم أذكر إلا تفصيلة واحدة مخزية، ولكني لا أخجل من التفكير بصوت عالٍ مع حياتي:
- قالي إنه جرب بيتزا من فرن تحت العمارة، فضل يسب ويلعن في اللي عملها.
- هو شخصية انفعالية؟
- بالعكس، لوح تلج. بس حوار البيتزا ده بالذات عصبه، وفضلنا نتكلم فيه ييجي عشر دقائق.
- في العشر دقائق دول، قالك إيه بالظبط اللي مش عاجبه في البيتزا؟
- سُمك العجينة ودهون الجبنة، وتقريباً طعم الزتون.
- ده رأي مفصل جداً. رأي واحد حريف أكل يعني.
- حياتي على حق، لم يكن رأياً عابراً ولا انفعالاً طبيعياً لرجل لم يستغ مذاق طعامه.
- قلت لها بتركيز أكبر:
- ما كانش متضايق بس من الطعم، اتضايق من اسم المطعم كمان.
- لمعت عينها من فرط التشويق، وقالت وقد تقمصت دور مسيو دويين:
- إيه اللي ضايقه في الاسم بالظبط؟
- إنه مسروق... مسروق من مطعم بيتزا إيطالي في الزمالك اسمه

نابوليتانا! اللي يتكلم عن مطعم بالشغف ده أكيد هيقى عامل لايك أو فولو للبيدج بتاعته.

قرصت ذقني، وقالت بلطف عنيف:

- شُفت بقى، أدبك وصلت لبداية الخيط لوحذك. هجيب موبايلى وندور عليه وسط بروفيلات اللي عاملين لايك. إنت ابدأ بالفيسوك، وأنا هشوف إنستجرام.

نهضت لتحضر هاتفها، بينما أبحث عن الصفحة الرسمية للمطعم على الفيسوك.

وجدتها وبجوارها علامة التوثيق الزرقاء، وتفقدت عدد المتابعين، كان يزيد على مائتي ألف.

قبل أن أتخيل كم ساعة ستستغرق عملية بحثي هذه، وجدت منشورًا مثبتًا في بداية الصفحة، كان فيديو ترويجيًا يعد الزبائن بمذاق البيتزا النابولية الأصلية، كأنك تأكلها في مدينة نابولي، وإذ بي أجد في أول لقطة للفيديو وجهه وهو يخبز العجين باحترافية باهرة، وابتسم ابتسامة واسعة.

كان الشعر يملأ رأسه، وذقنه حليقًا، وليس أصلع، وله لحية خفيفة كما رأيته في موقع الجريمة، ولكنه كان هو، القاتل متتحل شخصية وكيل النيابة ليس زبونًا معتادًا لمطعم نابوليتانا، إنه الطاهي!

وصلت أنا ووليد وأمين شرطة وبضعة عساكر، إلى مطعم نابوليتانا الذي يحتل الطابق الثاني من عمارة عريقة تطل على نيل منطقة الزمالك.

صعدنا بهدوء من دون أن نفرع المدنيين، وحام نظري بين الطاولات، ثم وقفت عند نافذة كبيرة تكشف المطبخ، وتعرض حركة الطهارة وهم يعدون الصلصة، ويخزون البيتزا، ويلقونها بمهارة داخل الفرن، ثم يضعونها في أطباق التقديم، ويتركونها على نضد رخامي يجاوره جرس، يرنه الطاهي فيأتي النذل ليوصلوا الطلبات إلى أصحابها.

قلبت عيني بين النذل والطهارة والمحاسب والمضيف والرجل النحيل الذي يبدو من اختلاف زيه ومن نظراته الفاحصة أنه مدير المطعم، ولكني لم أجد قاتل الشاب خالد والمعتدي على نوح بعد. أقبل علينا المدير بابتسامة صاحب بيت يستقبل ضيوفه، حتى انتبه إلى كعب الطبنجة المتدلية من حزامي وحزام وليد وزبي العساكر الميري، فانقبضت ملامحه الكرتونية ووقف أمامنا، ويداه خلف ظهره، وهز رأسه هزة متييسة وقال:

- نورتوا نابوليتانا. أقدر أخدم البهوات بيايه؟

- فين الشيف ده؟

أريته صورة القاتل التي تتصدر منشورات صفحتهم من على هاتفني، فألقى نظرة سريعة عليها وقال:

- الشيف رياض رزق؟

القاتل اللعين لم يتكبد عناء اختلاق اسم مزيف وهو يخادعنا، اسمه الأول حقًا رياض.

- سافر يعمل عمرة، ولسه ما رجعش.

همس وليد إليّ بأنه سيفتش المكان ليتأكد من صدق المدير،

ثم راح هو وأمين الشرطة يتفقدان المنطقة الخلفية للمطعم، بينما أقول:

- يعني آخر مرة شُفته هنا كانت إمتى بالظبط؟

- الخميس المغرب، كان بيوصي الشيف اللي هياخد مكانه طول أجازته على تفاصيل المطبخ، وبعدها راح يودع أخوه. هو ساكن في شقة قريبة من هنا.

عاد وليد يومئذ إليّ بأنه لم يجد رياض، فزفرت بضيق، ولكن المدير تطوع قائلاً:

- أدلك على عنوان أخوه؟

وجدنا القاتل حليق الرأس والذقن في شقة أخيه في الزمالك. يبدو تمامًا كما رأيته في عمارة سيف الدين منذ ليلتين، الفارق أن بطنه منتفخ، وجلده أخضر مائل للأسوداد، وحول عنقه بقع من الدماء الجافة المتجلطة إثر تعرضه للذبح بآلة حادة، يدفعني عمق الجرح وعرضه إلى استنتاج أنها سكين مطبخ.

نحن نفق أمام رياض الذي أصبحت جثته مرتعًا للذباب الذي يضع بيضه عليها.

خرج وليد من الشقة بحجة جمع شهادات الجيران، لكنني أعرف يقينًا أنه لم يحتمل رائحة التحلل التي عبقت المكان.

وصل حسني المستكاوي وفريقه لنقل الجثة، ورفع الأدلة من موقع الجريمة.

لقد انتهت من هذا الكابوس المقيت، وانعتقت من هاجس أن

يعود رياض ليستكمل مهمة قتل نوح، يمكنني أن أقول لشقيقة الشاب خالد إن القاتل يحاسب الآن على آثامه.

أتعرف، حاولت أن أتنفس الصعداء، ولكن تحشرجت أنفاسي، قلبي لم يطمئن تمامًا بعد!

اتصل بي صلاح مرتين، فخرجت من الشقة، ووقفت بجوار وليد لألتقط نفسًا لا يلوته تعفن القاتل الدنس وأنا أجيبه:

- عايز إيه؟

- فيه عيل ابن حرام حاول يقتل نحنوحه، بس العبد لله اداه واحد زيريو في الديريكس جاب أجله.

لم أفهم مصطلحات المصارعة المستوحاة من تعليق مذيع قناة الحلبة التلفزيونية، ولكنني فهمت أنه على الأغلب يقصد أنه سيطر على المجرم.

هرعت أنزل السلالم، ووليد يتبعني، ويستفسر مني عن سبب خطواتي القلقة وأنا أسأل صلاح:

- نوح حصله حاجة؟

- يا ابني بقولك كنت موجود، حد يستجري يثديكم وأنا موجود؟ لا أصدق أنني سأقول هذا، ولكنني حمدت الله على أنني أوصيت صلاح بالبقاء لحراسة نوح وأسرته حتى عودتي إلى المستشفى.

خرجت من العمارة، ووقفت أمام سيارة وليد في انتظار أن يفتح بابها، فلبى رغبتني من دون استفسار.

- فين اللي عملها؟

- مقرفص قدامي في القسم أهو.

- ثبته عندك، أنا في الطريق.

* * *

أتعرف أن اسم قطز يعني الكلب المسعور؟

حين اختطف التتار الأمير محمود بن ممدود بن خوارزمشاه في طفولته، قاومهم بشراسة غير متوقعة فأطلقوا عليه هذا اللفظ المغولي. افتخر بالاسم، ولم يغيره حتى بعد جلوسه على عرش مصر وقيادته لجيوش المسلمين لهزيمة التتار، لأنه رأى في الكلاب صفات حميدة كالشجاعة والوفاء لأصحابها، والشراسة عند اللزوم.

ويما أن لكل شخص نصيبًا من اسمه، فبمجرد أن أدركت أن المدعو حمادة عبد الخالق المائل أمامي هو الشاب الذي طلب من عاطف في المستشفى أن يغير مكان اصطفااف سيارته المرسيدس الزلموكة، كما وصفها، انقضضت عليه انقضاضة كلب شرس عزم على القصاص لصاحبيه.

لم أعقد العزم على التعدي عليه بدنيًا داخل مكتب اللواء رشوان في غيابه، وددت استجوابه بشكل متحضر أنا ووليد وصلاح، ولكنه تحذلق واستفز في عنفٍ لم أكن أعلم أنني أبطنه.

مارس علينا هذا الجرذ الأعيب ذهنية كالتى مارسها رياض على الفؤاش في أثناء استجوابه في الكول ستر. كرر أسئلتنا باندهاش، تظاهر بالغباء، طلب منا شرحًا وتوضيحًا لأكثر الأسئلة مباشرة، فانفلت غضبي، وحدت عن قضبان العقل والاحترافية، وارتطمت به ارتطامًا مدويًا يليق بمن دفن جثة زميله، وحمل بدن أخيه المدمى المصاب.

لا أذكر تفاصيل ضربي له، بخار الغضب الكثيف أعماني، حتى خلصه من قبضتي تجمع العساكر ووليد وصلاح عليّ.

نهضت ولا أدري من كان أمامي، أزحت الجميع عن طريقي، وقد تداخلت نداءاتهم وكلماتهم، ولا يزال المجرم عديم الضمير على الأرض يغطي بكفيه وجهه المصاب بحروق من الدرجة الأولى إثر إلقاء دليلة مشروبها المغلي عليه، كما حكى لي صلاح.

اندفعت نحوه مجددًا، فكان أول ما طالته يداي منه هو أذنيه العملاقتين لينهض عن الأرض.

شعرتُ بشيء من البلاهة وأنا أشده من أذنيه كأنني أستاذ يؤدب تلميذه البليد، فجذبتة بعنف من مرفقه، ورطمته بالحائط وهو يصيح ويستنجد ويقسم كذبًا إنه بريء، ولكنني قمْتُ بفعل جعله يخرس ويدرك جدية الموقف.

ضغطت على عنقه بفوهة طبنجتي من دون أن أرفع صمام أمانها، وسألته:

- عاطف اللي بعثك تقتل نوح؟

- عاطف مين؟

ضربته بكعب الطبنجة ضربتين متتاليتين؛ واحدة عند ذقنه، والأخرى عند أنفه، فنزف وتأوّه وهو يضغط على موضعي إصابتيه.

- عاطف اللي دبج رياض في شقته بعد ما خلص مهمته عشان ما يعترفش عليه، فكرك بعد ما قبضنا عليك مش هيخلص عليك قبل ما تفتح بؤك؟

رأيت الذعر في عينيه وهو يسألني:

- أنا بدأت أمسك أدلة عليه، لو وريتك الفيديو هتعرفني إنه...
 - إنه كان واقف قدام أوضة ماتت فيها واحدة مفيش شبهة جنائية
 في موتها أصلاً؟
 - عرفت منين إن مفيش شبهة جنائية؟
 - زمايلي في المستشفى قالولي يا قطز، زي ما زمايلك الظباط
 بيقتعدوا يحكوا معاك. هو تحقيق ولا إيه؟
 لم بتوقف عن النظر إليّ بصمت مُدين، فزفرت وكنت سأنهض
 لأخرجه من المكتب وأنهى هذا النقاش الذي لن تحمد عقباه، ولكنه
 مال إليّ وقال:
 - عاطف مهددك بإيه؟
 - يادي النيلة! هو شغل المباحث لحس دماغك يا ضنايا؟
 كأنني لم أقل أي شيء، أمسك يدي، وقال بحنان طفولي:
 - أنا محميكي منه يا طنط.
 لم أتمالك نفسي، فرت مني دمة وأنا أقول بصوت ارتعش من
 فرط الخوف:
 - السكة اللي إنت ماشي فيها دي آخرتها...
 - إيه؟ هيقتلني زي ما حاول يقتل نوح؟ الأعمار بيد الله، بس
 على الأقل ساعتها هكون مُت عشان الحق.
 مسحت دمعتي، ثم قُبَلت جبينه كما اعتدت أن أفعل معه وأنا
 أحفظه القرآن في طفولته، وربت على خد ابني الساذج الذي يعيش
 على جزيرة خيرة بيضاء وسط محيط من القوضى والظلم والفساد،
 ثم قلت له:

- صالح أمك وأبوك، وروح بات في حضن مراتك وابنتك، كل
 اللي في دماغك ده أو هام.
 لم يقتنع بأدائي، أنا نفسي لم أقتنع به على الرغم من أنني ممثلة
 قديرة بشهادة كل من صدقوا خداعي.
 نهض وهو يقول:
 - لو في أي وقت حسيتي إنك في خطر، بابي هيفضل مفتوح
 ليكي، حتى لو عملت حاجة حاسة إننا مش هنسامحك عليها.

* * *

في إحدى ليالي يونيو الحارة، قرر يحيى أن يدعوني إلى السينما.
 لم أكن محبة للأفلام، ولكنني كنت أجاريه، فإن كانت لديه لومة
 بالسينما، فقد كانت لديّ لومة به. ابتاع تذكرتين، ودخلنا سينما مترو،
 وإذ بي أقرأ اسم الفيلم على تتر المقدمة «الإنس والجن».
 أدركت بعد بضع دقائق أنني تورطت في الجلوس لساعتين
 كاملتين أشاهد فيلمًا مرعبًا، كاد يجعل قلبي يفر من صدري، والكل
 من حولي مندمجون ومستمتعون بأداء يسرا وعادل إمام، وأنا لا أملك
 خيار الخروج أو الاعتراض على خيار فتى أحلامي، أنا مجبرة على
 الاستسلام حتى النهاية. هكذا كان شعوري تجاه حياتي على مدى
 التسعة عشر عامًا الماضية.
 بكيت قدر ما استطعت في المكتب بعدما تركني قطز، ثم نهضت
 وتممت ثلاث مرات على أن الدُرج موصل جيداً بالمفتاح. عدت إلى
 غرفة الانتظار، فوجدت أنور جالسًا بمفرده وهو يتحدث على الهاتف
 بعصبية شديدة ويقول:

تجاهلت الحوار الذي طال بينهما حول معضلة تقبل الواقع بهدف الاستقرار أو الانقلاب عليه بهدف السعادة، وقلت لمصطفى وأنا أغلق حقيقتي وأستعد لمغادرة مكتبي:

- جهزتلي الفيديو اللي قلنك عليه؟

أوما إليّ بالإيجاب، فجلست إلى جواره، وأوقف قادي ووليد وصلاح نقاشهم الوجودي لينضموا إلينا. تابعنا ضغط مصطفى على بضعة أزرار، وهو يطرق علكته التي تفوح منها رائحة النعناع القوي، ثم قال:

- ده اللي كاميرا كوريدور المستشفى جابته في توقيت وفاة بسنت.

قال صلاح:

- وإنتم شاغلين بالكم بوفاة بسنت ليه؟ ما تقرير الطب الشرعي قال إنها ماتت بدون شبهة جنائية.

أجبت:

- تقرير الطب الشرعي يقول إنها ماتت بسبب سكتة دماغية، ده ممكن يكون من مضاعفات العملية الجراحية، بس ممكن يكون بسبب إيه كمان؟

رايت البلاهة على وجوههم كلهم إلا قادي، قال بحكم خبرته إثر وفاة أخيه:

- تعدد الشرايين أو انسداد الأوعية الدموية في الدماغ.

- الله ينور عليك، وإيه اللي ممكن يسد الأوعية الدموية؟

عجز عن إجابة هذا السؤال، فشاركته استنتاجي:

- فقاقيع الهوا الناتجة عن حقنة قاضية اتضربت في الوريد، مش ده اللي قتلني يا صلاح إن دليلة شافت القاتل بيحاول يعمل في نوح؟

حك صلاح سالفه، ثم استفسر مني:

- ودي حاجة الطب الشرعي مش هيلاحظها؟

- لو الحقنة اتضربت في نفس مكان إبرة المحلول مش هتسبب أثر شكة، وبالتالي هتبان الوفاة طبيعية، ولو مقياس التأكسج اتشال من صباعها مش هيلحقوا يتبها لها بسرعة كافية. ورينا بقى يا درش الفيديو.

أدار مصطفى اللابتوب ناحيتي، وشغل الفيديو، فركزت على تفاصيله، توقيته، مدته، حركة الأشخاص بداخله، أو صافهم. كل ما فيه جعلني أشعر بانتصار عظيم.

دقق صلاح النظر في الفيديو، فسألني:

- ده صاحب شقة الكول ستر اللي خدت أقواله؟

لم أعلق، لم أريد أن أشاركهم ما يدور في رأسي بعد، ولكن قادي اندفع يسألني:

- مش ده جوز مامت نوح؟

نظروا إليّ مشدوهين منتظرين مني نفيًا أو تأكيدًا على سؤال قادي الغبي الذي يبدو أن اللواء رشوان شاركه هذه المعلومة، فلا يعرف غيرنا أن صاحب شقة الكول ستر هو زوج طنط سعاد.

الآن، عرفوا جميعًا أن الذي يظهر في الفيديو، برفقة الجرذ ذي الشعر المعقوص ويراقب له المعمر أمام غرفة الناجية الوحيدة من

تجاهلت الحوار الذي طال بينهما حول معضلة تقبل الواقع بهدف الاستقرار أو الانقلاب عليه بهدف السعادة، وقلت لمصطفى وأنا أغلق حقيقتي وأستعد لمغادرة مكتبي:

- جهزتلي الفيديو اللي قلنك عليه؟

أوما إليّ بالإيجاب، فجلست إلى جواره، وأوقف قادي ووليد وصلاح نقاشهم الوجودي لينضموا إلينا. تابعنا ضغط مصطفى على بضعة أزرار، وهو يطرق علكته التي تفوح منها رائحة النعناع القوي، ثم قال:

- ده اللي كاميرا كوريدور المستشفى جابته في توقيت وفاة بسنت.

قال صلاح:

- وإنتم شاغلين بالكم بوفاة بسنت ليه؟ ما تقرير الطب الشرعي قال إنها ماتت بدون شبهة جنائية.

أجبت:

- تقرير الطب الشرعي يقول إنها ماتت بسبب سكتة دماغية، ده ممكن يكون من مضاعفات العملية الجراحية، بس ممكن يكون بسبب إيه كمان؟

رايت البلاهة على وجوههم كلهم إلا قادي، قال بحكم خبرته إثر وفاة أخيه:

- تعدد الشرايين أو انسداد الأوعية الدموية في الدماغ.

- الله ينور عليك، وإيه اللي ممكن يسد الأوعية الدموية؟

عجز عن إجابة هذا السؤال، فشاركته استنتاجي:

- فقاقيع الهوا الناتجة عن حقنة قاضية اتضربت في الوريد، مش ده اللي قتلني يا صلاح إن دليلة شافت القاتل بيحاول يعمل في نوح؟

حك صلاح سالفه، ثم استفسر مني:

- ودي حاجة الطب الشرعي مش هيلاحظها؟

- لو الحقنة اتضربت في نفس مكان إبرة المحلول مش هتسبب أثر شكة، وبالتالي هتبان الوفاة طبيعية، ولو مقياس التأكسج اتشال من صباعها مش هيلحقوا يتبها لها بسرعة كافية. ورينا بقى يا درش الفيديو.

أدار مصطفى اللابتوب ناحيتي، وشغل الفيديو، فركزت على تفاصيله، توقيته، مدته، حركة الأشخاص بداخله، أو صافهم. كل ما فيه جعلني أشعر بانتصار عظيم.

دقق صلاح النظر في الفيديو، فسألني:

- ده صاحب شقة الكول ستر اللي خدت أقواله؟

لم أعلق، لم أريد أن أشاركهم ما يدور في رأسي بعد، ولكن قادي اندفع يسألني:

- مش ده جوز مامت نوح؟

نظروا إليّ مشدوهين منتظرين مني نفيًا أو تأكيدًا على سؤال قادي الغبي الذي يبدو أن اللواء رشوان شاركه هذه المعلومة، فلا يعرف غيرنا أن صاحب شقة الكول ستر هو زوج طنط سعاد.

الآن، عرفوا جميعًا أن الذي يظهر في الفيديو، برفقة الجرذ ذي الشعر المعقوص ويراقب له المعمر أمام غرفة الناجية الوحيدة من

المجزرة لدقيقتين حتى يخرج القاتل من الغرفة ويغادرا المكان
معاً، هو زوج أم نوح.

* * *

ترجلت من القسم وصولاً إلى مستشفى قصر العيني في عشر
دقائق. بمجرد أن خرجت من مصعد المستشفى، ظهرت شكرية
من تحت الأرض قائلة بأسلوبها السخيف:

- لا مؤاخذه يا باشا، مواعيد الزيارة خلصت، والباشا نايم جوه،
برضيك نقلق منامه؟

لم أدع لها مجالاً للإطالة، أعطيتها مائة جنيه، فتركتني أنسلل
إلى غرفة نوح وهي تشرح لي أنه في حالة جيدة ونزيف المخ أثر
تأثيراً مؤقتاً في ذاكرته، وجعله ينسى الأسماء. تركتني معه في
الغرفة بمفردنا، فوقفت أشاهد كيف ينام بالعمق نفسه الذي اعتاد
النوم به في طفولتنا بعين نصف مفتوحة، وفم موارب، وأنفاس
متحسرة.

قضيت لحظة روحانية من الامتنان الصادق، ولكن سرعان ما
قاطعها شخير نوح العالي، إلى درجة أنه استيقظ من شدة قبحه
وإزعاجه. قهقهت واقتربت منه أكثر، فنظر إليّ بعينه اليمنى، بينما
بقيت اليسرى مغلقة من فرط تورمها، وهمس بلسان ثقيل وصوت
خافت ومخارج يصعب فهمها:

- بتضحك عليّ يا قطزا

ثم سبني سبة بذينة وأغلق عينه، وغرق في النوم مجدداً.
سجدت بجوار سريره سجدة شكر لله تعالى، ثم خرجت من

الغرفة، أبكي من كرم الله. عاد أخي من الموت ناسياً أسماء الجميع
إلا اسمي.

* * *

توضأت، فحلت عليّ السكينة وراحة البال، ثم صليت ركعتي
شكر في مصلى المستشفى، واتجهت بعدها إلى غرفة الانتظار
لأرى من الموجود من العائلة. وجدت أبي يتابع شيئاً ما على هاتفه
المنعكس ضوءه على عدستي نظارة القراءة الخاصة به، وطنط سعاد
جالسة بالقرب من المدخل تُسبِّح على مسبحتها الإلكترونية في
هدوء. ألقيت التحية على أبي فردها بهزة رأس صامتة، ثم جلست
إلى جوار طنط سعاد.

يحقق نوح في قضايا من منطلق وضع نفسه مكان الجاني، ولكني
أضع نفسي دائماً مكان الضحية لسببين: الأول، أنها أمامي سواء
أكانت حية أم جثة هامدة، ولا بد أنني سأجد معها دليلاً يوصلني إلى
الجاني، والثاني، أنه إذا فهمت الضحية فسأفهم دوافع اتخاذ الجاني
فريسة له، وإذا فهمت دوافع المجرم فسأستطيع الإمساك به. في رأيي،
هذه الطريقة الأسهل لبدء أي تحقيق جنائي، ولكن تتعقد الأمور حين
يختلط عليك التمييز بين الضحية والجاني، وهذا ما أشعر به الآن وأنا
أميل إلى طنط سعاد، وأسألها كما أسأل أي مشتبّه فيه:
- بقالك قد إيه عارفة إن جوزك قتال قتلة؟

ثم راح هو وأمين الشرطة يتفقدان المنطقة الخلفية للمطعم، بينما أقول:

- يعني آخر مرة شُفته هنا كانت إمتى بالظبط؟

- الخميس المغرب، كان بيوصي الشيف اللي هياخد مكانه طول أجازته على تفاصيل المطبخ، وبعدها راح يودع أخوه. هو ساكن في شقة قريبة من هنا.

عاد وليد يومئذ إليّ بأنه لم يجد رياض، فزفرت بضيق، ولكن المدير تطوع قائلاً:

- أدلك على عنوان أخوه؟

وجدنا القاتل حليق الرأس والذقن في شقة أخيه في الزمالك. يبدو تمامًا كما رأيته في عمارة سيف الدين منذ ليلتين، الفارق أن بطنه منتفخ، وجلده أخضر مائل للأسوداد، وحول عنقه بقع من الدماء الجافة المتجلطة إثر تعرضه للذبح بآلة حادة، يدفعني عمق الجرح وعرضه إلى استنتاج أنها سكين مطبخ.

نحن نفق أمام رياض الذي أصبحت جثته مرتعًا للذباب الذي يضع بيضه عليها.

خرج وليد من الشقة بحجة جمع شهادات الجيران، لكنني أعرف يقينًا أنه لم يحتمل رائحة التحلل التي عبقت المكان.

وصل حسني المستكاوي وفريقه لنقل الجثة، ورفع الأدلة من موقع الجريمة.

لقد انتهت من هذا الكابوس المقيت، وانعتقت من هاجس أن

يعود رياض ليستكمل مهمة قتل نوح، يمكنني أن أقول لشقيقة الشاب خالد إن القاتل يحاسب الآن على آثامه.

أتعرف، حاولت أن أتنفس الصعداء، ولكن تحشرجت أنفاسي، قلبي لم يطمئن تمامًا بعد!

اتصل بي صلاح مرتين، فخرجت من الشقة، ووقفت بجوار وليد لألتقط نفسًا لا يلوته تعفن القاتل الدنس وأنا أجيبه:

- عايز إيه؟

- فيه عيل ابن حرام حاول يقتل نحنوحه، بس العبد لله اداه واحد زيريو في الديريكس جاب أجله.

لم أفهم مصطلحات المصارعة المستوحاة من تعليق مذيع قناة الحلبة التلفزيونية، ولكنني فهمت أنه على الأغلب يقصد أنه سيطر على المجرم.

هرعت أنزل السلالم، ووليد يتبعني، ويستفسر مني عن سبب خطواتي القلقة وأنا أسأل صلاح:

- نوح حصله حاجة؟

- يا ابني بقولك كنت موجود، حد يستجري يثديكم وأنا موجود؟ لا أصدق أنني سأقول هذا، ولكنني حمدت الله على أنني أوصيت صلاح بالبقاء لحراسة نوح وأسرته حتى عودتي إلى المستشفى.

خرجت من العمارة، ووقفت أمام سيارة وليد في انتظار أن يفتح بابها، فلبى رغبتني من دون استفسار.

- فين اللي عملها؟

- مقرفص قدامي في القسم أهو.

- ثبته عندك، أنا في الطريق.

* * *

أتعرف أن اسم قطز يعني الكلب المسعور؟

حين اختطف التتار الأمير محمود بن ممدود بن خوارزمشاه في طفولته، قاومهم بشراسة غير متوقعة فأطلقوا عليه هذا اللفظ المغولي. افتخر بالاسم، ولم يغيره حتى بعد جلوسه على عرش مصر وقيادته لجيوش المسلمين لهزيمة التتار، لأنه رأى في الكلاب صفات حميدة كالشجاعة والوفاء لأصحابها، والشراسة عند اللزوم.

ويما أن لكل شخص نصيبًا من اسمه، فبمجرد أن أدركت أن المدعو حمادة عبد الخالق المائل أمامي هو الشاب الذي طلب من عاطف في المستشفى أن يغير مكان اصطفااف سيارته المرسيدس الزلموكة، كما وصفها، انقضضت عليه انقضاضة كلب شرس عزم على القصاص لصاحبيه.

لم أعقد العزم على التعدي عليه بدنيًا داخل مكتب اللواء رشوان في غيابه، وددت استجوابه بشكل متحضر أنا ووليد وصلاح، ولكنه تحذلق واستفز في عنفًا لم أكن أعلم أنني أبطنه.

مارس علينا هذا الجرذ الأعيب ذهنية كالتني مارسها رياض على الفرائش في أثناء استجوابه في الكول ستر. كرر أسئلتنا باندهاش، تظاهر بالغباء، طلب منا شرحًا وتوضيحًا لأكثر الأسئلة مباشرة، فانفلت غضبي، وحدت عن قضبان العقل والاحترافية، وارتطمت به ارتطامًا مدويًا يليق بمن دفن جثة زميله، وحمل بدن أخيه المدمى المصاب.

لا أذكر تفاصيل ضربي له، بخار الغضب الكثيف أعماني، حتى خلصه من قبضتي تجمع العساكر ووليد وصلاح عليّ.

نهضت ولا أدري من كان أمامي، أزحت الجميع عن طريقي، وقد تداخلت نداءاتهم وكلماتهم، ولا يزال المجرم عديم الضمير على الأرض يغطي بكفيه وجهه المصاب بحروق من الدرجة الأولى إثر إلقاء دليلة مشروبها المغلي عليه، كما حكى لي صلاح.

اندفعت نحوه مجددًا، فكان أول ما طالته يداي منه هو أذنيه العملاقتين لينهض عن الأرض.

شعرتُ بشيء من البلاهة وأنا أشده من أذنيه كأنني أستاذ يؤدب تلميذه البليد، فجذبتة بعنف من مرفقه، ورطمته بالحائط وهو يصيح ويستنجد ويقسم كذبًا إنه بريء، ولكنني قمْتُ بفعل جعله يخرس ويدرك جدية الموقف.

ضغطت على عنقه بفوهة طبنجتي من دون أن أرفع صمام أمانها، وسألته:

- عاطف اللي بعثك تقتل نوح؟

- عاطف مين؟

ضربته بكعب الطبنجة ضربتين متتاليتين؛ واحدة عند ذقنه، والأخرى عند أنفه، فنزف وتأوّه وهو يضغط على موضعي إصابتيه.

- عاطف اللي دبج رياض في شقته بعد ما خلص مهمته عشان ما يعترفش عليه، فكرك بعد ما قبضنا عليك مش هيخلص عليك قبل ما تفتح بؤك؟

رأيت الذعر في عينيه وهو يسألني:

- الدكتور قتل رياض؟

هذا كل ما أردته، فخوفه واستغرابه أكدا لي أنه نسق مع عاطف محاولة اغتيال نوح في المستشفى بعد مقتل رياض. لكن قبل أن أطرح عليه أي سؤال آخر جذبني اللواء رشوان، الذي لا أعرف متى دخل المكتب، بعنف من مرفقي ليفر الجرد المجرم من قبضتي. أمر العساكر بإعادة المسجون إلى الحجز، ثم انتشل مني طبنجتي وهو يهمس إليّ بسخطة:

- ما أشفش خلقتك في القسم غير بقرار من المجلس التأديبي.
فضي مكتبك فوراً!

* * *

وضعت كفي أسفل الماء البارد المنهمر من صنوبر حمام مكتبي، لأطهرهما من دماء القاتل القذر. خرجت من الحمام أجفهما بحذر حتى لا أزيد من آلام براجمي، فوجدت مصطفى يجلس على مكتب نوح، مشغلاً بمتابعة شيء على اللابتوب أمامه، وهو يمضغ علسته بصوت عالٍ. قلت بجدة، وأنا أتجه إلى مكتبي:

- قوم من على مكتب نوح.

نهض بارتباك إلى درجة أن قدمه ارتطمت بالكرسي، ووكز طرف المكتب خصره. جلس على الأريكة يراقبني وأنا أبحث عن حقيبة بلاستيكية أجمع فيها متعلقاتي الشخصية من زجاجة عطر، ویرطمان كاكاو خام، وعلبتي سجائر، ومنشفة للوجه، وعبوة صابون سائل صغيرة. سألتني، وأنا ألقى كل شيء في الحقيبة بإهمال:

- طالع أجازة ثاني؟

- طالع معاش مبكر، قول يا رب.

اقتحم صلاح المكتب برفقته وليد وفادي. كانت المرة الأولى التي أراه بالزي الميري الذي بدا فيه كفقمة بيضاء، ولكن نحمد الله أنه رحمتنا من ألوان قمصانه الفاقعة البراقة.

- إيه اللي هيبته في نفسك ده يا قطز، حد يتصرف كده قدام اللوا رشوان؟

علق فادي:

- روح اعتذرله، هو بيحبك وهيعديها لك.

علقت بانفعال:

- أنا مش عايزه يعديها لي، ياكش أترقد وأخلص من الهم ده.

قال وليد بهدوء وبأل رائق:

- بمناسبة الرفد، أنا بفكر أقدم استقالتني.

حسدت وليد في سري، أمامي عامان آخران قبل إتمام عشر سنوات من الخدمة في الشرطة لأتمكن من أن أحذو حذوه، ولكن صلاح عاشق التمرغ في تراب الميري سأل وليد بقلق:

- ولما تسيب الداخلية هتشتغل إيه إن شاء الله؟

- سيناريست.

هز صلاح رأسه وهو يقترب من وليد، ويربت على عنقه بخفة، فيما يبدو كصفعة صديقة، ثم قال بنبرة أبوية سمعته يحدث بها أولاده عبر الهاتف من قبل:

- حاول تخفف تبين على العشا يا وليد يمكن تبطل حمورية.

تجاهلت الحوار الذي طال بينهما حول معضلة تقبل الواقع بهدف الاستقرار أو الانقلاب عليه بهدف السعادة، وقلت لمصطفى وأنا أغلق حقيقتي وأستعد لمغادرة مكتبي:

- جهزتلي الفيديو اللي قلنلك عليه؟

أوما إليّ بالإيجاب، فجلست إلى جواره، وأوقف قادي ووليد وصلاح نقاشهم الوجودي لينضموا إلينا. تابعنا ضغط مصطفى على بضعة أزرار، وهو يطرق علكته التي تفوح منها رائحة النعناع القوي، ثم قال:

- ده اللي كاميرا كوريدور المستشفى جابته في توقيت وفاة بسنت.

قال صلاح:

- وإنتمو شاغلين بالكم بوفاة بسنت ليه؟ ما تقرير الطب الشرعي قال إنها ماتت بدون شبهة جنائية.

أجبت:

- تقرير الطب الشرعي يقول إنها ماتت بسبب سكتة دماغية، ده ممكن يكون من مضاعفات العملية الجراحية، بس ممكن يكون بسبب إيه كمان؟

رايت البلاهة على وجوههم كلهم إلا قادي، قال بحكم خبرته إثر وفاة أخيه:

- تعدد الشرايين أو انسداد الأوعية الدموية في الدماغ.

- الله ينور عليك، وإيه اللي ممكن يسد الأوعية الدموية؟

عجز عن إجابة هذا السؤال، فشاركته استنتاجي:

- فقاقيع الهوا الناتجة عن حقنة قاضية اتضربت في الوريد، مش ده اللي قتلني يا صلاح إن دليلة شافت القاتل بيحاول يعملها في نوح؟

حك صلاح سالفه، ثم استفسر مني:

- ودي حاجة الطب الشرعي مش هيلاحظها؟

- لو الحقنة اتضربت في نفس مكان إبرة المحلول مش هتسبب أثر شكة، وبالتالي هتبان الوفاة طبيعية، ولو مقياس التأكسج اتشال من صباعها مش هيلحقوا يتبهبوا لها بسرعة كافية. ورينا بقى يا درش الفيديو.

أدار مصطفى اللابتوب ناحيتي، وشغل الفيديو، فركزت على تفاصيله، توقيته، مدته، حركة الأشخاص بداخله، أو صافهم. كل ما فيه جعلني أشعر بانتصار عظيم.

دقق صلاح النظر في الفيديو، فسألني:

- ده صاحب شقة الكول ستر اللي خدت أقواله؟

لم أعلق، لم أريد أن أشاركهم ما يدور في رأسي بعد، ولكن قادي اندفع يسألني:

- مش ده جوز مامت نوح؟

نظروا إليّ مشدوهين متظرين مني نفيًا أو تأكيدًا على سؤال قادي الغبي الذي يبدو أن اللواء رشوان شاركه هذه المعلومة، فلا يعرف غيرنا أن صاحب شقة الكول ستر هو زوج طنط سعاد.

الآن، عرفوا جميعًا أن الذي يظهر في الفيديو، برفقة الجرذ ذي الشعر المعقوص ويراقب له المعمر أمام غرفة الناجية الوحيدة من

المجزرة لدقيقتين حتى يخرج القاتل من الغرفة ويغادرا المكان معاً، هو زوج أم نوح.

ترجلت من القسم وصولاً إلى مستشفى قصر العيني في عشر دقائق. بمجرد أن خرجت من مصعد المستشفى، ظهرت شكرية من تحت الأرض قائلة بأسلوبها السخيف:

- لا مؤاخذه يا باشا، مواعيد الزيارة خلصت، والباشا نايم جوه، يرضيك نقلق منامه؟

لم أدع لها مجالاً للإطالة، أعطيتها مائة جنيه، فتركتني أنسلل إلى غرفة نوح وهي تشرح لي أنه في حالة جيدة ونزيف المخ أثر تأثيراً مؤقتاً في ذاكرته، وجعله ينسى الأسماء. تركتني معه في الغرفة بمفردنا، فوقفت أشاهد كيف ينام بالعمق نفسه الذي اعتاد النوم به في طفولتنا بعين نصف مفتوحة، وفم موارب، وأنفاس متحسرة.

قضيت لحظة روحانية من الامتنان الصادق، ولكن سرعان ما قاطعها شخير نوح العالي، إلى درجة أنه استيقظ من شدة قبحه وإزعاجه. قهقهت واقتربت منه أكثر، فنظر إليّ بعينه اليمنى، بينما بقيت اليسرى مغلقة من فرط تورمها، وهمس بلسان ثقيل وصوت خافت ومخارج يصعب فهمها:

- بتضحك عليّ يا قطزا

ثم سبني سبة بذينة وأغلق عينه، وغرق في النوم مجدداً. سجدت بجوار سريره سجدة شكر لله تعالى، ثم خرجت من

الغرفة، أبكي من كرم الله. عاد أخي من الموت ناسياً أسماء الجميع إلا اسمي.

توضأت، فحلت عليّ السكينة وراحة البال، ثم صليت ركعتي شكر في مصلى المستشفى، واتجهت بعدها إلى غرفة الانتظار لأرى من الموجود من العائلة. وجدت أبي يتابع شيئاً ما على هاتفه المنعكس ضوءه على عدستي نظارة القراءة الخاصة به، وطنط سعاد جالسة بالقرب من المدخل تُسبِّح على مسبحتها الإلكترونية في هدوء. ألقيت التحية على أبي فردها بهزة رأس صامتة، ثم جلست إلى جوار طنط سعاد.

يحقق نوح في قضايا من منطلق وضع نفسه مكان الجاني، ولكني أضع نفسي دائماً مكان الضحية لسببين: الأول، أنها أمامي سواء أكانت حية أم جثة هامدة، ولا بد أنني سأجد معها دليلاً يوصلني إلى الجاني، والثاني، أنه إذا فهمت الضحية فسأفهم دوافع اتخاذ الجاني فريسة له، وإذا فهمت دوافع المجرم فسأستطيع الإمساك به. في رأيي، هذه الطريقة الأسهل لبدء أي تحقيق جنائي، ولكن تتعقد الأمور حين يختلط عليك التمييز بين الضحية والجاني، وهذا ما أشعر به الآن وأنا أميل إلى طنط سعاد، وأسألها كما أسأل أي مشتبه فيه:

- بقالك قد إيه عارفة إن جوزك قتال قتلة؟

والانفعال. نوح تسمم مرتين، أعتقد هذا ما كانت تعنيه قارئة الكف
بلدغتي الحية.

أما الولد الذي بقي في عشي فهو قطز، ولدي الذي لم أُلده،
يودني ودًا لم يوده لي ابنا رحمي. حبيبي الغالي لم يخبر نوح قطُّ
بأنه لا يترك يومين يمران إلا ويراسلني أو يتصل بي، ولا شهرًا إلا
وعزمني على الإفطار في النادي اليوناني، كما اعتادت أسر تانا أن
تفعل قبل أن يستشهد يحيى، وأكد لم يعلمه أنه حين رجع من شهر
العسل أول من زاره في شقته هو وعروسه كان أنا.

بقدر قسوة أن تعيش طيلة عمرك مصابًا بهاجس أنك ستفقد
اثنين من أولادك، بقدر ما ارتاح قلبي أن الأمر انتهى أخيرًا، تحققت
النبوءة كاملة، وتحررت من الانتظار. هذا ما ظننته حتى جلس قطز
إلى جوارى الآن، ونظر إليّ نظرات اتهام صريحة، وسألني سؤالًا
إجابتي عنه ستؤدي حتمًا إلى هروبه من عشي إلى يوم الدين.

- بقالك قد إيه عارفة إن جوزك قتال قتلة؟

نهش الهلع قلبي، وانحشرت الكلمات في جوفي للحظة بدت
أطول من الدهر، حتى تمكنت أخيرًا من أن أزدرد ريقِي، وأقول
بانفعال أملت أن يربك قطز، ويمنعه من طرح مزيد من الأسئلة
عليّ:

- الظاهر إن قلة النوم بتخليك تهلفط بالكلام. رَوِّح لمراتك، أنا
اللي هبات مع نوح النهارده.

نهضت عن مقعدي، وخرجت من غرفة الانتظار، ودقات قلبي

في مطلع الثمانينيات، قرأت كفي امرأة كفيفة، تبيع الفل على
كوبري قصر النيل.

وضعت يدي بين راحتيها الخشتين، وراحت تتحسس خطوطها،
ثم تنبأت لي بأنني سأتزوج قطًا، وستكون لي ابنتان وثلاثة صبيان،
ولد وبنت منهم سيأخذهما الغراب، وبنت ستأخذها الحداة، وولد
ستلدغه الحية مرتين، وسيبقى ولد واحد في عشي لآخر عمري.

رزقني الله خمسة أولاد بالفعل، وإن لم يخرجوا جميعًا من
رحمي: نادية ونوح، وحبية وعمر، وقطر.

على مدى السنوات، تحققت نبوءة بائعة الفل الكفيفة بحذافيرها؛
حبية وعمر أخذهما غراب الموت في ظروف كنت أحسبها
غامضة، ولكن قطز كشفها لي هذا الصباح. نادية أخذتها حداة
التشاوم منذ ما حدث لها وهي في عمر الخامسة عشرة، فتحوّلت
من مراقة رقيقة هادئة بالكاد تسمع صوتها، إلى شعلة من الغضب

تردد في أذني، إلى درجة أنني لم أنتبه لوقع خطوات قطر خلفي،
إلا حين وصلت إلى مكتبي في قسم الغدد الصماء.
دخلت، فلحق بي، ثم أغلق الباب، ووقف ينظر إليّ قائلاً بغضب
مهذب:

- حضرتك بتتهربني مني من ساعة ما واجهتك بقصة حببية
وسالم. قلتي لي ما كنتيش تعرفني وأنا صدقتك، لكن الراجل
اللي بقالك تستعاشر سنة متجوزاه ما لفتش نظرك خالص إن
شغله شمال؟

كنت على وشك أن أوبخه، ولكني تذكرت مصيبة، لا يجب أن
يرى الظرف المتروك على مكتبي.

هرعت نحو المكتب، وفتحت الدرج، وألقيت الظرف الورقي
ومعه بضعة ملفات أخرى، حتى لا يميزه وأنا أصبح بجدة غطت
على ارتباكِي:

- جبت الكلام الفارغ ده منين؟

- دورت وراء. مصحاته متسجلة باسم آمنة الدغش، أخت سلطان
الدغش. تعرفي مين سلطان الدغش يا طنط؟

اقترب مني، فوقفت أمامه أحول بينه وبين المكتب وأنا أصبح:

- أنا عمري ما قلت إن عاطف صاحب المصحات، هو يديرها
مش أكثر.

- لصالح أخت أكبر تاجر مخدرات في البلد؟

- أدبك قلتها، أخته مش هي نفسها اللي بتاجر في المخدرات.

- يعني حضرتك عارفة؟

أحنيت رأسي بنعم، وأنا أحاول أن أحضر نفسي لأي اتهام آخر
سيلقيني به، فأتسعت عيناه البريثتان وهو يسألني:

- طب عارفة إنه اتسجن قبل كده في قضية اتجار مخدرات؟
إن كانت ضربات قلبي زادت منذ قليل، فقد أصبت الآن بالسعار،
إلى درجة أن يدي بدأنا ترتجفان.

حركت رأسي بالنفي، فاستأنف قطر بثبات:

- طب عارفة إن كاميرات المستشفى جايباه بيدخل واحد أوضة
البنات الوحيدة اللي نجت من القضية اللي نوح يبيحقق فيها،
والواحد ده هو نفس الحيوان اللي دخل على ابنك وهو نايم
وحاول يقتله، ولولا دليلة كان زمان نوح مش معنا.

تخلصت من جمودي، وصحت فيه:

- تف من بؤك!

وضع ابني الحنون كفيه على كتفي، وقال بقلق صادق:

- يا طنط أنا حافظك، إنتي عمالة تشخطي وتنطري عشان ما
اكشفش اللي إنتي مخيباه.

- وأنا هخبي عنك إيه بس يا ابني!

- إن عاطف له يد في اللي حصل لنوح. قوليلي الحقيقة، وأنا
هحاسبه بالقانون.

دفعت يديه عني برفق، ثم جلست على الأريكة على يسار الباب

لأستدرجه بعيداً عن مكتبي وقلت:

- إنت شكلك متفائل وأهبل!

جلس إلى جوارِي، وقال:

- الدكتور قتل رياض؟

هذا كل ما أردته، فخوفه واستغرابه أكدا لي أنه نسق مع عاطف محاولة اغتيال نوح في المستشفى بعد مقتل رياض. لكن قبل أن أطرح عليه أي سؤال آخر جذبني اللواء رشوان، الذي لا أعرف متى دخل المكتب، بعنف من مرفقي ليفر الجرد المجرم من قبضتي. أمر العساكر بإعادة المسجون إلى الحجز، ثم انتشل مني طبنجتي وهو يهمس إليّ بسخطة:

- ما أشفش خلقتك في القسم غير بقرار من المجلس التأديبي.
فضي مكتبك فوراً!

* * *

وضعت كفي أسفل الماء البارد المنهمر من صنوبر حمام مكتبي، لأطهرهما من دماء القاتل القذر. خرجت من الحمام أجفهما بحذر حتى لا أزيد من آلام براجمي، فوجدت مصطفى يجلس على مكتب نوح، مشغلاً بمتابعة شيء على اللابتوب أمامه، وهو يمضغ علسته بصوت عالٍ. قلت بجدة، وأنا أتجه إلى مكتبي:

- قوم من على مكتب نوح.

نهض بارتباك إلى درجة أن قدمه ارتطمت بالكرسي، ووكز طرف المكتب خصره. جلس على الأريكة يراقبني وأنا أبحث عن حقيبة بلاستيكية أجمع فيها متعلقاتي الشخصية من زجاجة عطر، ویرطمان كاكاو خام، وعلبتي سجائر، ومنشفة للوجه، وعبوة صابون سائل صغيرة. سألتني، وأنا ألقى كل شيء في الحقيبة بإهمال:

- طالع أجازة ثاني؟

- طالع معاش مبكر، قول يا رب.

اقتحم صلاح المكتب برفقته وليد وفادي. كانت المرة الأولى التي أراه بالزي الميري الذي بدا فيه كفقمة بيضاء، ولكن نحمد الله أنه رحمننا من ألوان قمصانه الفاقعة البراقة.

- إيه اللي هيبته في نفسك ده يا قطز، حد يتصرف كده قدام اللوا رشوان؟

علق فادي:

- روح اعتذرله، هو بيحبك وهيعديها لك.

علقت بانفعال:

- أنا مش عايزه يعديها لي، ياكش أترقد وأخلص من الهم ده.

قال وليد بهدوء وبأل رائق:

- بمناسبة الرفد، أنا بفكر أقدم استقالتني.

حسدت وليد في سري، أمامي عامان آخران قبل إتمام عشر سنوات من الخدمة في الشرطة لأتمكن من أن أحذو حذوه، ولكن صلاح عاشق التمرغ في تراب الميري سأل وليد بقلق:

- ولما تسبب الداخلية هتشتغل إيه إن شاء الله؟

- سيناريست.

هز صلاح رأسه وهو يقترب من وليد، ويربت على عنقه بخفة، فيما يبدو كصفعة صديقة، ثم قال بنبرة أبوية سمعته يحدث بها أولاده عبر الهاتف من قبل:

- حاول تخفف تبين على العشا يا وليد يمكن تبطل حمورية.

- أنا هجيهولك القسم يحب على إيدك قدام الكل يا رشوان.
امسحها في يا صديقي، وأرجوك تطبق عليه أقصى عقوبة، ما
تعملش لا خاطر ولا حساب. الحق حق. أشكرك يا رشوان.
وانت من أهله.

أنهى المكالمة بينما أجاوره على المقعد، فنظر إليّ وقال منفعلاً:
- الولد ده مش هيهدا غير لما يجيب أجلي. هو مشي؟
تنهدت بعمق، ثم قلت لأنور ما حوّل غضبه إلى ذعر:
- ابنك بدأ يدور ورا عاطف.

أكتوبر ٢٠١٩



دليلة

عاد حبيبي من محاولتي اغتيال فاقدًا النطق والذاكرة وبعض وظائفه المعرفية. يعرف أدوارنا في حياته وأي مشاعر يكنها لنا، ولكن تاهت عنه أسماؤنا في أول ليلتين له بعد استفاقة من الغيوبة، لهذا، أظن أن قطز هُيئ له أن نوح ناداه باسمه. أينسى اسمي ويذكر اسم صاحبه؟

في أيام الاستفاقة الأولى كانت حركته غير متسقة، وكلامه غير مرتب كآلة موسيقية أوتارها غير مدوزنة. اختلط واقع مع هلاوسه، فيتكلم أحيانًا مقتنعًا بأنه يحلم، أو يحدث شخصًا لا نراه، فأتساءل إن كان يهذي بسبب المسكنات والأدوية، أم أنه يرى روح ميت تركت المشرحة في الطابق السفلي وأتت لزيارته؟

حالته بعد الغيوبة جعلت حبي له وخوفي عليه يختلطان مع توديعي الوشيك لجزء من جسدي خلقه الله كي يأوي أولادي، فاستثار مرضه غريزة الأمومة عندي، ووجدت نفسي أتخذ نوح ابنًا. ربتني أمي على أن أي علاقة عاطفية يبحث فيها الرجل عن أمه،

أو تبحث فيها الأنثى عن أبيها، هي علاقة غير صحية ستنتهي بإنهيار أحد طرفيها، ولكن كيف لا أشعر بالأمومة تجاهه وأنا أراه غير قادر على الحركة والكلام، ولا حتى طلب كوب من الماء لأنه نسي كيف يقول «ماء» و«عطش»؟!

حبيبي الناجي من الموت كان لسانه ثقيلاً، وكلامه متلعثماً، ونظفه مبهمًا، وجمله عاجزة عن التعبير عن احتياجاته، ولكنني كنت أفهمه كما تفهم الأم ولبدها. أعرف من اتجاه مقلتيه لليسار أنه يحاول تذكر اسم زائره، فأهمس به في أذنه، وأعرف حين ينظر إلى اليمين أنه يحاول تكوين جملة مستعصية عليه، فأقترح عليه كلمات وأسماء حتى يُتم حديثه.

حين يحاول التحرك وهو يبعد وجهه عنا، أفهم أنه يريد الاعتماد على عضلاته وعلى أعصابه من دون تدخل منا، وحين يغلق عينيه عندما تقترب منه أمه، أفهم أنه لا يحتمل لمسها له، والأهم أنه حين يمسك يدي ويتسم أشعر بأننا صيغة موسيقية ثنائية شديدة الاندماج، وأعرف أنه يقول إنه يحبني من دون أن ينطقها.

* * *

أخذ جميع اللقاحات الضرورية لمن استؤصل طحاله، ثم ظل تحت الملاحظة حتى تأكد الأطباء من عدم وجود أي مضاعفات، وسمحوا له بالخروج من المستشفى.

دفعت كرسبه المتحرك في طريقنا إلى سيارة آسيا الواسعة التي صفها قطز أمام المخرج. انقبضت ملامح نوح حين رأى السيارة، كنتُ أظنه يسترجع لحظة سقوطه فوق سطحها، ولكنه سألني:

- كويسة؟

ظنته يقصد السيارة، فأجبت:

- العربية كويسة، صلحوها في التوكيل و...

وضع يده على بطني كأنه تذكر معلومة مهمة للتو:

- إنني كويسة؟ العملية؟

- أنا عملت العملية، وبقيت كويسة.

قد يكون فقد القدرة على المشي والفصاحة، ولكنه لم يفقد مهارته بوصفه ضابط مباحث بعد، علمت من نظراته المتفحصة لملامحي أنه لم يصدقني. راوغته كما راوغ آلام الأورام التي ما زالت تسكن رحمي، وبدأت أدفعه بمساعدة قطز ونادية نحو السيارة، حتى لا يبدأ في استجوابي.

أوصلته إلى بيته وتغذيت معه أنا وقطرز وآسيا ونادية وطارق وأولادهما. التوأمان الشقيان، حماهما الله، سخرا من رأس نوح الذي حُلِق بسبب عملية المنخ، فبدا لي وسيماً كجيسون ستاثام، لكن قلد التوأمان أهمهما التي لا تقدر على منع نفسها من إظهار حبها لأخيها الصغير إلا عن طريق مشاكسته بمزاحها الثقيل، وقالت إنه صار يشبه شخصية سرحان من الكرتون الكوميدي «سرحان ونفيسة».

تقبل حبيبي الطيب سخرتهم بالضحك والقهقهة، أما نالا الرقيقة صاحبة القلب الذهبي، فقَبَلَتْ جروح نوح بحنان وحذر كما يفعل معها طارق كلما أصيبت بخدش بسيط، وهي على اقتناع بأن قلاتها الملائكية ستسرع من شفاء خالها.

بمجرد أن عدتُ إلى بيتي، كلمت طبيبي لأحدد ميعادًا لعمليني.
لم أخبر أحدًا سوى أمي وليلو. حركة نوح كانت متعسفة بما يكفي،
فلم أود أن أنقل كاهله بالاضطرار إلى المجيء إلى المستشفى
والمكوث على كرسيه المتحرك في انتظار خروجي من غرفة
العمليات.

* * *

فتحت عيني قبل أن تختفي آثار التخدير بالكامل، أول من رأيته
كان أمي، تمسك بيدي، وتخبرني بأن العملية تمت بخير، فأغلقت
عيني، وبكيت بإيقاع سريع لا سطوة لأي مايسترو على تصاعده.
أعلم أن أنوثتي لا يُعرفها عضو واحد أو وظيفة فيسيولوجية بعينها،
أعلم أنني أكثر مما استؤصل مني، وكل هذه العبارات التحفيزية
العظيمة التي كنت أسمعها على مدى الأشهر الأخيرة، لكن ألا بحق
لي أن أرثي جزءًا فقدته من جسدي؟

في أثناء بكائي بعينين مغمضتين شعرت بعدة أيدي تربت على
ظهري وكتفي، وأنا ملتمس دموعي وبشيء ناعم يداعب خدي،
فتحت عيني بخمول لأجد نادية وتيتة إحسان وقطر وآسيا كلهم
حولني ونوح على كرسيه المتحرك يجاور سريرتي، ويداعب خدي
بزهرة توليب بيضاء.

وددت أن ألقى نفسي بين ذراعيه، ولكنني خفت أن أزيد ألمه،
فاكتفيت بأن قبضت على يده، ثم تمتمت له بسؤال بزغ من لا وعيي
فردده بلا تفكير:

- هتجوزني بعد ما خدوا راحمي؟

أجابني بلسان ثقيل ومخارج متلعثمة، ولكن بابتسامة واسعة
ونبرة ممازحة:

- هتجوزيني بعد ما خدوا طحالي؟

ضحكوا جميعًا، فقهقهت تحت تأثير التخدير، ثم غفوت من
دون أن أترك يده.

* * *

بدأ نوح جلسات العلاج الطبيعي كما أوصى الطبيب، وبدأ جسدي
يتأقلم مع فقدان راحمي.

كنا نقضي ساعات عبر الفيديو كول، أتابع تحسُن كلامه، ومرونة
حركته، والتثام جروحه، وعودة شعره إلى رأسه. كان ملتزمًا بتوصيات
الأطباء التزامًا باهرًا، إلى درجة أنه شبه توقف عن التدخين.

لا أرجع الإقلاع عن التدخين إلى مثابرة نوح فحسب، بل لعبت
نادية، التي انتقلت للإقامة في غرفته وتولت مهمة الإشراف على
جلسات علاجه وإعادة تأهيله وخدمته خدمة كاملة، دورًا عظيمًا
في هذا الأمر، وحرصت على قرصه قرصة مؤلمة في مرفقه كلما
رصدت سيجارة خبأها منها في مكان ما.

ظهرت نتائج العلاج الطبيعي بشكل أسرع مما توقعنا، إلى درجة
أنه خلال شهر ونصف أصبح يستخدم عكازين في المشي بدلًا من
الكرسي المتحرك. لقد تحسنت حالته الصحية والذهنية، واستعاد
كل ما نسيه إلا تفاصيل ليلة الحادث، السردية التي يذكرها عنها
ممتلئة بالفجوات.

يجهل مقتل زميله المصور، وكيفية إصابته هو بالرصاص، وهوية

من القاء من الشرفة، قررنا بالإجماع ألا نضغط عليه ليتذكر، وإن
نؤجل إعلامه بوفاة زميله حتى لا يتكسر بعد التقدم الذي أحرزه،
فقد مات القاتل، وأغلقت القضية على كل حال.

وفيما يخصني، فقد تعافيت بما يكفي لمغادرة الفراش، فأول ما
فعلته كان الذهاب إلى صالون التجميل لتغيير قصة شعري ولونه،
وقلمت أظفاري وطليتها بالأزرق السماوي. ثم اتصلت بنادية
لأخبرها بأنني أود مفاجأة نوح وزيارته الليلة، فكان ردها:

- والله مكالمتك جت في وقتها يا ليلا. نوح معده زي الزفت.

- إيه اللي حصل؟

- شاف على الفيسبوك بوست لصلاح الغبي عن أربعين الشاب
خالد.

* * *

طرقت باب غرفة نومه بخفة، وأهلنت عن نفسي قائلة:

- بيبي، أنا دليلة.

أناني صوته متحرجاً ومتعباً:

- ادخلي.

دخلت الغرفة فقابلني الفلام، واستقبلتني غيمة من الدخان،
دفعني إلى السعال بقوة. تركت الباب مفتوحاً، وأنرت الضوء، فرأيت
منسلخاً في فراشه، وعكازه مستندان إلى الكومود الذي تتكدس
عليه أعقاب السجائر ورمادها المتناثر خارج المرمدة. رُحت أزيح
بيدي الدخان المتكاثف عن وجهي، وفتحت النافذة وأنا أقول له:

- مش انفقنا هنبطل السجاير دي خالص؟

أحمد سيجارته التي لم يدخن سوى نصفها، وحاول النهوض
من مرقده، فأسرعت بالجلوس قبالة عند حافة الفراش وأنا أقول:
- خليك مرتاح.

رأيت تعبيرات الامتنان على وجهه النحيل، لأنني لم أرهقه، فبقي
مستلقياً وقال:

- إنتي عملت قصة؟

انتبه للغرة ولم يتبه لتغيير لون شعري من الأسود إلى البني
الغامق، يا لتركيز الرجال! أحنيت رأسي بنعم وأنا أتحنس غرتي
وأسأله:

- حلوة؟

- إنتي بتحلي أي حاجة.

اكتفيت بهذا التعليق المحب منه، ثم تجاذبنا أطراف الحديث،
يسألني عن صحتي وحالي، ويعلن لي بابتسامة شجية عن شوقه إليّ،
ورغبته في إقامة حفل زفافنا الليلة قبل الغد، ثم أمسك يدي، ونظر
نحو النافذة، وهوى في صمت عميق.

تركت له مساحة مريحة للسكوت في رفقتي، ورُحت أتأمل
وجه حبيبي الناجي من الموت. لقد فقد الكثير من وزنه، ربما عشرة
كيلوجرامات، وترك شعره يطول حتى شحمتي أذنيه، وأطلق لحيته.
ربت على أنامله بلطف حتى لا ألمس إصبعيه اللتين بدأ ظفراهما
المنخلعان ينموان نموّاً طفيفاً، وأطلت النظر إلى باقي أظفاره، كانت
أطرافها الجانبية مدبية وغير متساوية، وهذا يفسر الخرايش البسيطة
حول عنقه.

نهضت متجهة إلى تسريحته أبحث عن قلامة أظفاره بين زجاجة
عطر «Old Spice» الذي يطيب به بالوراثه عن أبيه، وساعته الفضية
المشروخة التي انتشلها قفز من الحادث، وفرشاة. سألني بصوت
نعس، كأن حركتي أيقظته من سباته:

- بتدوري على إيه؟

لمحتها خلف علبة كريم شعر شبه فارغة، فالتقطتها، وعاودت
الجلوس إلى جواره، وأنا أبسط منديلًا ورقيًا على فخذي، ففهم ما
أنتوي فعله، وسحب يده مني، وقال بخجل شديد:
- لا، لا. نادية هتقصهالي. كتر خيرك يا حبيبتى.

ابتسم ابتسامة باهتة سرعان ما تحولت إلى مرارة جعلت الدموع
تلمع في عينيه، فتركت قلامة الأظفار، وأنا أسأله بقلق:
- مالك يا بيبى؟

- عرفت اللي حصل للشاب خالد؟

هززت رأسي بالإيجاب، فنقلت أنفاسه كأنه على وشك البكاء،
لكنه قمع دموعه، كم يقسو على نفسه! قال بصوت مختنق:
- كان طيب أوي. ما يستاهلش يتغدر به كده.

- عندك حق، بس الحمد لله المجرمين الاتنين خدوا عقابهم.
أراد النهوض، فتركت له مساحة للتحرك، لكنني أبقيت يدي في
الهواء في حالة احتاج إلى مساعدتي. اعتدل في جلسته بمفرده، ثم
ألقى رأسه إلى ظهر الفراش، وأضاف بانفعال دفعه إلى التلعثم:
- إزاي سبه يموت؟ إزاي ما أنقذتوش؟ وإزاي لسه مش قادر
أفكر اللي حصل!

- ما تقساش على نفسك، يمكن كنت بتدافع عنه فعشان كده
أضريت بالنار، أو يمكن هو اتقتل بعد ما إنت وقعت. مش كده؟
هز رأسه فيما بدا لي تصديقًا لكذبتى، فقطر أخبرني بأنه وفقًا
للسيناريو المقترح من الطب الشرعي، الشاب خالد قُتل على مسافة
قريبة جدًا منه، ولهذا رذاذ دماؤه كان على وجهه نوح، وبعدها ألقى
حبيبي من الشرفة.

- تعبان أوي يا دليلة ومتلخبط، حاسس إنى واحد تاني.

- وحتى لو بقيت واحد تاني هحبك من أول وجديد.

ابتسم ابتسامة محبة، فتنهدت، ثم قلت له بنبرة حاولت أن تكون
غير كاشفة لمخاوفي الحقيقية:

- بعد العمليات والحوادث الكبيرة الواحد مش بيرجع لطبيعته
على طول، بنحتاج وقت عشان نستوعب اللي حصل. أنا أقدامك
أهو، حاسس إنى زي الأول بالظبط؟

- حاسس إنك أحلى من الأول. الدكتور اداكي حقنة حلاوة وهو
بيقفل الجرح ولأ إيه؟

أخجلني غزله الطريف المفاجئ، فشعرت بحرارة في وجتي.
قرص خدي، وأمسك يدي وحركها في الهواء، كأنه يراقصني وهو
يغني:

إيه الحلاوة دي

إيه الطعامة دي

ده غزال عمال يتمخطر

واندهله بيتقل أكثر

نهضت متجهة إلى تسريحته أبحث عن قلامة أظفاره بين زجاجة
عطر «Old Spice» الذي يطيب به بالوراثه عن أبيه، وساعته الفضية
المشروخة التي انتشلها قفاز من الحادث، وفرشاة. سألني بصوت
نعس، كأن حركتي أيقظته من سباته:

- بتدوري على إيه؟

لمحتها خلف علبة كريم شعر شبه فارغة، فالتقطتها، وعاودت
الجلوس إلى جواره، وأنا أبسط منديلًا ورقيًا على فخذي، ففهم ما
أنتوي فعله، وسحب يده مني، وقال بخجل شديد:
- لا، لا. نادية هتقصهالي. كتر خيرك يا حبيبتى.

ابتسم ابتسامة باهتة سرعان ما تحولت إلى مرارة جعلت الدموع
تلمع في عينيه، فتركت قلامة الأظفار، وأنا أسأله بقلق:
- مالك يا بيبي؟

- عرفت اللي حصل للشاب خالد؟

هززت رأسي بالإيجاب، فنقلت أنفاسه كأنه على وشك البكاء،
لكنه قمع دموعه، كم يقسو على نفسه! قال بصوت مختنق:
- كان طيب أوي. ما يستاهلش يتغدر به كده.

- عندك حق، بس الحمد لله المجرمين الاتنين خدوا عقابهم.
أراد النهوض، فتركت له مساحة للتحرك، لكنني أبقيت يدي في
الهواء في حالة احتاج إلى مساعدتي. اعتدل في جلسته بمفرده، ثم
ألقي رأسه إلى ظهر الفراش، وأضاف بانفعال دفعه إلى التلعثم:
- إزاي سبه يموت؟ إزاي ما أنقذتوش؟ وإزاي لسه مش قادر
أفكر اللي حصل!

- ما تقساش على نفسك، يمكن كنت بتدافع عنه فعشان كده
أضريت بالنار، أو يمكن هو اتقتل بعد ما إنت وقعت. مش كده؟
هز رأسه فيما بدا لي تصديقًا لكذبتى، فقطر أخبرني بأنه وفقًا
للسيناريو المقترح من الطب الشرعي، الشاب خالد قُتل على مسافة
قريبة جدًا منه، ولهذا رذاذ دماه كان على وجه نوح، وبعدها ألقي
حبيبي من الشرفة.

- تعبان أوي يا دليلة ومتلخبط، حاسس إنى واحد تاني.

- وحتى لو بقيت واحد تاني هحبك من أول وجديد.

ابتسم ابتسامة محبة، فتنهدت، ثم قلت له بنبرة حاولت أن تكون
غير كاشفة لمخاوفي الحقيقية:

- بعد العمليات والحوادث الكبيرة الواحد مش بيرجع لطبيعته
على طول، بنحتاج وقت عشان نستوعب اللي حصل. أنا أقدامك
أهو، حاسس إنى زي الأول بالظبط؟

- حاسس إنك أحلى من الأول. الدكتور اداكي حقنة حلاوة وهو
بيقفل الجرح ولأ إيه؟

أخجلني غزله الطريف المفاجئ، فشعرت بحرارة في وجتي.
قرص خدي، وأمسك يدي وحركها في الهواء، كأنه يراقصني وهو
يغني:

إيه الحلاوة دي

إيه الطعامة دي

ده غزال عمال يتمخطر

واندهله بيتقل أكثر

ضحكت، لا أدري كيف يجدر روح الفكاهة هذه في أعتم لحظائنا،
ويقدر على تغيير مزاجه بهذه السرعة. انزلق كُـم ثوبي حتى مرفقي
وهو يرفع ذراعي في الهواء، فلمس معصمي الأيسر حيث وشم مفتاح
الصول الموسيقي الذي صار يتوسطه ندب إثر مهاجمتي للمجرم
في العناية المركزة. لم أخبر نوح بتفاصيل نجاته من محاولة اغتياله
الثانية، اكتفيت بقول إنني صرخت فأتى صلاح للقبض على القاتل.

- إيه اللي في إيدك ده؟

لا أنوي أن أسرد عليه التفاصيل الآن، يكفي ما يحمله في صدره
من تأنيب ضمير وجلد ذات بخصوص موت الشاب خالد.

- كنت بقطع لحمة واتعورت.

تحسس الندب بقلق، ثم سألني:

- وإنني من إمتى بتقفي في المطبخ؟

- بدأت أتعلم عشان لما نتجوز ما تشكيش لطنط إحسان من
طبخي.

لم يجارِ مزحتي، ظل ينظر إليّ بتربص حتى وصل إلينا رنين
جرس الشقة، فسحبت ذراعي من يده، وأنزلت كمي بينما أسمع
نادية تضحك وهي تتحدث في طريقها إلينا مع شخص ميزات أذناي
أنه قطر. ظهر رأسها من أسفل إبط قطر وهي تقف وراءه عند مدخل
الغرفة. كان يحمل حقيبة ساندويتشات من مطعم فلفلة ويطرق الباب
على إيقاع إحدى أغنيات حكيم ويدندنها بمرح:

السلام عليكم

أقبل علينا وهو يقول لنوح الذي أضحكته دخلته الخرقاء:

- جبتلك ساندويتشات تصبرك على طيخ أختك اللي ما يتبلعش!
باغتته نادية بقرصة من مرفقه وهي تقول:
- بلعك حنش!

تمازح ثلاثتهم، ثم سخرت نادية من أن قميصه ملسوع عند الشرة،
واتهمت آسيا بأنها ربة منزل فاشلة، فاندفع يدافع عنها باستماتة،
ويخبرنا بأنه لسع قميصه بسيجارة دخنها في طريقه لفلفلة، ثم بتر
كلامه فجأة، وبدأ يوزع الساندويتشات علينا.

لسبب ما، أنبأني حدسي بأن قطر يكذب علينا كذبة بيضاء كما
كذبت على نوح بخصوص نديي.



@ART_OF_BOOK

أتعرف ما فعله جلعامش بعد مقتل صديقه إنكيديو؟

تقول الملحمة السومرية إن موت إنكيديو دفع جلعامش إلى البحث عن الخلود. المنطق نفسه ينطبق عليّ، فالظلم الذي تعرض له نوح والشاب خالد، دفعني إلى البحث عن العدالة.

بمناسبة العدالة، أتعرف ماذا حدث لي لأنني ضربت حمادة الذي حاول قتل نوح في العناية المركزة؟ أوقفت عن العمل، وخفض راتبي، حتى يصدر قرار نهائي بشأنني من مجلس التأديب.

أتعرف ماذا حدث لحمادة؟ كُسر عنقه في مشادة عنيفة بينه وبين محتجز آخر حول سيجارة زعم القاتل أن حمادة سرقها من جيبيه.

أتعرف ماذا حدث لعاطف؟ ما تنبأت به طنط سعاد بالضبط! استدعاه اللواء رشوان في وجود وليد وعمرو لأخذ أقواله فيما يخص الفيديو الذي يظهر فيه وهو يرشد حمادة إلى غرفة بسنت في المستشفى، ويقف في انتظاره في توقيت وفاتها.

منعت من حضور التحقيق، فبقيت أمام مبنى قسم شرطة قصر

النيل البرتقالي الباهت، أتأمل عمارته الكلاسيكية وأنا أستظل بشجرة لوسينيا تتمايل فروعها بغنج بين أذرع نسيمات أكتوبر الخريفية، فتساقط أوراقها المصفرة على شعري.

منعي من حضور التحقيق لم يحجب عني تفاصيل ما يجري، تواطأت مع وليد وجعلته يتصل بي، ويبقي سماعة الهاتف مفتوحة لأسمع ما يحدث لحظة بلحظة عبر الـ «AirPods». ويا ليتني لم أسمع هذا الهراء!

زعم عاطف أن حمادة سائقه الشخصي، وكان في طريقه إلى بيته في المعادي، ولكن وصل إلى حمادة خبر أن بسنت أصيبت، ونُقلت إلى المستشفى.

قال إن بسنت صديقة لحمادة، لهذا استأذن عاطف أن يذهباً للطمثان عليها قبل إتمام مشواره، فوافق على سبيل الشهامة والتضامن. وصلا إلى الطابق معاً، انتظره خارج الغرفة، غاب حمادة بضعة دقائق، ثم أخبره بأن بسنت نائمة، ورحلا بلا ضرر، ولا ضرار. قال هذه الحكاية التي بدا فيها رجل خير، ثم تظاهر بالتفاجؤ من أن حمادة حاول قتل نوح، وراح يشكرنا لأننا حمينا ابن زوجته من الموت، وقبضنا على سائقه بالجرم المشهود.

تحجج بأن لا بد أن لرائد مباحث لامع مثل نوح عشرات الأعداء الذين أودعهم في السجن، وأنه سيحرص على توفير حارس شخصي له إذا كان الأمر بهذه الخطورة، فسعاد لن تتحمل أن يتعرض لمحاولة قتل أخرى. أغلق المحضر لأننا في النهاية لا نملك دليلاً دامغاً على قتل حمادة لبسنت، ولا يمكن اعتبار هذا الفيديو سوى دليل ظرفي.

خرج عاطف المحتال السفيه من مكتب اللواء رشوان، كما تخرج الشعرة من العجين، وتخطى بوابة القسم الحديدية يشعل سيجارة من علبة مارلبورو حمراء، ثم ألقى التحية على العساكر الواقفين حول كشك الحراسة البيضاء.

أخذ نفساً من سيجارته، وقبل أن ينفثه لمحني مستنداً إلى سيارته المرسيدس الزلموكة البيضاء في انتظاره. اقترب بخطوات متعرجة وأنفاس متهدجة، ودس يده في جيبه على الأغلب ليجتث عن مفاتيحه، وهو يقول بسخافة:

- غريبة يعني، ما حضرتش التحقيق!

- هو الغريب إن سواقك ما ييقاش عارفك.

أعرف أنني أثرت انتباهه، لأنه وقف يتظاهر بالانشغال بإخراج منديل حرير يبرز طرفه من جيب سترة بدلتة الخريفية، ثم أبقى سيجارته بين شفتيه ليخلع نظارته الطبية المثيرة للسخرية، وبدأ ينظف عدستها وهو ينظر إليّ لأستأنف حديثي من دون أن يتكبد عناء طرح سؤال عليّ.

- حمادة سألك في المستشفى إن كنت صاحب العربية المرسيدس وطلب منك أن تحركها من مكانها. أول مرة أشوف سواق مش عارف اسم اللي مشغله وكمان بيطلب منه يسوق مكانه.

أعاد المنديل إلى جيبه، ثم ارتدى نظارته متمسكاً بصمته، فأضفت وأنا أراقب ملامحه الباردة عديمة التفاعل:

- ما تغششني يا دكتور، حمادة كان بيتحجج بركنة العربية عشان تنفخوا على تفاصيل محاولة قتله لنوح، ولأ كان يقولك إن

رياض اتدبح ومش هيبقى فيه دليل على إنك اللي دبرت جريمة الكول مستر؟

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجهه، فأدركت أنني أصبت الهدف، لقد دفعته إلى التفاعل مع ما أقوله، وأجبرته على التظاهر بأنه يستقبل تلميحاتي بعدم اكتراث، وليس بالقلق الذي تجلى في اضطراب أنفاسه المسموعة.

زفر دخانه، وأخرج من جيبه جهاز الإنذار، وضغط على زر الفتح فاستندت إلى باب السائق لأحول بينه وبين الركوب وأنا أقول بعدوانية لا تخفى على أحد:

- كنت فاكّر إن نوح بيكرهك عشان غيران على أمه وصعبان عليه حد ياخذ مكان أبوه، بس هو إحساسه كان في محله، إنت مش بس راجل مش سالك، إنت في رقبك دم يا عاطف. لم تنكش ابتسامته، قال ببرود أستطيع أن أتبين زيفه: - تسمحلي عشان مستعجل؟

ابتعدت عن الباب، وبمجرد أن فتحه سقطت منه زجاجة كحول معدنية. مال يتشلها من الأرض، ويدسها في جيب سترته الداخلي، فعلقت بابتسامة متندرة:

- خفف شرب وإنت سايق، معدل حوادث الشكر وصل لسبعميت حادثة في السنة، مش عايزينهم يبقوا سبعمية وواحد. لم يتخلّ عن ابتسامته الشريرة، لكنه أضاف إليها الآن نظرة عدائية، وباغتني بالقاء سيجارته المشتعلة صوبي فلسعت قميصي عند منطقة الشرة، ثم سقطت على الأرض.

انتهضت إثر اللسعة المفاجئة، فقال بنبرة شامته وهو يربت على
بطني مكان سيجارته:

- لا مؤاخذه، كثر الشرب بيخلي الواحد ما يقدرش المسافات.
ركب سيارته، ثم صفق بابها، وأدار المحرك وانطلق في طريقه،
وأنا أدعو أن تدهسه شاحنة وتخلصنا من شره.

هممت أن أعود إلى سيارتي كي أذهب إلى مطعم فليلة لأن نوح
أخبرني خلال مكالمتنا هذا الصباح بأنه يشتهي ساندويتشات، ولكن
فاجأني صلاح بوقوفه بين أشجار الفيكس المقابلة للقسم، وعلى
الأغلب رأى كل ما حدث بيني وبين عاطف، وما أكد لي ذلك هو ما
قاله بنبرة تجعلني أود أن أصفعه بقوة حتى يسقط شاربه عن وجهه:

- سييت الحجيصة ده يعلم عليك يا نسكويك؟

- واقف هنا من إمتي؟

- من وإنت بتهدده زي بتروع أفلام الأبيض والأسود.

- إنت عايز إيه دلوقتي يا صلاح؟

ضرب كتفي، وقال بنبرة حازمة:

- الزرزة مش حلوة على العرسان الجداد اللي زيك. خف كده
عشان أنا جاي أعملك خدمة.

- اللي هي؟

- وليد حكالي إن الجدع ده مرجحهم في التحقيق، وما خدوش
منه لا حق ولا باطل.

أخرجت من علتي سيجارة، وأنا أقول متأقفاً:
- أهو اللي حصل!

خطف السيجارة من بين أصابعي ووضعها بين شفتيه، منتظراً أن
أعطيه قداحتي، فزفرت بضيق وأخذت سيجارة أخرى بينما يسألني
بغمزة موحية:

- طب واللي يجييلك داغه؟

قلت له وأنا أعطيه القداحة بفضول:

- أديه ولاعتي.

أشعلنا سيجارتينا، ثم قال صلاح وهو ينفث دخانه على مهل
بغرض المبالغة الدرامية كعادته:

- لما نوح خلاني آخذ أقوال الجدع ده، استقبل قدامي مكالمة من
واحدة اسمها معالي، كلمها كلام الراجل لمراته بتاع المصاريف
والعيال والنكد ده. بس لما دودي قال إنه جوز الحاجة سعاد أم
نوح، شغلت الترس اللي بسييه للغالين وجبت القيد العائلي
بتاعه، وعرفت أن له زوجة اسمها معالي، تاريخ جوازهم
قبل تاريخ جوازه من الحاجة أم نوح. جبت عنوان معالي من
رقمها القومي لقيته متغير وبياناتها مش متحدثة، ففضلت أبرم،
ومرشد هنا على مرشد هناك، لحد ما جابلي عنوانها حبابي
المسيطرين في المنطقة اللي عايشة فيها. طبعاً هتقول في عقل
بالك هنستخدم المعلومة دي في إيه يا باشا مصر؟

امتنع عن الكلام، وانتظرني أسأله فعلاً، فزفرت دخاني ونفذت
طلبه:

- هنستخدم المعلومة دي في إيه يا باشا مصر؟

- الجدع اللي اسمه عاطف ده معلم على قديمه، ثقيل ومحرض

وراكز وفايق مش زي المجرمين السيكوسيكو بتوع اليومين
دول. العبد لله بقى هيفقده توازنه، همشيه في الشارع يضرب
أخماس في أسداس.

- هتعمل كل ده بعنوان معالي؟

- يا نسكويك إنت أصلك متجوز فوزية البرجوازية ومش فاهم
البيوت العادية عاملة إزاي. ما يجييش أجل الراجل غير نكد
الحريم. إحنا نقول لمعالي إن جوزها متجوز عليها، نوع
الحريم في بعض، فهم الاتنين ينكدوا على عاطف عيسته،
تركيزه يقل، يغلط، إحنا نعكشه.

لم أهتم بباقي تفاصيل المسلسل المكسيكي الذي يغزل صلاح
خيوط حبكة الركيكة، كنتُ أفكر في تفصييلة أخرى. لم أملك ما
يكفي من الأدلة لأقدمها للنيابة لاستصدار أمر بتفتيش مصحات
عاطف أو بيته، وبالطبع لن تتعاون طنط سعاد معي لتفتش هي بيتها
بحثاً عن طبنجة نوح وكاميرا الشاب خالد.

ولكني أفكر الآن أنه من الجيد أنني لم أحصل على أمر التفتيش،
فلو كنت رجلاً ذا وجهين مثل عاطف وأملك دليلاً دامغاً على
تحريضي على قتل ضابط ومصور جنائي لن أخبئه في مكان معلن
مثل مصحاتي أو مكان تعيش فيه أم ضحيتي مثل بيت طنط سعاد.
سأخبئه في مكان مجهول، مع شخص أثق به، شخص يعيش في
الظل، شخص غير معلن، ولا يعرف أحد مكان إقامته سوى رجل
فضولي مثل صلاح.

* * *

بعد أسبوع من تناوبي أنا وصلاح على مراقبة منزل معالي في حي
المطرية، وضعنا خطة للإيقاع بعاطف.

في صباح تنفيذ الخطة، أعارني صلاح قميصاً من قمصانه اللامعة
الفاقة، وأجبرني على تسريح شعري للخلف وتثبيته بالجل حتى لا
أبدو «فرفور»، وأعطاني حذاءً رياضياً رخيصاً ماركة «abibas» اشتراه
من على الرصيف، ثم حاسبني على ثمنه لأن أحذيتي أحذية «عيال
نايتي» مستفصح تنكري.

أوقف صلاح سيارته عند أول الحارة وأنا أتمم على الكاميرا
السرية المعلقة في جيبي على هيئة قلم فضي اشتراها صلاح من
مول البستان، وحاسبني على سعر أعتقد أنه ضعفها سعرها الحقيقي.
خدعة قديمة قدم أفلام الفنانة نادية الجندي الجاسوسية، ولكن ما
باليد حيلة!

نظرت صوب الحارة الطويلة التي تنتهي بعمارة تسد مخرجها،
ففتح صلاح بابي واستعجلني للنزول وهو يقول:

- هستناك في الشارع الوراني وهفضل مدور العربية عشان لو
اتعكشنا نعرف نهيق.

- اتعكشنا؟ إنت مش قلت إنك مسيطر هنا؟

حكَّ شعره الذي يشبه أسلاك الكهرباء المتشابكة من فرط الجل،
وقال بنبرة ضاعفت توجسي:

- على حسب.

- على حسب إيه يا صلاح؟!

- على حسب تساهيل ربنا يا ابني، هنلحد ولأ إيه؟! سمي الله واتكل.

أخذت نفساً عميقاً لأنخلص من توتري قبل أن أنزل من السيارة.
ثم قلت:

- هات سلاحك.
- ما انفقناش على كده.
- ولا انفقناش على إني ممكن أتعكش.
- لسكوكك، لو رصاصة خرجت من السلاح ده أنا هروح في داهية.
- يا هم ساعته هقول إني سرق منك السلاح بالقوة.
- محدش هيصدق إن هبل هلهولة زيك عرف يشبني.
- باغنه بمحاولة لانتشال العلبنجة المعلقة في خصره، فتلوى من لمستي، وضحك ضحكة رقيقة، وقال:
- بغير، الله يحرقك!
- فك الجراب وأعطاني إياه، فثبتته في حزامي من الخلف، وأسدت من فوقه القميص الواسع بما يكفي ليخفي كعب العلبنجة، ثم نزلت من السيارة.



مرت في الحارة الضيقة التي تتراص على جانبيها عمارات لا ترتفع لأكثر من أربعة طوابق، تتدلى من بين شرفاتها المتقابلة بقايا زينة ومضبان التي تصدر صوتاً يشبه الخشخشة مع كل نسمة هواء، وتكثر على جدرانها تهتئات العودة من الحج، وملصقات دعائية لمرشحي أحزاب تفككت وعفا على أعضائها الزمن، وأحرف أولى من أسماء عشاق ورفاق، وسبات بلهنة تلحن غدر الأصحاب.

مرت بجوار مقهى بلدي أغلب رواده تخطوا سن التقاعد، يلعبون الدومنة أو الطاولة، بينما يتفقدون بنصف اهتمام مباراة كرة قدم بين فريقين محليين مغمورين. لمحت ثلاثة شباب يجلسون عند مدخل المقهى، عرفت من مراقبتنا لبيت معالي أنهم أولاد عاطف، أكبرهم يتخطى منتصف الثلاثين، ويدخن سيجارة عرفت من رائحتها وحجمها أنها سيجارة حشيش، وأخواه اللذان على الأغلب لم يصلا إلى سن الرشد بعد، يتهمان بعضهما بالغش، ويحتدان في لعب الطاولة.

تعمدت ألا ألفت انتباههم إليّ، فنظرت تلقائياً إلى الجانب الآخر للمقهى حتى لا يروا ملاحي، إلى أن وصلت عند عربة ذرة مشوية يفوح في الأفق دخانها ورائحتها التي يسيل لها لعابي.
تظاهرت بالوقوف عندها لأرى إن كان أولاد عاطف الثلاثة متجهين إلى أنني على وشك الدخول إلى العمارة التي يمتلكها أبوهم، ولكن أصغرهم قلب الطاولة، وسب أخاه بالفاظ نابية، فضربا بعضهما بينما يتابع أخوهما الكبير تدخين حشيشه من دون أي تفاعل مع المراهقين المتناطحين.

انسلت إلى العمارة، ووصلت إلى شقة معالي في الدور الأرضي.
وقفت أمام بابها الخشبي الأنيق الذي خمنت من رائحة الدهان النفاذة أنه طلي بالبني الغامق حديثاً. أخذت نفساً عميقاً، ثم طرقت الباب بأريحية أظنها كفيلة بالأثير الشبهات.

مرت بضع ثوانٍ حتى سمعت حركة رشيقة داخل الشقة، ثم صياح امرأة تقول:

- ما إنتو معاكم المفاتيح يا بروطات، بتخبطوا ليه؟

تحنحت، ثم قلت بثقة كما تدربت طيلة الطريق:

- ده أنا، يا بيت معالي.

اقترب صوت احتكاك نعلها بالأرض، ثم أتى صوتها من وراء الباب مباشرة:

- مين؟

- الدكتورة باعتلك معايا فلوس.

فتحت الباب لآخره بلا قلق، فرأيتها أخيراً.

كانت في مقبل الخمسينيات، تتدلى خصلات شعرها الأسود من أسفل منديل مزركش بالورد يتماشى نمطه مع جلبابها الضيق الذي يُجسّم معالم قوامها. وقفت معالي بيضاء البشرة تتكئ على إفريز الباب بكوعها المحمر، وتضع يدها الأخرى على خاصرتها وهي تمضغ علقتها بغم مفتوح، وتنظر إليّ نظرات متفحصة، ثم تشرئب بعنقها لترى وجهي، فقامت لا تزيد على مائة وخمسين سنتيمتراً.

- اسم الطويل إيه؟

طراً على بالي أكثر اسم «سرسجي» سمعته في حياتي.

- طماشة.

نظرت إليّ هنيهة، ثم مدت يدها إليّ لتقوم بالحركة العالمية للتعبير عن الرغبة في المال. أخرجت من جيبي خمسة آلاف جنيه برمتها وربطتها بالمطاط، لأن صلاح سخر مني حين اقترحت أن أضعها في ظرف أبيض.

انتشلت مني المال بشراسة فخرشت أنا ملي بأظفارها الحادة المطلية بالأحمر، واصطفت ورقة وجَّهتها إلى نور مصباح مدخل

العمارة لتؤكد من أنها ليست مزورة، ثم أشارت إليّ بالدخول وهي تعلق إبهامها، وتبدأ في عد المبلغ وأساورها الذهبية، التي تزين ذراعها من رسغها وحتى مرفقها، تتخشخش.

دخلت الشقة، التي فاقت فخامتها وحداثتها ومساحتها تخيلاني، وهممت أن أغلق الباب خلفي، لكن شهقت معالي وقالت:

- سيب الباب مفتوح يا نطع، مش شايفني بطولي؟

- لا مؤاخذه يا بيت معالي، افكرت حد من ولاد الدكتورة جوه. انتهت من عد الأموال بسرعة مذهلة، ثم دسها في صدرها، فوليت وجهي بعيداً، حتى جلست على الأريكة البيضاء الأنيقة قبالة شاشة التلفاز الستين بوصة فائقة الجودة، وقالت وهي تمصمص شفيتها:

- وإيه اللي خلاه بيعت فلوس كده من غير مناسبة؟

- عايزة الحق؟

- ما أطيّش ابن عمه.

- الدكتورة بيشتري خاطرك عشان ما تقوليش حاجة للحكومة. رفعت حاجبيها الرفيعين، ثم أشارت إليّ لأجلس إلى جوارها. نفذت أمرها فمالت إليّ، وهمست بقلق:

- هو هيب إيه عشان الحكومة تهيج عليه ثاني؟

- حكاية الظابط اللي حاول يقتله.

شهقت وضربت صدرها، ثم مالت إليّ حد الالتصاق وهي تقول بدلال امرأة لعوب لم أره سوى في الأفلام:

- يا خرابي يا خرابي. طب وإيه العمل؟ عاطف بعثك تنقذني أنا والعيال من الخطر؟

تحدثت في حياء، وابتعدت عنها بضعة مستبهمات، فاقتربت
مني أكثر وأنا أقول:

- لحد دلوقتي مفيش خطر عليكم يا ريت معالي، الدكتور هيتدارى
يومين لحد ما الدنيا تهدأ، هو بعثني آخذ الأمانة اللي شالها عندك
عشان الحكومة ممكن تطب عليك في أي وقت.

رجعت بظهرها في المقعد، وحدقت إليّ، فزاد خفقان قلبي وهي

تسألني:

- ده كل اللي قالك تقول لهولي؟

- وباعتلك طبعاً السلام ويقولك ما تقلقيش مصاريك هتوصل
زي ما هي.

تنهدت، ثم هزت رأسها، وقالت وهي تنهض عن الأريكة،

فوجدت نفسي أقف معها تلقائياً:

- خير ما عمل، أنا مش ناقصة نصيبة ثانية في بيتي.

قادتني الساذجة إلى غرفة نوم أوسع من غرفتي أنا وآسيا، شباكها

المفتوح على مصراعيه يكشف تفاصيلها للحارة الرئيسية الخالية من

المشاة في هذه الساعة الهادئة من الظهيرة. توقفت عند خزانة ملابس

عملاقة رائحة خشبها طازجة، وما زالت المفاتيح داخل القفل الخاص

بكل درفة منها، وأطرافها الخارجية مغلفة بالبلاستيك، فتوقعت أن

هذه الغرفة أعيد تأثيثها حديثاً.

أشارت إلى الدرفة على اليمين، وقالت وهي تتكى على تسريحة

تتوسطها مزهرية ضخمة ذوقها بشع:

- الأمانة في الشنطة الجلد في الدرج التحتاني.

أعطيتها ظهري، وفنحت الخزانة، ثم جثوت على ركبي، فسألني:
- ألا قولني يا خويا، ابن سعاد إلهي يقلها القل وتعب السّل، هو
اللي أتر عاطف ولأ صاحب الظابط اللي اتقتل؟
سألته وأنا أنبش بين الملابس المتكدسة فوق بعضها في الدرج
السفلي من الخزانة:

- إنتي عارفة أصحابه؟

- ما أعرفش غير الطويل الأيضاني أبو شعر مسبب اللي فضل

ورا عاطف بعد ما الظابط اتقتل.

أخيراً وجدت الحقيبة الجلدية التي كانت تقصدها فأخرجتها

وأنا أقول:

- ما هو الظابط ما ماتش يا ريت معالي، عشان كده الدنيا مقلوبة.

- بتستكردني يا بأف!

قالت هذه الجملة بنبرة غاضبة، فالتفت خلفي لأفاجأ بأنها تحمل

المزهرية القبيحة من على التسريحة وتندفع بها نحوي. ألقيت حملي

كله إلى جانبي فسقطت على كتفي في الوقت الذي كادت معالي تنزل

فيه بالمزهرية على رأسي بكل قوتها. اختل توازنها حين تفاديت

ضربتها، وسقطت على وجهها داخل الخزانة.

لا أدري ما الذي كشف لها خداعي، المهم أن أجد طريقة الآن

للهرب من هذا الموقف بأقل خسائر. لن أضرب امرأة حتى

أفقدنا وعيها، ولن أترك نفسي فرصة لصراخها فيجتمع أهل الحارة

ويعدموني العافية، لم يكن أمامي سوى حل واحد..

استغللت سقوط نصفها العلوي في الخزانة، فرفعت ساقيها عن

الأرض وألقيتها في داخلها. همت أن تركلني لكنني أغلقت الدرفة سريعا وأوصدتها بالمفتاح المعلق في قفلها ووضعت في جيبي، فراحت تطرق الخزانة وتصيح.

تشبثت بالحقيبة، وما كدت أخرج من الغرفة حتى رأيت أمامي أكبر أبناء عاطف يقف عند الباب ويأكل كوز ذرة مشوية. أسرع ب سحب طبنجة صلاح من جرابها وأشهرتها نحوه من دون أن أقرب منه وصوت معالي المكتوم يصيح من داخل الخزانة طالباً العون. تلفت حول نفسه، ونظر إلى الأرض، ثم إلى السقف كأنه يبحث عن مصدر الصوت، فشككت للحظة أنه يعاني إعاقة ذهنية ما، ولكنني اقتربت منه خطوتين حتى ذكرني الاحمرار المهيمن على عينيه الداكيتين أنه كان يتشي بسيجارة حشيش.

قال بخمول ينساب تناسقاً من جانب قبة حبات الذرة التي يمضغها بنهم شديد:

- إنتي فين يا ما؟

- في الدولاب يا حسن يا ابن العبيطة.

سار ببطء شديد نحو الخزانة، واقترب مني غير مبالي بسلاحي المشهر صوبه حتى تلامست كتفانا فقال:

- لا مؤاخذه يا ابن جهتي.

مد يده نحو الدرفة التي ألقيت معالي في داخلها، فأمسكت يده حتى لا يفتحها وقلت:

- ماما في الدرفة الثانية.

فتحت له درفة جراحة مجاورة لمعالي، ناولني كوز الذرة حتى

يتمكن من أن يجلس القرفصاء داخل الخزانة، ثم دس يده في جيبي، أخرج منها عشرة جنيهاً أعطاها لي، وقال:

- اتنين من عشرة يا أسطى.

لم آخذ منه العشرة جنيهاً، أعدت إليه كوز الذرة، وجررت الدرفة التي يبدو أنه حسبها باب ميكروباص، وأوصدتها بالمفتاح، بينما تسب معالي ابنها الحشاش وتلعن خلفتها.

أعدت طبنجة صلاح إلى حزامي، ونظرت من الشباك، فوجدت سيارته مصطفة عند خلفية العمارة كما وعدني، ثم رأيت رجلاً آخر يرتدي سترة رياضية سوداء ذات قلنسوة تستر رأسه الأصلع، وتحاول إخفاء وجهه الذي رأيت الذباب الأخضر يضع بيضه عليه منذ شهر ونصف، رأيت رياض!

لم أملك رفاهية التفكير في كيفية رؤيتي له حياً يرزق، وعلى ظهره حقيبة ضخمة، ويركب دراجة نارية ماركة دوكاتي. التقت أعيننا فتعرف عليّ، وانطلق بدراجته، أنا لا أحلم إذن!

قفزت من الشباك، وهرولت إلى سيارة صلاح، وبمجرد أن لمحني في المرأة الخلفية، فتح لي الباب. انزلت داخل المقعد، وألقيت الحقيبة أسفل مقعدي وأنا أصيح:

- وراه!

انطلق بأقصى سرعة يسمح بها محرك الداو الرمادية لملاحقة زومبي رياض. تمنيت أن أقول إننا لاحقناه من حارة إلى حارة، ومن زقاق إلى زقاق، وإنه راوغنا بإلقاء بضائع الباعة الجائلين كما في أقل مشهد أكشن في أفلام أحمد السقا، ولكن الحقيقة أنه يحفظ المنطقة

الغريبة عنا، إلى الدرجة التي مكنته من التملص من مطاردتنا له في
بضع دقائق.

غادرنا المنطقة وأنا أفكر كيف أراه حياً بينما الجثة التي وجدناها
في شقته في الزمالك يتطابق حمضها النووي مع آثار المقاومة أسفل
أظفار نوح، كما أن لها نفس ملامحه، إن تلاعب بالحمض النووي
كيف يتلاعب بملامحه؟

- غبي! غبي! غبي!

قلتها وأنا أضرب جيني بكفي، كيف لضابط مباحث مثلي حلّ
قضية معقدة كقضية تسميم السيانييد التي نفذتها خالة زوجتي، وكان
سبب اتهام نوح لحماتي بدلاً من اختها هو تطابق حمضيهما النووي!
الجثة التي رأيناها مذبوحة في الشقة كانت تفتقر إلى أمرين مهمين لا
أدري كيف تأهلا عني وعن وليد وعمرو اللذين توليا القضية مكاني؛
الخدوش التي سببتها مقاومة نوح للقاتل، والشامة المميزة عند طرف
ذقن القاتل الذي ادعى أنه وكيل النيابة.

أخرجت هاتفي من جيبي، وصلاحي يسألني مليون سؤال لم أرد
على أي منها، أعطيته فقط طبنجته ليطمئن قلبه، فقبلها وأعادها إلى
مكانها في حزامه بينما أتصل بوليد. فور أن أجابني قلت له بلا أي
مقدمات وأنا أضرب كعبي في الأرض بسخط يلهب أحشائي:

- وليد، لما سُفّت القيد العائلي بتاع رياض رزق كان له أخ؟

- أبوه وتقريباً كان اسمه فرج.

- فإكر تاريخ ميلاده؟

- استنى.

سمعت حفيف أوراق تُقَلَّب في ملف أو دفتر، ثم قال:

- ثلاثين يونيو، ألف تسعمية أربعة وثمانين.

- وتاريخ ميلاد رياض نفسه إمتى؟

- ثلاثين يونيو ألف تسعمية أربعة وثمانين. إيه ده! توأم؟

ما أغباني!

بمجرد خروجنا من حي المطرية، تفحصت الحقيبة بينما يبلغ
صلاح جميع الكمان ونقاط التفتيش بمواصفات الدراجة النارية
وأرقام لوحاتها. كانت حقيبة سوداء قديمة، ولكنها مغلقة بإحكام
بسبب قفل له رمز سري، فقلت لصلاح وأنا أعبث بالأرقام:
- الشنطة مقفولة بياسورد.

ألقي نظرة خاطفة على الحقيبة وهو يقود في طريق عودتنا إلى
القسم، حيث تركت سيارتي، ثم ضحك ضحكة شامتة تشبه النباح،
وقال:

- افتح التابلوه وناولني الطفاشة.

بحثت بين الأوراق التي يزخر بها التابلوه حتى وجدت طفاشة،
مقبضها متهاالك من فرط الاستخدام، فسألت صلاح وأنا أناملها
باستغراب:

- إيه شغل السوابق ده، إنت ماشي بطفاشة ليه؟

غضن أنفه، وتأفف من تعليقي، ثم انتشل مني الطفاشة والحقيبة

الجلدية العتيقة تاركاً مقود السيارة وهو يأمرني:

- امسك الدركسيون يا حيلتها.

هرعت أسير على المقود، عين على الطريق، وعين على صلاح
الذي اخترق قفل الحقيقة في حركتين محترفتين فانفتحت على
مصرعها.

استعاد المقود مني وتركني أحمل الحقيقة وأقلب فيها، أول ما
وجدته كان دفترًا، ثم مجموعة رسائل داخل أظرف بريد، وعشرات
الأظرف البيضاء المتخمة بصور محمضة، وماك بوك عليه استيكر
لوجو كول ستر «إلف»، وهاتف آيفون حديثًا عليه الاستيكر نفسه،
كانا على الأغلب لصاحب الكول ستر الذي قُتل بجرعة هيروين
زائدة، وكاميرا الشاب خالد الكانون بمواصفاتها المذكورة في تقرير
الطب الشرعي، وطبنجة نوح.

تنفست الصعداء، وشعرت بأنني حققت إنجازًا، وصار أخيرًا معي
دليل مسجل بالصوت والصورة أن لعاطف يدًا بالجريمة. مددت
يدي في جيب قميصي حتى أتفقد الكاميرا، فأدركت مصيبة أخرى
بجملة المصائب كلها.

الكاميرا ليست في جيب!



١٤ عاطف

يتشابه المجرمون في دوافعهم، ويختلفون في طرق سقوطهم.
شاهدت آمنة الدغش لعقود وهي تدفع أعداءها إلى إنهاء حياة
بعضهم بعضًا من دون أن تتلوث يدها الناعمة بمخلفات الرصاص.
كنت وفيًا لها بحكم التسلسل الهرمي في عملنا، حتى بدأت
ترحف إلى نطاق سلطتي في شبكة توزيع المخدرات، وتتعدى على
المناطق الخاضعة لسلطوتي، وتقوض امتيازاتي، وتهمشني لصالح
حبيب قلبها السيد شندويلي.

أفقدتني الحية الشقراء السيطرة على التجارة التي تعفنت في
السجن لخمس عشرة عامًا من أجلها، فوجب أن أوقفها عند حدها،
ولولا أنها حرضت على قتل سلطان، لما أجلت التخلص منها حتى
الآن لأعيد حساباتي وفقًا للموضع الجديد.

بما أنني انتهيت من قصة نوح الذي استفاق من غيبوبته فاقداً
للالذاكرة، ويجهل أنني كنت معه في مسرح الجريمة من الأساس،
فقد حان الوقت لاستعيد سلطتي ومكانتي.

اليوم، سينعقد اجتماع نقابة الجريمة المنظمة، وإن لم يتتبع بمقتلها
كما خططت الرؤوس الأربعة، فسأضطر إلى التدخل!



غيرت مقعدي كما طلبت مني آمنة، فارتخيت في المقعد
المقابل لها بين أسعد مخيون والحاج عبد الغني راغب داخل غرفة
الاجتماعات في فيلاً الدغش بالمنصورة.

نأثت الغرفة على ذوق سلطان المبهرج: طاولة اجتماعات رخامية
سوداء قبيحة ذات تعرقات زرقاء، ومقاعد مبطنه بقطيفة حمراء فاقعة،
ولوحات لفتيات سكندريات بالملاءات اللف تتنافى مع تماثيل
الملائكة الأوروبية النحاسية، وستائر مخملية سوداء تحجب ضوء
الشمس، ومصابيح قبيحة التصميم موزعة بسوء في الأرجاء.

تبادل الرجال كلمات التعزية مع شندويلي بحكم أن هذا أول
اجتماع رسمي للنقابة منذ مقتل هند، بينما تسحب آمنة نفساً أخيراً
من شبيبتها، ثم تنفض على مهل، وتضع اللي على مسند يدها، وتقول
جملة بترت كل الثروة الفارغة الدائرة حول الطاولة:

- وصلني إن عندكم رؤية جديدة لإدارة البيزنس.

تنحج الحاج عبد الغني، وقاد الحديث بحكم أنه أكبرهم عمراً:

- شوفي يا آمنة، من غير لف ودوران، إحنا لينا طلبين، الأول إن
مخالبكم كلها تنأم.

«المخالب» هو الاسم الحركي الذي أطلقته آمنة على قتلنا
المأجورين، بحكم أن سلطان كان يناديها دائماً باسم القطة.

عمليات القتل المأجور المنظم كانت إحدى استراتيجياتها في

سنوات سجنني، وضعت هيكله ونظام إدارة يتضمن جمع اللقطاء
واليتامى من الشوارع ودور الأيتام، وتحويلهم إلى جيش مسلح
يخص الدغش وحده، وكى يصرف هذا القسم على نفسه، كانوا
ينفذون عمليات قتل مأجورة خاصة، مقابل أن يحصل الدغش على
نسبة من كل عملية تُنفذ. هكذا احتكر الدغش سوق القتل المأجور،
ويظن هؤلاء المغرورون أن آمنة ستوافق بعد كل هذه السنوات على
أن تعرض خدماتهم على المشاع من دون واسطتنا!

توقعت من آمنة أن تخربش الحاج عبد الغني، لكنها هزت رأسها
بهدهوء. رأيت نبيل وأسعد يتبادلان نظرات الاستغراب من عدم
اعتراض آمنة على طلب وقح كهذا، وبينما ترسم ابتسامة انتصار
على وجه الحاج، ظهرت ملامح القلق عليّ، القطة لا تسكن إلا إذا
كانت على وشك الهجوم.

بدأت أهرز مشط قدمي على الأرض بصوت مسموع، فالتفتت
آمنة إليّ بعينيها الياقوتيتين الواسعتين، ثم نظرت بصرامة إلى حذائي.
توقفت عن الحركة، فأدارت رأسها مرة أخرى نحو الحاج عبد الغني،
وسأله بصوتها الأوبرالي المميز:

- والطلب الثاني؟

استراح الحاج في مقعده، وفرد كتفيه، وحك لدغه المتهدل، فعلى
ما يبدو أن صمت آمنة أعطاه ثقة في نفسه غير مستحقة.

- تسلميني راس عاطف.

كانت هذه إشارتي لأنتبه لتفاصيل غابت عني منذ أن دخلت
الغرفة.

في اجتماعات كهذه كان يجلس سلطان إلى رأس الطاولة، وأنا على يمينه وأمنة على يساره. هذه المرة، جلست آمنة مكان سلطان، أمر مفهوم، ما لم يكن مفهوماً هو أنها جعلت شندويلي على يمينها، وطلبت مني تغيير مقعدي لأكون أمامها.

نضع آمنة أعداءها أمامها، ليس فقط لتنتبه لحركاتهم الغادرة، بل لتتمكن من إسقاطهم بوضوح. الحراس الشخصيون الراقفون في صف، كل خلف الرأس المسؤول عن حمايته، لماذا يتأهبون لانتشال الأسلحة ونحن في مكان مؤمن غير مكشوف إلا إذا كانوا يتوقعون غدرًا؟

التقت عيناوي بعيني شندويلي، وابتسم لي نصف ابتسامة، ابتسامة من أوقع فريسته في المصيدة. كيف عرف شندويلي أنني توليت مهمة التنظيف وراء هادي وزعفران بعد أن قتلا هند كما اتهمني في ليموزين الحاج عبد الغني؟ لا أحد يعرف هذه التفصيلة سوى زعفران وهاضي وأمنة.

تبًا شندويلي هو الطعم الذي استخدمته آمنة لتحس مياه الرجال، لتعرف ما في قلوبهم، جعلت شندويلي يستخدم مقتل ابنته ليقود حملة لقتلها فترى من سيوافقه ومن سيخالفه ثم... قاطع صوت آمنة تفكيري الاستدلالي:

- سعيدة إنكم شاركتوني رؤيتكم، بس أنا عندي رؤية مختلفة خالص.

أجابها الحاج:

- نحب نسمعها.

- أنا وشندويلي هندير السوق كله.

صاح نبيل الأرعن كاره النساء:

- أفندم؟ وده اسمه إيه؟

- ده اسمه احتكار يا بيلي.

رفعت آمنة رأسها وهي تضع مبسم الشيشة الملطخ بحمرة شفتيها في فمها، فانتشل كل حارس شخصي سلاحه من حزامه، ووجه فوهته إلى الرأس المسؤول عن حمايته، ثم ضغط الزناد.

سبابة وزناد، هذا كل ما احتاجت إليه آمنة للتخلص من فطاحل الجريمة المنظمة في مصر فيما لا يقل عن دقيقة.

أجفلت! لكني لم أحاول الفرار، تفاجأت بأن الشعور الوحيد المسيطر عليّ في هذه اللحظة هو الانزعاج من دماء الحاج عبد الغني وأسعد مخيون التي لطخت وجهي ونظارتي حتى انقطع أزيز الرصاص من دون أن ألحق بالرؤوس الأربعة.

اختنقت من رائحة البارود، فأخرجت من جيبى بخاخة الربو، وأخذت منها نفّسًا، ثم أعدتها إلى جيبى بهدوء. استغللت الصمت الذي لا يقطعه سوى كركرة شيشة آمنة وحركة الحراس وهم يحملون جثث رؤسائهم ويجرونها خارج الغرفة، بينما يدخل عمال نظافة الفيلًا بأدوات تنظيف الدماء كما اعتادوا.

أخرجت منديلي الحريري من جيب سترتي لأنظف نظارتي، بينما يوجه شندويلي الرجال ويشرح لهم كيف سيدفنون الجثث في

الحديقة الخلفية. خرج معهم وبقيت أنا وآمنة على قطبي الطائرة
المسطحة بدماء وأنسجة أمخاخ رجال تشاركنا عداوتهم على مدى
عقود.

أعدت ارتداء نظارتي، ثم دخلت خادمة، ووضعت كوب ماء
شفافاً أمامي وخرجت.

قالت آمنة لي:

- بل ريفك!

تجرت كوب الماء كله على دفعة واحدة، ثم سألتها بثبات من
اقرب من الموت مئات المرات من دون أن يمسه:

- يعني ما قتلتيش زيهم؟

- لأنك مش زيهم، إنت اخترت الحياد، والمحايد في وقت الشدة
أرخص من إنه يموت برصاصي، وأحق من إنه يقعد جانبي.

- الكلام ده لي أنا؟ يعني بعد ما رفضت أكون عصفورة عليك
و...

- إنت مش عصفورة يا عاطف، بس برفضو مش حمامة سلام.
إنت عايز تخلص مني من بدري.

- اللي قالك الكلام ده مش...

- أهدو عيب الرجالة، يتركزوا على الصورة الكبيرة وتسيبوا
التفاصيل، مع إن مفيش حاجة بتفصح نوايا أمثالك غير
التفاصيل.

لغشت فية من الدخان إلى أعلى، لم أمرني:

لغشت لغسك، وغش غشك قبل ما نعشي، وسلم مغايح

المصحات وفيلاً المعادي وكل حاجة متسجلة باسمي،
لشندويلي. اعتبر أن خروجك من الفيلاً على رجائك هو
مكافأة نهاية خدمتك لعيلة الدغش.

رفض عقلي تقبل أنني لم أعد أملك سوى شقة جاردن سيتي
وبيت المطرية وسيارتي الزلموكة التي أفودها في طريقي لإحدى
مصحاتي لجمع متعلقاتي الشخصية. لن نكون هذه نهايتي، لطالما
سقطت وعاددت النهوض، أحتاج فقط إلى فترة لأنظم أفكاري، ثم
سأعود إلى المكانة التي أستحقها.

رن هاتفي، فوصلت إلي رسالة من سعاد تقول:

الحراس لموا كاميرات المراقبة وسابوا البوابة
هتيجي البيت؟

تباً! لطالما تساءلت إلام ستؤول الأمور بيني وبين سعاد؟ تورطت
في هذا الوضع بسبب قرار انفعالي أخذته في لحظة انكسار وشفقة
على الذات، ثم لم أجد تنمة مثالية لهذه التمثيلية فتركتها تستمر
لتسعة عشر عامًا.

لا أملك الآن رفاهية التثبيت بسعاد، سأخلي الفيلاً غداً كما انفقت
مع شندويلي، وأجبرها على السفر إلى بيت أهلها في المنيا، وأنقل
أنا إلى بيت المطرية الذي لا أرتاح للنوم في غيره وسط أولادي الذين
لايت بهم عن الخطار عالمي الملعون.

رن هاتفي برقم غريب حاول الاتصال بي عدة مرات في أثناء

اجتماع النقابة. أجبت فكان المتصل فرج ابن أبو قردة، رفيق تعاستي
وزنراتي.

تربى فرج، أو زعفران كما فُضِّل سلطان أن يناديه، مع أولادي
في بيت المطرية الذي ملك أبوه شقة فيه قبل أن أشتري البيت كله
وأجعله يليق بي وبأولادي. تولت معالي رعايته هو وشقيقه في سنين
حبسنا، حتى امتد عوده وصار من رجالي أنا والدغش، ولم يخفق
قَطُّ في أي مهمة أوكلناها إليه، ولكنه صار مؤخرًا نذير شؤم ولا ينقل
إليَّ إلا المصائب.

- إيه يا بوز الإخص؟

- قطز كان في أوضة نومك.

- إنت بتقول إيه يا بجم!

الحق تلميحه بجملة أنقذته من غضبي:

- تقريبًا كان يسرق حاجة تخصك، شُفت في إيدته شنتطة جلد
قديمة.

تَبَّأ لك يا قطز، ولك يا نوح، ولك يا سعاد يا أصل الشرور!
أخذت نفسًا عميقًا، أما كان لقطز الجبان هذا أن يقتحم بيتي قبل
أن تطردني أمنة من مملكتها!

- أخلصك عليه يا دكتور؟

- أنا معيش سيولة دلوقتي و...

- مش عايز فلوس، عايزك تشحني بره البلد. أنا مش ناوي أتشتق
زي أبويا، ولا اتدبح زي أخويا اللي حرمتني من دفته.
ما زال الغي يعاتبني، لأنني تركت جثة نوامه في شقة الزمالك،

لا يفهم أنني فعلت ذلك حتى أجعل الضباط يظنون أنهم عثروا على
قاتل زميلهم، فأحميه من اللحاق بمصير أبيه.

- أنا مش عايز أخلص على الواد الخنفس ده يا فرج. عندي
فكرة ثانية.

يتشابه المجرمون في طرق سقوطهم، ولكنهم يختلفون في
أساليب انتقامهم.

هذه كانت حكاية سقوطي خارج نقابة الجريمة المنظمة، وهذا
سيكون أسلوب انتقامي من قطز أنور المحمدي.



أتعرف كيف بدأ فناء البشرية من حي المطرية؟

تحكي الميثولوجيا المصرية القديمة أن رع ذهب إلى المطرية التي كان اسمها آنذاك «أون»، وإذ به يفاجأ بأن الناس يسخرون من شيخوخته. قرر أن يعاقب المستهزئين بقوته، فجسّد غضبه في لبوة أسماها «سخت» التي راحت تنهش المذنبين بسخط نائر لا لجام له. تاب الناس وتضرعوا إلى رع حتى يرحمهم من براثن سخت، فرق قلبه وأمرها بالتوقف، ولكن متقمته التي أدمنت الدماء لم تقعه، فأعد مكيدة لإنقاذ البشر منها.

خلط براميل من الخمر بمواد كيميائية جعلت له قوام ورائحة ومذاق الدم ثم استدرجها لشربه. تجرعت الدم المغشوش حتى ثملت، فحولها من سخت اللبوة ربة الغضب والانتقام إلى باستت القطرة ربة الحنان والمرح.

أضحكتني هذه المصادفة، فكما كانت رحلة رع إلى حي المطرية سبباً في شبه نهاية البشرية، صارت رحلتي إليه سبباً في شبه نهاية

مسيرتي المهنية! انتبه صلاح لضحكتي الخافتة، بينما يملأ عامل البنزينة خزان سيارته، فصاح قائلاً في نفس واحد وبإيقاع سريع:

- بتضحك يا بارد يا ساقع يا متلعج!

- هتغني راب ولأ إيه؟

أمطرني بوابل من السبات الاعتراضية على خططي الأخرق الذي سيفودنا إلى التهلكة حتى اقترب عامل آخر لتنظيف زجاج العربية، فزجره صلاح بحركة فظة، ثم استأنف توبيخه لي:

- لو عاطف لقي الكاميرا وسلم التسجيل للنيابة هنروح في حديد. فتحت زجاجة المياه التي اشتريتها من سوپر ماركت البنزينة، وفتحت باب السيارة، وتدلّيت للخارج لأشطف شعري، وأتخلص من رائحة وإحساس الجل المقيتين.

جففت رأسي بمناديلي وأنا أقول:

- إحنا لسه مش متأكدين إن الكاميرا وقعت جوه بيته، ممكن تبقى وقعت في الشارع. ويعدين وشوشنا مش طالعة، وكده كده هو مش هيقدم التسجيل للنيابة لأنه بيدينه، إحنا لقينا في شقته الشنطة اللي...

- الشنطة اللي ما فتحنهاش غير في العربية ومن غير الكاميرا، يعني التسجيل مش بيثبت غير إنك دخلت بيته وسرقته وهبأت زي حرامية الغسيل.

اعتدلت في جلستي، وأغلقت باب السيارة، وتفقدت شعري المبلل الذي انسدل على جبيني، فسألت صلاح:

- معاك مشط؟

- تصدق إني حمار بديل عشان مشيت وراك!

وقف عامل البنزينة عند نافذة صلاح، وقال:

- نلتمية وأربعة وثمانين جنيه.

مد صلاح يده نحوي على الفور، وقال:

- إيدك على ربعميت جنيه يا توفى يا مكرم يا اللي مش باينتك مستقبل.

أعطيته المبلغ الذي طلبه مستغرباً من أن صلاح سترك إكرامية، ولكنه وضع المبلغ في محفظته، وأخرج منها ثلاثمائة وأربعة وثمانين جنيهًا بالضبط أعطاها للعامل، واحتفظ بالفارق الزهيد لنفسه.

لعت بخله في سري، بينما يدير المحرك قائلاً:

- نسكويك، إنت على قلبك مراوح كده عشان بابا اللوا هيخرجنا إحنا الاثنين منها، صح؟

- أبويا لو عرف هيقدمننا للمحاكمة العسكرية. أنا على قلبي مراوح

عشان على حق. تعيش جبان ولأتموت شجاع يا صلاح؟

- أنا كده هموت جبان يا موهوم يا ابن الموهوم! انزل من العربية يالا، أنا لا شُفتك، ولا شاركت معاك في أي حاجة.

أوقف السيارة فجأة فدعس السائق الذي يخلفنا بوقه بغضب، ولكن صلاح ضرب بوقه بإيقاع يساوي سبة يعرفها السائقون كلهم. فتح بابي وأمرني بالتزول، فنزلت من السيارة حاملاً الحقيبة وأنا أقول بعصبية:

- يعني بتنزلي من اللامبورجيني، ده أنا اللي مفولك تانك الضفدعة اللي راكبها يا معفن.

- بنغلط في الدايو بعد ما كسيتك ولبستك قميصي يا جعير!

خلعت قميصه اللامع المقرف بكبرياء وكورته وألقته نحوه، ثم صفقت باب سيارته، فشتمني. انطلق بأقصى سرعة، وتركني في الشارع بفانلتي النصف كم البيضاء السمكية، أدعو الله أن يثقب خزانة، ويفقأ إطاراته، ويشتت أسفلته، ويسلط عليه رادارات الطرق كلها.



أخذت سيارة أجرة سائقها مولع بأغاني محمد محيي، فكانت فقرة عظيمة من الـ«يا ويلى ويلى ويلى يا بابا»، والكثير من أغاني البكاء على اللبن المسكوب، حتى وصلت إلى سيارتي المصطفة في الشارع الخلفي لقسم شرطة قصر النيل.

ارتدبت التيشيرت الذي أتركه في السيارة للطوارئ، ثم جلست في مقعدي، وأسندت جيني إلى المقود، وأغلقت عيني في هدنة قصيرة من كل ما حدث. أشعلت سيجارة، وفتحت جزءاً صغيراً من النافذة يكفي لخروج الدخان، ثم ألقيت نظرة على الحقيبة. حملتها من فوق المقعد المجاور لي ووضعتها على حجري، ثم فتحتها لأتفقد باقي محتوياتها قبل أن أعود إلى البيت، فكان أول ما وقعت عليه يدي هو أحد الأظرف البيضاء المتخمة بصور محمضة.

استنتجت من موضة الأزياء وزينة السيدات وتصنيفات شعورهن، أنها صور تنتمي إلى مقتبل الثمانينيات. صور لحارات، وبانعين في الشوارع، صور لأفراح، لأعياد ميلاد، لحفلات سبوع، كلها مناسبات عائلية قديمة وعاطف غير موجود فيها ما عدا صورة واحدة.

لا أظن أن سنه تخطت أواخر العشرينيات وقت التقاطها، يحمل
رضيعةً، وأرى في طرف الصورة ما بدا لي كنصف وجه زوجته
معالي في شبابه، ويجاور عاطف شاب في مثل عمره يهديه طوقاً
تدلى منه علب سجائر مارلبورو حمراء مستوردة، وكلاهما يضحك
كصديقين مقربين.

دققت النظر في وجه صديق عاطف البشوش ففغرت فاهي في
عدم تصديق!

رمح خيالي، وراح يرتع في جنبات مخي يرسم لي مسرحيات
سوداوية ممتلئة بالخيانة والفساد، فتجمدت في مكاني، إلى درجة
أن سيجارتي أكلت نفسها، ولسعت أنملتي.

أذابت لسعة السيجارة جمودي، فألقيتها من النافذة، ثم أخرجت
هاتفي من جيبي، واتصلت بالشخص الوحيد الذي يملك شيئاً قد
يؤكد شكوكي وحينها سأفقد عقلي، أو ينفيها تماماً ويستريح قلبي:
- فادي، عايزك في مسألة حياة أو موت.

- فيه إيه يا برو؟

- فيه ملف قضية على كمبيوتر أبوك، عايزك تطبعلي منه نسخة.

شرحت لفادي كل ما حدث في بيت معالي حتى يفهم سبب
طلبي، ويوافق على انتهاك خصوصية أرشيف أبيه. اتفق معي على
ألا أتحرك من مكاني حتى يسلمني الملف الذي طلبته، ولكنه تأخر
عن ميعادنا بما يزيد على ساعة متجاهلاً رسائلي ومكالماتي، ولولا
أنني لا أود أن أرطم باللواء رشوان لتزلت أبحث عنه في القسم.

أخذت هاتفي وانشغلت بكتابة رسالة لاستعجل فادي، حتى
شعرت بشخص يفتح باب المقعد المجاور لي ويجلس داخل
سيارتي، ثم يصفق الباب. ألقى الهاتف على التابلوه بمجرد أن
أدركت جلوس اللواء رشوان في سيارتي وهو ينظر إليّ بغضب،
فاستنتجت أن فادي لم يتخلّ عني، لا بد أن الغبي كشف أمره وهو
يحاول نسخ الملف من مكتب أبيه.

ألقيت سيجارتي من النافذة احتراماً للواء رشوان الذي عاتبني
بانفعال:

- بتشغل ابني مرشد عليّ يا قطز؟

- العفو يا سيادة اللواء، ده أنا...

- إنت خلّيت فيها لوا ولا زفت، إيه اللي عملته إنت وصلاح عند
مرات عاطف ده؟

فادي الواشي الجبان!

- مين الجبهذ اللي حط الخطة دي؟

وددت أن أقول صلاح، ولكنني لن أشي بزيملي الذي يصرف
على أربعة صبيان، لن يتحمل خفض مرتبه أو خسارة وظيفته مثلي.

- أنا اللي حطيتها يا سيادة اللواء.

- إنت بدأت تتعاطى حاجة يا ابني؟ ما هو مش معقول يكون ده
تخطيط واحد فايق. عارف أبوك لو وصله إنك اقتحمت بيت

بدون أمر تفتيش ولا ضبط وإحضار هيعمل فيك إيه؟

- أنا ما اقتحمتش البيت، هي اللي دخلتني طواعية.

- واتحبست في الدولاب هي وابنها برضو طواعية؟

لم أجد ما يبرر موقفني، في الحقيقة، لم أبالي بتبريره، أنا أبحث
عن الحقيقة، وأرد أن أسجن كل من ساهم في محاولة قتل نوح،
فليشتقوني إذا شاءوا!

ظل يرمقني بصمت، ثم سألني بهدوء:

- إيه القضية اللي عايز تثبتها؟

- إن عاطف الهمشري خليفة سلطان الدغش.

توقعت أنه سيلوي فمه، ويتسم شامتًا كما يفعل كلما أراد
الاستهزاء ببلادة أحد رجاله، ولكنه نظر إليّ بجدية، وقال:

- اقنني بفرضيتك.

- لو خدت الملف اللي طلبته من فادي وذاكرته كويس أكيد
هلاقي فيه الأدلة القاطعة اللي هقدر أقنع حضرتك والنيابة
ببها، بس حضرتك نحتني عن القضية، ومش مقتنع بأن عاطف
له يد في أي حاجة.

- مين قالك إني مش مقتنع بتورط عاطف؟

فأجاني بقوله هذا بنبرة متواطئة ونظرات متأمرة، فاعتدلت في
جلستي، وصببت جل اهتمامي على كل ما سيقوله.

- أنا مش مقتنع بأننا نحسسه إننا واخدين بالناس منه. تحقيقنا معاه
في القسم كان أكبر غلط. اتهامه مباشرة من غير دليل قاطع
هبخليه ياخذ حذره ويخبي عنا الأدلة اللي هتدينه. فاهم
ولأوضح أكثر؟

أحببت رأسي بنعم، فمد يده في جيب سترة بدلتة الداخلي، وأخرج
منه ملفًا مثنيًا لنصفين ورماء على حجري.

ألقيت نظرة خاطفة على الملف المنسوخ باللونين الأبيض
والأسود، وقال قبل أن أنبس بينت شفة:

- لو كنت طلبته مني كنت هديهولك.

- أنا آسف يا سيادة اللوا.

- جيل معفن، فاكربين نفسكم فاهمين كل حاجة وإحنا بهاييم.

أفلتت مني ضحكة، تلقاها بابتسامة مقتضبة، ثم قال:

- الحرز اللي معاك ده لازم ظابط يلاقيه في بيت عاطف. مفهوم؟

* * *

أحترف البحث، ولا أجيد اختيار موضوعه!

اعتدت أن يوجهني نوح، يلفت نظري إلى تفصييلة، أو يشاركني
فكرة تدور في عقله لا يملك هو الصبر لدراستها، فأنطلق باحثًا عن
المصادر وأربطها بمعلومة مرت بين سطور كتاب قرأته أو فيلم وثائقي
شاهدته، ولكن الليلة، اخترت موضوع البحث بمفردي.

أنثر أوراق ملف القضية الذي أهداني اللواء رشوان إياه على طاولة
السفرة، حياتي تعد لي الكاكاو وتركني أذاكر بهدوء.

أخرج إلى الشرفة لأدخن، حياتي تنضم إليّ، وتضع أمامي طبقًا
من الساندويتشات ثم نعود إلى الداخل. أسجل ملاحظاتي، أراجع
معلوماتي، حياتي تناولني فنجان قهوة أرتشفه على دفعتين، أخطط
النقاط اللافتة.

تقبّلني حياتي، ثم تخلد إلى النوم. أبقى في الصالة أقرأ، أبحث،
أتأكد، أقارن، أنقد، أحلل، أهدم المسلمات، أعيد التوصل إلى
الاستنتاجات، أقارن الاستنباطات حتى تطلع شمس الصباح، ويفرد

كروان مخلوق في الأفق، وتفر مني دموعي حين أتوصل إلى حقيقة
أنني ونوح خُددنا لتسعة عشر عامًا!

* * *

اتصلت بأبي عشرات المرات، ولكن لم يُجِبني، فذهبت إلى بيتنا
في جاردن سيتي.

لم أجد سيارته في جراج العمارة، فأدركت أن اليوم الجمعة،
وعرفت أين سأجد والدِّي. صففت سيارتي في شارع جانبي متفرع
من ميدان طلعت حرب، ونزلت حاملاً ملف القضية.

ألمت شمس الصباح عيني المرهقتين، فارتديت نظارتي الشمسية
وأنا في طريقي إلى عمارة جروبي ذات الواجهة نصف الدائرية التي
يحتل طابقها العلوي الأول مقر النادي اليوناني منذ ما يزيد على
قرن وربع.

تخطيت المدخل الرئيسي المزخرفة أرضيته بفسيفساء تأخذ نمط
خلية النحل، وركبت المصعد الخشبي الكلاسيكي. تأملت هيتي
في مرآة المصعد، فهذبت شعري، وهندمت ياقة قميصي وأنا أقول
لنفسي: لا تجزع من مواجهة والدك يا قطز، لم تُعد طفلاً، اليوم أنت
أوديب الملك، أنت الباحث عن الحقيقة.

وصلت إلى النادي الذي اعتادت أسرتنا الألفي والمحمدي تناول
فطورهما فيه قبيل صلاة كل جمعة.

دفعت رسوم الدخول، وألقيت التحية على المضيف الذي يعرفني
منذ طفولتي، ثم تخطيت صالة المطعم ذات الأرضيات الخشبية
والكراسي الكلاسيكية والمرايا المؤطرة على الطراز القوطي والبيانو

الكلاسيكي الذي لطالما لَهَا نوح بمفاتيحه، متجاهلاً توبيخ أمي له،
وخرجت إلى التراس حيث المظلات والطاولات المستديرة التي
يتماهي لونها مع علم اليونان الأبيض والأزرق.

وقفت أبحث عن والدِّي حتى وجدتهما جالسين إلى طاولتهما
المعتادة يتأملان تمثال ميدان طلعت حرب وعماراته ذات الطراز
النيوكلاسيك والنيوباروك. أمي تأكل زبادي يونانيًا بالعسل والشوفان،
وأبي يتناول آخر قطعة من السجناكي بالأعشاب، وكلاهما يتشارك
طبق فاكهة كبيرًا.

كانا مستغرقين في الحديث بصوت خافت، إلى درجة أنهما لم
يتبها لوجودي إلا حين جذبت الكرسي لأجلس على يمين أمي،
ولأحتل القطب الآخر للطاولة قبالة أبي وأنا أقول:

- صباح الخير يا بابا، بحاول أوصل لحضرتك من بدري.

تفاجأت أمي من وجودي، ولكن أبي أنهى مسح فمه من بقايا
طعامه، وأجابني بلامبالاة:

- معنى إني مردتش، إن كلامك معايا غير مرغوب فيه.

لا طاقة لي على تلقي أي توبيخ الآن، فتحت ملف القضية،
الذي اهترأت أطراف أوراقه من فرط دراستي له، ووضعت أمامه
وأنا أقول:

- عندي أسئلة تخص قضية حضرتك كنت ماسكها.

أخرج نظارة القراءة من حافظتها، فارتداها، وألقى نظرة خاطفة
على الملف الموضوع أمامه. حكَّ مقدمة شعره الغزير، ثم خلع
نظارته وألقاها على الطاولة، وهو يسألني بنبرة رسمية:

- سيادة اللوارشوان عنده علم بأن معاك نسخة من ملف قضية

يحيى؟

نظرت أمي إلى أبي مستفهمة، ولكنه لم يشرح لها أي شيء، بل ظل يحدق إليّ حتى قلت بثقة:

- ممنوع أذاكر شغل والدي القديم؟

أتى النادل بقميصه الأبيض الناصع، وحمل الطبق الذي فرغ أبي من تناوله، ثم وضع أمامه فنجان قهوته المعتادة، وأمام أمي كوب عصير برتقال. انتظرت أمي رحيل النادل، ثم قالت لأبي من دون الالتفات إليّ:

- الأفضل ما نتكلمش في الأمور دي في مكان عام يا أنور.

أشار بذقنه نحوي وهو يحمل فنجان قهوته عن طبقه:

- قوليله.

التفتت أمي صوبي بطرف عينها وأمرتني:

- ارجع للست هانم بتاعتك، وسيينا نفطر بهدوء.

- أنا مش متحرك قبل ما بابا يشرحلي إيه اللي خلى أبو قرده يسلم

نفسه بعد ما قتل أونكل يحيى؟

ابتلع أبي ما ارتشفه من فنجان، وسألني:

- إيه اللي خلى سالم عبد الرحيم يسلم نفسه بعد ما قتل كل اللي

في الكافية؟

- دي نفرة، ودي نفرة.

سحبت ورقة نسخت بحبر رديء، أريتها له وقلت وأنا أشير إلى

التفاصيل التي أذكرها:

- تقرير الطب الشرعي موضح إن كان فيه بصمة غريبة على كويابة

فيها بقايا عصير ليمون باللبن ما تطابقتش مع بصمات أبو قرده،

أنا متأكد إنني لو قارنتها ببصمة هادي الحكيم هتلاقي تطابق.

زفرت أمي بضيق، وقالت لأبي:

- النقاش ده مكانه مش هنا!

أمسك يدها، وسألني بثبات انفعالي لم تزعه أي من أسئلتي:

- قارنها، أنا مش الطب الشرعي عشان أساعدك في المسألة دي.

- بس تقدر تساعدني في المسألة دي.

وضعت أمامه الصورة التي وجدتها في الحقيبة الجلدية في شقة

معالي، صورة لأونكل يحيى في شبابه في فترة الثمانينيات مع عاطف

في مشهد فسرتة على أنه يجامله في سبوع ابنه البكري بعلب سجائر

مستوردة.

أمسك الصورة وراح يتأملها هو وأمي، عبست أمي بينما أعاد أبي

الصورة إلى مكانها برفق، كأنها أثمن ما أمسكته يدها.

حك طرف عينه اليسرى هنيهة وهو ينظر باتجاه ميدان طلعت

حرب، ثم أدار رأسه، ونظر إليّ أخيراً وهو يقول:

- مالها الصورة؟

- يعني مش واخد بالك مين اللي مع أونكل يحيى فيها؟

رأيت تعبيرات الاستنكار والازدراء على وجه أمي وهي تقول

لي منفعلة:

- إنت هستجوب باباك؟ قوم بينا يا أنور، الظاهر إنه اتجنن على

الأخر.

- تصدق إني حمار بديل عشان مشيت وراك!

وقف عامل البنزينة عند نافذة صلاح، وقال:

- نلتمية وأربعة وثمانين جنيه.

مد صلاح يده نحوي على الفور، وقال:

- إيدك على ربعميت جنيه يا توفى يا مكرم يا اللي مش باينتك مستقبل.

أعطيته المبلغ الذي طلبه مستغرباً من أن صلاح سترك إكرامية، ولكنه وضع المبلغ في محفظته، وأخرج منها ثلاثمائة وأربعة وثمانين جنيهًا بالضبط أعطاها للعامل، واحتفظ بالفارق الزهيد لنفسه.

لعت بخله في سري، بينما يدير المحرك قائلاً:

- نسكويك، إنت على قلبك مراوح كده عشان بابا اللوا هيخرجنا إحنا الاثنين منها، صح؟

- أبويا لو عرف هيقدمننا للمحاكمة العسكرية. أنا على قلبي مراوح

عشان على حق. تعيش جبان ولا تموت شجاع يا صلاح؟

- أنا كده هموت جبان يا موهوم يا ابن الموهوم! انزل من العربية يالا، أنا لا شُفتك، ولا شاركت معاك في أي حاجة.

أوقف السيارة فجأة فدعس السائق الذي يخلفنا بوقه بغضب، ولكن صلاح ضرب بوقه بإيقاع يساوي سبة يعرفها السائقون كلهم. فتح بابي وأمرني بالتزول، فنزلت من السيارة حاملاً الحقيبة وأنا أقول بعصبية:

- يعني بتنزلي من اللامبورجيني، ده أنا اللي مفولك تانك الضفدعة اللي راكبها يا معفن.

- بنغلط في الدايو بعد ما كسيتك ولبستك قميصي يا جعير!

خلعت قميصه اللامع المقرف بكبرياء وكورته وألقته نحوه، ثم صفقت باب سيارته، فشتمني. انطلق بأقصى سرعة، وتركني في الشارع بفانلتي النصف كم البيضاء السمكية، أدعو الله أن يثقب خزانة، ويفقأ إطاراته، ويشتت أسفلته، ويسلط عليه رادارات الطرق كلها.



أخذت سيارة أجرة سائقها مولع بأغاني محمد محيي، فكانت فقرة عظيمة من الـ«يا ويلى ويلى ويلى يا بابا»، والكثير من أغاني البكاء على اللبن المسكوب، حتى وصلت إلى سيارتي المصطفة في الشارع الخلفي لقسم شرطة قصر النيل.

ارتدبت التيشيرت الذي أتركه في السيارة للطوارئ، ثم جلست في مقعدي، وأسندت جيني إلى المقود، وأغلقت عيني في هدنة قصيرة من كل ما حدث. أشعلت سيجارة، وفتحت جزءاً صغيراً من النافذة يكفي لخروج الدخان، ثم ألقيت نظرة على الحقيبة. حملتها من فوق المقعد المجاور لي ووضعتها على حجري، ثم فتحتها لأتفقد باقي محتوياتها قبل أن أعود إلى البيت، فكان أول ما وقعت عليه يدي هو أحد الأظرف البيضاء المتخمة بصور محمضة.

استنتجت من موضة الأزياء وزينة السيدات وتصنيفات شعورهن، أنها صور تنتمي إلى مقتبل الثمانينيات. صور لحارات، وبانعين في الشوارع، صور لأفراح، لأعياد ميلاد، لحفلات سبوع، كلها مناسبات عائلية قديمة وعاطف غير موجود فيها ما عدا صورة واحدة.

- سيادة اللوارشوان عنده علم بأن معاك نسخة من ملف قضية يحيى؟

نظرت أمي إلى أبي مستفهمة، ولكنه لم يشرح لها أي شيء، بل ظل يحدق إليّ حتى قلت بثقة:

- ممنوع أذاكر شغل والدي القديم؟

أتى النادل بقميصه الأبيض الناصع، وحمل الطبق الذي فرغ أبي من تناوله، ثم وضع أمامه فنجان قهوته المعتادة، وأمام أمي كوب عصير برتقال. انتظرت أمي رحيل النادل، ثم قالت لأبي من دون الالتفات إليّ:

- الأفضل ما نتكلمش في الأمور دي في مكان عام يا أنور. أشار بذقنه نحوي وهو يحمل فنجان قهوته عن طبقه:

- قوليله.

التفت أمي صوبي بطرف عينها وأمرتني:

- ارجع للست هانم بتاعتك، وسيينا نفطر بهدوء.

- أنا مش متحرك قبل ما بابا يشرحلي إيه اللي خلى أبو قرده يسلم نفسه بعد ما قتل أونكل يحيى؟

ابتلع أبي ما ارتشفه من فنجان، وسألني:

- إيه اللي خلى سالم عبد الرحيم يسلم نفسه بعد ما قتل كل اللي في الكافية؟

- دي نفرة، ودي نفرة.

سحبت ورقة نسخت بحبر رديء، أريتها له وقلت وأنا أشير إلى التفاصيل التي أذكرها:

- تقرير الطب الشرعي موضح إن كان فيه بصمة غريبة على كويابة فيها بقايا عصير ليمون باللبن ما تطابقتش مع بصمات أبو قرده، أنا متأكد إنني لو قارنتها ببصمة هادي الحكيم هتلاقي تطابق. زفرت أمي بضيق، وقالت لأبي:

- النقاش ده مكانه مش هنا!

أمسك يدها، وسألني بثبات انفعالي لم تزعه أي من أسئلتي:

- قارنها، أنا مش الطب الشرعي عشان أساعدك في المسألة دي. - بس تقدر تساعدني في المسألة دي.

وضعت أمامه الصورة التي وجدتها في الحقيبة الجلدية في شقة معالي، صورة لأونكل يحيى في شبابه في فترة الثمانينيات مع عاطف في مشهد فسرتة على أنه يجامله في سبوع ابنه البكري بعلب سجائر مستوردة.

أمسك الصورة وراح يتأملها هو وأمي، عبست أمي بينما أعاد أبي الصورة إلى مكانها برفق، كأنها أثمن ما أمسكته يدها.

حك طرف عينه اليسرى هنيهة وهو ينظر باتجاه ميدان طلعت حرب، ثم أدار رأسه، ونظر إليّ أخيراً وهو يقول:

- مالها الصورة؟

- يعني مش واخد بالك مين اللي مع أونكل يحيى فيها؟

رأيت تعبيرات الاستنكار والازدراء على وجه أمي وهي تقول لي منفعة:

- إنت هستجوب باباك؟ قوم بينا يا أنور، الظاهر إنه اتجنن على الآخر.

همت أن تنهض، لكن أبي جذبها من رسخها بلطف، وربت على مرفقها لتبقى وهو يحدق إليّ، ويأمرني بهيبة كانت تجعل قلبي يقفز إلى أذني من فرط الخوف فيما مضى، لكنها الآن جعلتني أدرك أنه مذنب.

- خليك راجل مباشر ومحترم وقولي عايز إيه.
- إيه الاتفاق اللي كان بينك وبين الواد بتاع الليسيه؟
- لو متفضل تكلمني بالألغاز فأنا هنسحب من المناقشة الطفولية دي!

- هادي لما عمل نفسه عميد من النجدة قال لنوح سلملي على أنور، وقوله الواد بتاع الليسيه بيقولك إننا لسه على الاتفاق اللي بينا. إيه الاتفاق اللي كان بينك وبين مجرم زيه؟
- إنت مدرك معنى سؤالك ده؟

- وإنك مدرك إن مفيش أي دليل على إن أبو قردة هو القاتل غير اعترافه مع إن وفقاً لشهادة طنط سعاد ونادية فاللي قتلوا أونكل يحيى كانوا اتنين؟

أجابت أمي بعصبية بالنيابة عن أبي:
- ما دام باباك قالك القاتل أبو قردة يبقى تسكت وما تجادلهموش. وبعدين أنا فاكدة كريس إن يحيى الله يرحمه هو اللي قبض عليه، فأول ما الجربوع ده خرج من السجن، انتقم منه.
- لو الكلام ده صحيح، ليه بابا ما حطش أبو قردة في دايرة الاشتباه من الأول؟

وجهت باتي حذبي إلى أبي مباشرة:

- ليه قفلت تحقيقك قبل ما تلاقي القاتل الثاني؟ كنت ماشي ورا خيط ممتاز خللك تشتبه في هادي و...
أجابني بحنق ولكن من دون أن يرفع صوته:

- مفيش أي حاجة تدل على وجود قاتلين غير بصمة مجهولة وشهادة نادية وسعاد وهم تحت تأثير الصدمة، ولما استجوبت سعاد ثاني بعد ما حالتها اتحسنّت شوية اتعرفت على أبو قردة، ونفت أنها شافت قاتلين.

أبي براوغني!
- أنا مش مقتنع.
قالت أمي:
- عنك ما اقتنعت!

أشار إليها أبي بأن تهدأ، أعتقد لأنه رأى مثلي أن إصرارها على إنهاء النقاش بهذا الأسلوب المتسلط يؤكد لي أنهما يخفيان مصيبة، فقلت له:

- كلامك بيدل على أن فيه سببين ملهمش تالت خلوك تقفل القضية بالطريقة دي، يا إما كنت مصدوم في اللي حصل لأونكل يحيى فعا خدتش بالك من إن اللي مسكته كان مجرد كبش الفداء، يا إما...

استثقلت نطق ما يدور في ذهني، ولكن أبي قرب يديه إلى الطاولة، وشبك أصابعه، ثم رفع حاجبه، وسألني بنبرة متحدية مستفزة:
- يا إما إيه يا قطز بيه؟

- يا إما هادي لقي تمن لسكوتك عن جريمته.

باغتني أمي بصفعة مدوية أسقطت نظارتي الشمسية عن وجهي،
وجعلت الزبائن والنُّدل في التراس يحدقون إلى طاولتنا.
قبض أبي على يد أمي التي اغرورقت عيناها بالدموع، وصاح
فيها معاتبًا:
- نجوى!

تدفقت الدموع من عيني أمي فانهارت باكية، وأنا لم أتحرك من
مكاني، بقيت أحدق إلى الكف التي صفعتني. هذه الصفعة الشرسة
المباغنة لم تكن صفعة أمي التي علمتني الأمانة والصدق، هذه صفعة
من أدركت أن ابنها كشف خيانتها هي وزوجها لصديق عمرهما.
حاولت تخطي الصدمة وتجاهل إحراج رؤية الجميع لضرب أمي
لي في هذه السن، ثم ملأت لرفع نظارتي عن الأرض، وبدأت ألملم
الملف من فوق الطاولة لأرحل، ولكنها جذبتني من يدي حتى لا
أنهض، وقالت بصوت خفيض يتخلله البكاء:

- عارف إيه تمن سكوت باباك؟
أومات بالنفي والعرق البارد يدثرنني، بينما همس أبي إليها:
- مفيش داعي يا نجوى!

تجاهلت طلبه، واندفعت تحكي:
- إن هادي يسيكم عابشين. اللي إنت فاكركه رشا باباك هو اللي
خبطك بالعربية إنت ونوح لما كتوا راكبين العجل عند قصر
علي باشا إبراهيم عشان يهددنا بكم، ولما باباك وقفله، خطفه
وعذبه زي مجانين الأفلام الأمريكياني وخذ منه عينه.
قاطعها أبي بيعض الاحتداد:

- كفاية!

- سيبني أفوق البيه اللي جاي يشكك في ذمتنا. إحنا خيينا عنكم
يا قطز الشر والعذاب اللي عيشناه عشان إنت ونوح ونادية
تفضلوا فاكركين إن الدنيا بخير وما تخافوش من بكرة، ده باباك
عمره ما قلع قميصه قدامك ولا نزل معاك المية عشان يعفيك
من إنك تشوف آثار اللي هادي عمله فيه في بدروم بيته و...
صاح أبي، وضرب الطاولة بكفيه بانفعال شديد:
- كفاية يا نجوى كفاية!

سقط كوب البرتقال على الطاولة، وهوت ملعقة الزبادي على
الأرض محدثة رنة عالية.

هممت أسحب المناديل من على الطاولة لأضعها فوق بقعة
العصير التي تتسع وتكاد تتقطر عند طرف المفروش فتلوث حجر
أبي، لكنه قبض على رسغي، وقال وعينه اليمنى تلمع بدموع القهر:
- من ساعة ما سعاد قالتلي إنك بتدور ورا رجالة عاطف وأنا
كل ليلة بيات في عربيتي تحت بيتك من رعبي عليك. قبل ما
تنورط أكثر من كده، اسأل نفسك، مستعد مراتك وإبنها يبقوا
تمن نزاھتك؟ أنا سألت نفسي السؤال ده من تسعناشر سنة
وإجابتي كانت لا، حتى لو ده هيخايني في نظرك جبان.

نهض عن الطاولة، وخرج من التراس، فانتشلت أمي حقيبة يدها،
وهرولت تتبعه، وتركاني وحيدًا يتولاني العار، والأنظار تترصدني،
والهمسات تحاوطني، ودمائي تغلي في عروقي إثر بركان أسرار
الماضي الذي ثار وحرقني بحممه.

لماذا اتخذت من أوديب الملك قدوة على الرغم من أنني أعرف
أنه حين اكتشف حقيقة أمه وأبيه فقام عينيه من بشاعتها؟
شعرتُ بسائل ساخن أقل لزوجة من المخاط ينزل من أنفي،
فسدوت ثقبه بيدي، وتلطخت أصابعي بلون أحمر قانٍ.
نزف أنفي بسبب ارتفاع ضغطي، لأنني اكتشفت للتو أن والذي
ليسا بالمثالية الأسطورية، ولا الصلابة التي تخيلتها.

* * *

غادرت النادي اليوناني بعد أن أوقفت نزيف أنفي في الحمام.
في أثناء نزولي بالمصعد، استرجعت كل كلمة قالها والدائي،
فأدركت لماذا تداخلت شخصية نوح مع شخصية هاملت في حلمي،
فالتشابه بينهما أعمق من قدرتهما على محادثة الموتى. خرجت من
العمارة، ولا يسيطر شيء على عقلي سوى تخيل العذاب الوحشي
الذي كابده أبي داخل قبو هادي السفاح السيكيوياتي، لعنه الله.
عدتُ إلى سيارتي يتملكني غضب ارتعدت له أوصالي. صحيح
أن هادي قُتل وتشوهت جسده بما يليق بأفعاله السادية المريضة، ولكن
المجرم الثاني الذي وضعه أبي في دائرة الاشتباه، كما جاء في ملف
قضية مقتل أونكل يحيى، ما زال حيًا يرزق، ويقع على عاتقي الآن
أن أقدمه للعدالة.

لديّ خطة ستكون هي آخر محاولاتي قبل أن أحيد عن الصواب
وأسلك مسلك نوح حين أراد الانتقام من قاتل ابن طنط فتون، ولكني
في حاجة إلى شريك لتنفيذها.

فكرت من المجنون بما يكفي لشاركني هذه المجازفة، ويحب

نوح بما يكفي ليخاطر من أجله. اتصلت بالوحيدة التي تنطبق عليها
هذه المواصفات، فأجابتنني بصوتها الحاد العنيف دائم الانفعال:
- عايز إيه على الصبح؟
- عايز أقابلك ضروري يا نادية.



«في الخامسة عشرة من عمري، دعوت قاتل أبي
إلى شرب كوب مثلج من عصير الليمون باللبن».
قاطعت أصوات الأطفال في حَمَام السباحة مراجعتي للجملة
التي استهللت بها أحدث رواياتي.
خلعت نظارتي الطبية، ودعكت عينيّ اللتين أرقهما ضوء الشمس،
متناسية أنني كحلتهما فتلطخت أناملتي بالأسود. انتشلت منديلاً مبللاً
من حقيبتني، مسحت به لطخات الكحل وأنا أفكر في تفاصيل المشهد
الافتتاحي الذي سأحكي من خلاله عن ارتطامي ذات فجر بقاتلي أبي.
ارتديت نظارتي مرة أخرى، وعدت للكتابة، وقبل أن أفكر في
جملة جديدة، سألت نفسي: هل أوصدت باب الشقة بالمفتاح قبل
نزولنا؟ نعم فعلت، سألت طارق هذا السؤال قبل أن نتحرك مع نوح
ودليلة والأولاد إلى النادي، فصعد إلى الشقة ليتأكد بنفسه ويطمئن
قلبي، بينما يسخر نوح من قلقي الزائد.

باب الشقة موصد، هلاً ركزت على الكتابة الآن يا نادية؟
أنهيت ما بقي في فئجان القرفة باللبن على دفعة واحدة، ثم انتشلت
منديلاً من حقيبتني نفضت فيه ما في أنفي المتحسس من رائحة كلور
حَمَام السباحة، وأخيراً، بدأت أعيد ترتيب أفكارني.
روايتي القادمة مستوحاة من مأساة ابنة خالتي التي اكتشفنا أنها
كانت متزوجة من قاتل ماجور من دون أن تعرف، وممزوجة بأحداث
مراهقتي، مما يجعل بطللة الرواية تشبهني إلى حد كبير.
في الواقع، دائماً ما تكون شخصياتي امتداداً لقلبي. فقدت أبي
في سن مبكرة فتيّمت أبطالي كلهم، أمضيت أكثر من منتصف عمري
أعاني اضطراب القلق، فرأت شخصي الحياة من منظور مضطرب
لا يعرف الطمأنينة. رزقني الله زوجاً صبوراً ومتفاهماً، فعوضت كل
أيتامي الهلوعين بشركاء محبين.
أجيد ستر مخاوفي وقمع عقدي، مما يجعل الجميع يغفل عن
أن رواياتي هي إعادة سرد لواقعي، وحده طارق يعرف ما أخفيه وما
أعلنه.
رفعت اللابتوب عن حجري، ووضعت على طاولة النادي
الرخامية الملساء، وقبل أن أستأنف كتابة المشهد الافتتاحي،
اختطفت نظرة من وراء الشاشة لأتأكد من أن نوح ودليلة يمارسان
تمارين السباحة التي أوصى بها طبيباها بحذر، ثم التفت إلى اليمين
حيث حَمَام سباحة الأطفال لأرى إن كان يحيى وياسر يلعبان لعباً
عنيفاً مع طارق.
الحمد لله، كانا يمرران كرة الشاطئ بمرح غير مؤذ، بينما تؤدي

تالا بعض حركات الباليه المائي، فيحرص طارق على الانبهار بكل حركة تنفذها كأنه لم يرها للمرة المليون.

سمحت لنفسني بالاستغراق في سماع كركرة تالا، وقهقهة التوأمين، ومزاح طارق، وضحكات نوح ودليلة. أجد مهدثاتي في سعادة أحبتي.

المهدثات! هل أنا في حاجة إلى شراء المزيد من الأقراص المهدثة؟ كلاً، لن أفكر في اضطراب القلق وأدويته الآن، لن أحتاج إليه في كتابة المشهد التالي.

طلبت من النادلة البشوش زجاجة مياه، ثم فكرت في كيفية استكمال المشهد بنفس الجو العام الذي فرضته الجملة الافتتاحية على القارئ، مزيج من التوحش الإجرامي والكوميديا السوداء.

قلت لأسيا ذات مرة ونحن نتناول الغداء في بيت جدتي إنني أسرد رواياتي كما أحكي عن يومي لأصدقائي، فانتقدتني بفوقيتها الأدبية المعتادة، موضحة أنها لا تحبذ استغلال شخوص روايتها كبوق تمرر منه نبرتها الشخصية، ثم استشهدت بنظرية موت المؤلف.

وددت لو أخبرها بأنني مُت في الواقع مئات المرات، أمن الضروري أن أموت أيضًا على الورق يا أسيا هانم؟

لا أحد يعرف غير طارق أنني بدأت الكتابة بتوصية من معالجتي النفسية، عسى أن أتحرق من صدمتي إذا بُحْتُ بها على لسان شخصي. شاركني طارق الكتابة حين رأى تأثيرها الإيجابي فيّ، ونشر رواياتنا المشتركة لبشجعتني على الاستمرار، وهنا يكمن الاختلاف بين جرائمي وجرائم أسيا.

قد لا تكون رواياتي في مثل حرفيتها وشهرتها، ولكنها أصداق منها، فربما شهدت أسيا بعض الظلم والاستبداد، لكنها لم تسمع أزيز الرصاص، لم تلمس دعاء قتيل، لم تمسك يد ميت برّد بدنه، أسيا تكتب ما سمعته عن القتل، وأنا أكتب ما اختبرته بنفسي.

ما لك وأسيا الآن يا نادية! لقد تزوجها قطر، وصارت رسميًا فردًا من عائلتك، صحيح أنها تتحول إلى طاغية مستبدة فيما يخص الحديث عن الكتابة والأدب، ولكنها بشكل عام امرأة طيبة وخدم وجديرة بالثقة.

دعك منها الآن، وعودي إلى كتابة مشهدك الافتتاحي! نظرت إلى صفحة الـ «Word» البيضاء التي لم أسطر فيها سوى جملة واحدة، بينما ترتعش أيقونة مؤشر الكتابة متعطشة للمزيد.

نظرت أمامي باحثة في الأفق عما قد يوحي إليّ بالجملة التالية، فالتقت عينايا بعيني نوح وهو يمسح المياه عن وجهه، فأخرج لسانه إليّ كما اعتاد أن يشاكسني في طفولتنا. أخرجت لساني له بدوري، ثم ضحك حتى وضع يده أسفل صدره، حيث الندب الذي خلفته عملية استخراج الرصاصة واستئصال طحاله. صحت وأنا أسأله بقلق:

- موجوع؟

هز رأسه بالنفي، ثم تابع السباحة على ظهره، ولكنني لم أقتنع بإجابته لأنه يحترف كتم آلامه، ففرقت في دوامة من الحبكات التراجيدية المقلقة تنتهي كلها بأن مكروها سيصيبه الآن. لم لا تحمدن ربك يا نادية على أنه أصبح سليمًا معافى أمامك،

إلى درجة أنه يستخدم عكازًا واحدًا، وخلال بضعة أسابيع سير
من دون أي أدوات مساعدة؟

الحمد لله على لطفه بي، يعلم ربي أنني ما كنتُ أنجو بما بقي من
عقلي سليمًا إذا فقدت نوح كما فقدت أبي.

وضعت النادلة زجاجة المياه الباردة أمامي بابتسامة لطيفة،
فشكرتها وارتويت، ثم عدت إلى التفكير في روايتي.

المشهد الأول يتناول لحظة اكتشاف بطلتي «نضال» موت أبيها
برصاصة في رأسه وأخرى في عنقه وهو بين ذراعي أمها. كيف
سيكون رد فعل مراهقة في منامتها الوردية، وشعرها الأسود الطويل
يوطر وجهها الباهت وهي تقف أمام جثة أبيها الغارق في دمانه وأما
نائمة، لكنها لا تعرف أنها نائمة بسبب الصدمة، تظنها هي الأخرى
لحقت بأبيها؟

لا أذكر رد فعلي التفصيلي حين رأيت أبي في الوضع نفسه،
ولكنهم يقولون أفضل ما يمكن للكاتب أن يفعله هو كتابة ما اختبره.
أحدث صدمة اختبرتها كانت حين تلقيت من آسيا خبر أن نوح أصيب
برصاصة غادرة في أثناء تحقيقه في قضية، لم أستوعب أن آخر ما
تبادلته مع نوح قبل أن يصاب هو مشادة سخيفة، ومع ذلك لم أهلك.
سألني آسيا وقتها:

- لماذا تمسكين دموعك؟ هيا، ابكي، وأفرغي مكنونك.

فأجبته إجابة لا أدري كيف تفتقت عن ذهني:

- الكتاب الحقيقيون يدخرون بكاءهم ليخلدوا صدمات حياتهم
في دواخلهم، أفضل أن أنف على الورق على أن أبكي أمامكم.

رد شديد العجرفة، ولكنه أعجبني، قد أجد مكانًا لهذه الجملة
في روايتي.

انتشلتني ضحكة دليلة من تركيزي لأن نوح يرشها بالمياه. لم
يخبراني حتى الآن بأنها استأصلت رحمها، وأعتقد أنها لا تعرف أن
نوح لم يخبرنا بالحقيقة كاملة. ما زال ملتزمًا بكذبة أنها استأصلت
بعض الأورام فقط، وأنا بدوري جاريت كذبه، لم أعلمهما أنني
سمعت حديث دليلة مع آسيا في حمام المستشفى، ولولا وجودي
مصادفة داخل إحدى الكبائن قبل دخولهما، ربما ما كنت لأعرف
الامر أبدًا.

غضبت وقتها لأنني سمعت حقيقة أنني لن أصبح عمة أبدًا، وأن
آسيا المستجدة على عائلتنا تعرف سرًا أجهله، ولكني سمعت أيضًا
أن دليلة مستعدة للتبرع بأي عضو في جسدها إن كان ينقص أخي،
وسمعت انهيارها الذي لم يقل صدقًا عن انهيارني أنا وجدتي. لم
أرد أن أخرجها بخروجي في منتصف حديثهما، بقيت بالداخل حتى
خرجتا، ثم اتجهت إلى غرفة نوح فوجدتها واقفة بمنامتها وشبشب
المنزل، فعانقتها وبكىنا.

اعتبرت دليلة شقيقة لي بمجرد أن لمست تأثيرها الحميد في
شخصية نوح منذ بداية ارتباطهما، ولكن الحق يقال، وددت أن ينهيا
هذه العلاقة إن لم تكن ستكلل بأطفال طالما تاق نوح إلى إنجابهم.
قد يبدو كلامي قاسيًا، ولكني راقبت أخي يمضي طفولته ومراهقته
في وحدة وعزلة، إلى درجة أنه كان يخيل إليه أنه يملك القدرة على
محادثة أرواح الموتى ويجهز بهذا حتى نعطيه المزيد من الاهتمام،

فليس من العدل أن أتركه الآن يختار التخلي عن وجود أولاد يملأون حياته في سنوات رشده، ويعينونه على كهولته، ويسندونه في شيخوخته.

لانية لي غير سعادة أخي الصغير، ولكنني أدركت في الأسابيع الماضية أنني لا أرى نوح سعيدًا إلا في صحبة دليلة. وللإنصاف، لولا دعمها له، ما كان لينجو من هذه المرحلة المظلمة، فما من غيرها تقدر على مشاركته الظلام والصمت حتى تجذبه إلى النور.

ها هما أولاء، ضحكتهمما تجلجل في حمّام السباحة فيزعجان رواد النادي المسنين خصوصًا، وقد زاد تراشقهما بالمياه ونوح بدأ يهدد دليلة بأنه سيفرقها. أخي الأبله، ألم يكن جرحه يؤلمه منذ قليل، لماذا يمزح بهذا الغشم، ماذا لو فقدت دليلة توازنها وغرقت فعلاً أو تشبث بنوح فجأة فتتحرك حركة خاطئة وأذى نفسه؟

صحت فيه:

- بلاش الهزار الغبي ده!

خرج صوني أعلى وأحد مما أردت، ولكن نوح تقبل تعليقي بأن ضحك، وقال:

- اتكيع الصبر لحد ما أطلع وأوريكي الهزار الغبي اللي بجد. ضحكت بامتنان لأنه لم يتزعج من حديثي، تقول لي معالجتي النفسية إنني ادخرت توتري لسنوات، وتركته يغلي في داخلي متربصًا بأي فرصة حتى يتسرب بخاره من فمي وأنا أصبح وأنفعل على سفاسف الأمور.

أعترف بأنني أسيء توجيه غضبي، مما يجعل الكثيرين ينفضون

من حولي. لا يصبر الناس على التعامل مع غلاية بخارية مثلي، ولن يبالوا بمحاولة فهم أصل انفعالاتي، فهم ليسوا طارق.

دعك من غضبك الآن يا نادية، وركزي على ما يدور حوله المشهد التالي، صدمتك.

أخرجت الدفتر المخصص للعصف الذهني من حقيبة اللابتوب، حتى أضع الخطوط العريضة لمشهد اكتشافي مقتل أبي، أو في هذه الحالة اكتشاف بطلنة روايتي اغتيال أبيها.

١. نحن في شاليه في الغردقة.

٢. أستيقظ على أذان الفجر، فأشعر بالظما وأتجه إلى المطبخ.

٣. أجد في الثلاجة بقايا كوب عصير الليمون باللبن الذي لم أنه من شربه.

٤. أسمع أصواتًا غريبة فأذهب بالكوب إلى غرفة والدَي.

٥. يخرج من الغرفة رجل يرتطم بكتفي، وتصدر عنه أصوات عجيبة.

٦. أراقب الرجل من ظهره، ثم أفاجاً برجل آخر رائحته مميزة يطرق علكة، ويخبرني بأنه ظمى فبحركة لا إرادة أعطيه كوب العصير، يشربه ثم يعيده إليّ فارغًا.

٧. أدخل الغرفة، فأجد أبي غارقاً في دماثة بين ذراعي أمي التي تن، وعيناها مغمضتان.

٨. أهرع إلى غرفتنا خوفاً على نوح فأجده حيًا يتنفس. أنام بجواره وأخذ نفسي بأن هذا كابوس.

٩. في الصباح أكتشف أن ما ظننته كابوساً هو حقيقة.

١٠. اتصل بعمو أنور فيأمرني بأخذ نوح والخروج لأقرب شاليه فيه راشدون.

١١. أطرق الأبواب، فلا أجد من يجيبني وأنا أحمل نوح النائم نوماً ثقيلاً أحسده عليه. وفي النهاية ألجأ إلى الشاطيء فأجد سائحاً يتحدث الإنجليزية بلكنة روسية غليظة. أحكي له ما صار فياخذنا إلى فندقه حتى تصل الشرطة.

والآن فلنحول كل نقطة دوّنتها إلى مشهد ينبض بالتفاصيل الحية، معتمدين على تقنية الحواس الخمس.

مددت ساقي على المقعد المقابل لي، وتركت الدفتر على فخذي، وأرخيت رأسي أسفل الشمسية الحمراء التي تحجب عني الشمس، وتطلعت إلى السماء الصافية وأشعة الصباح المتسللة بين أوراق الأشجار المحيطة بسور حمام السباحة.

أذكر ديكور شاليه أبي في الغردقة الذي أثنائه في منتصف التسعينات، رائحة يود البحر ومنظر الجبال التي يطل عليها البيت، بهور فجر السماء، منامي الناعمة، برودة البلاط تحت باطن قدمي في طريقي للمطبخ، مرارة عصير الليمون لأنني تركته مطولاً في الشلاجة، الأصوات التي سمعتها من غرفة أبي، مزيج من أزيز مكثوم وشهقة أمي الحادة يليه أنبها المكبوت وهي تهمس «يحيى»، ثم جمل مبهم نطقها القاتلان.

خروج القاتل الأول مندفعاً من الغرفة يشهق شهيقاً مبحوحاً يتبعه صوت نفخ خفيف يشبه الخشخشة يرافقه ما بدا لي كصوت رشّة رذاذ مياه. رائحة عطر القاتل الثاني الذي شرب مني عصير الليمون

وانفاسه المحملة بلذوعة كلذوعة المستكة مصدرها الملكة التي يطرعها ببرود في أثناء خروجه من الغرفة.

المشهد شبه كامل، ينقصني فقط أن أؤلف ملامح القاتلين، وسأكون جاهزة تماماً للكتابة.

لا أذكر وجهي قاتلي أبي، حاول أونكل أنور أن يستخلص مني أي علامة مميزة لهما حين وصل إلى الغردقة ليستلمني أنا ونوح من القسم، ولكن عقلي رفض أن تتلوث ذاكرتي بصورة وجهيهما، والصدمة أربكت ذاكرتي، إلى درجة أن أمي أخبرتني لاحقاً بأن القاتل كان رجلاً واحداً لا اثنين كما خُيل إليّ.

شعرت بالفخر لأنني أسترجع الآن هذه التفاصيل لكتابتها من دون أن تداهمني رغبة ملحة في إيذاء نفسي كما اعتدت أن أفعل في مراهقتي. احترفت جرح ردفي ولسعهما، كانت هذه طريقتي المدمرة للتأقلم مع استبداد غضبي وطغيان حزني، فالألم البدني لهو قزم أمام عمالقة انفعالاتي الداخلية.

لم يرَ أحد جروحي المخفية غير طارق في ليلة زفافنا التي تحولت من ليلة العمر إلى جلسة علاج نفسي تحطمت فيها حصوني، واستسلمت لأسئلته الحانية.

أخذني بعد شهر العسل إلى معالجة نفسية متخصصة في كرب ما بعد الصدمة، وأجلنا فكرة الإنجاب حتى توقفت عن إيذاء نفسي، وبدأت أعيش حياة شبه طبيعية، فقلت وقتها إنني تعافيت، ولم يعد هناك من يستفزني ويدفعني للغضب إلى درجة إيذاء نفسي.

أخبرتني المعالجة بأن هناك تطوراً ملحوظاً في رحلتي، ولكنني

لم أتعافَ تمامًا كما أظن، كل ما في الأمر أنني صرْتُ أجيد عزل نفسي عن كل ما يستثير غضبي.

فلتقل ما تشاء، أنا في أفضل حال.

وضعت سماعتين في أذني حتى أكتُم صوت معالجتي ونصائحها التي لن تفيد بطلتي الآن.

شغلت مشهد إعدام كافارادوسي من أوبرا توسكا، فانساب صوت بافاروتي الأسطوري إلى أذني وهو يخلد لحظة توديع البطل المظلوم للحياة وخضوعه للبائس لاستبداد الموت.

نخر الوحي سطح وعيي، وما إن بدأت أكتب أول حرف من الجملة التالية حتى اغتال تركيزي وصول قطز الذي اتصل بي منذ ساعة وطلب مقابلي. دخل من بوابة حمام السباحة يحمل حقيبة قماشية على ظهره فحياه موظفو الأمن وعمال النظافة والندل، وباركوا له على زواجه.

وقف عند طرف حمام السباحة يرسل سلامه إلى طارق وإلى الأولاد، وإلى دليلة، ثم مازحه نوح وبدأ يهدده بأنه سيسحبه من قدمه ويسقطه في المياه.

فرغ قطز من مزاح أخيه الصبياني ومن تحية جماهيره، ثم انضم إلى طاولتي، فقلت له متأنفة وأنا ألقى سماعتِي جانبًا:

- إيه كل الدوشة دي، عبد الناصر داخل السنين؟ قطعت حبل أفكارِي.

أغلقت اللابتوب، بينما يلقي بنفسه على المقعد المجاور لي موليًا ظهره لحمام السباحة ومأخيًا الابتسامة التي حيًا بها الجميع

عداي، ثم انتشل زجاجتي، وتجرعها بسرعة جعلت المياه تتسرب من جانبي فمه وتبلل صدره.

تأملت هيئته العجيبة: عيناه حمراوان كأنه لم يذُق النوم منذ قرون، وشعره غير مشذب على غير العادة، وقميصه مكرمش كمن بات الليل على الرصيف.

- إيه المنظر ده على الصبح؟

- أنا في ورطة يا نادية ومحدث غيرك هيخرجني منها.

لم يكن يمازحني كعادته ولا يبالغ كما في طبعه، كان يتكلم بخوف حقيقي يتنافر مع البهجة التي نشرها على كل من قابلهم من بوابة حمام السباحة حتى جلوسه على طاولتي.

قربت مقعدي منه، حتى كادت تتلامس ركبتيانا، ثم سألت بهلع:

- فيه إيه يا قطز، آسيا وطاهر كويسين؟ بابا أنور وماما نجوى حصلهم حاجة؟

تلفت حوله كاللصوص، ثم فتح حقيبة ظهره وأراها إليّ وهو يهمس:

- عايزك تسيبي دول في بيت طنط سعاد.

نظرت إلى داخل الحقيبة، رأيت كاميرا ولا بتوب وهاتفًا وطبخة. لم يترك لي مساحة للاستفهام، سألتني:

- عارفة ده سلاح مين؟

- سلاح نوح، هو أنا هتوه عن حاجة أخويا؟

- أنا لقيته في بيت مرات عاطف.

- هو عاطف متجوز على ماما؟

- ده اللي شاغللك دلوقتي يا نادية؟ بقولك لقيت في بيت عاطف السلاح اللي اتسرق من أخوكي يوم ما اتضرب بالنار.

لم أفهم شيئاً، فقص عليّ حكاية عجيبة بدت حبكة رواية تشويقية ركيكة لا تستحق نجمة على جود ريدز.

بمجرد أن سكت سألته:

- يعني إنت شاكك إن عاطف له يد في اللي حصل لنوح وزميله؟
أحني رأسه إحناءة تأكيد، فأردفت:

- فرُحت سرقت دليل إدانته من بيته وسييت دليل يدينك إنت عنده؟ ده إيه الدماغ الزرايبي دي؟!!

- أنا مش حمل أي تقطيم. هتعرفني الحاجة دي في بيت طنط ولأ لا؟

نظرتُ إلى نوح لأطمئن عليه، كان ينظر إليّ وإلى قطز بفضول شديد، حتى ألقى طارق عليه كرة الشاطئ الملونة، فعبرت من حمام سباحة الأطفال إلى حمام سباحة الراشدين وارتطمت بقفاه. التفت، وراح يضحك معهم، ويعيد إلقاء الكرة، وتوقف عن مراقبتي أنا وقطر.

أكره عاطف بكل ذرة في كياني، ولكني على عكس نوح، أجد التظاهر بأنني لا أحمل الضغينة ناحيته لحفظ السلام بيني وبين أمي، ولكن هل أكرهه إلى درجة أن أساهم في إعدامه؟

أثق بنزاهة قطر، ما كان ليتهم عاطف بالباطل، وما كان ليكذب عليّ، إن وجد سلاح أخِي في شقة زوجة عاطف فهو له يد في محاولة اغتياله لا محالة، كما أن...

لحظة، تذكرت شيئاً!

على غير عادة أمي، اتصلت بي مساء الجمعة حين عاد نوح إلى البيت لشرب القهوة، وسألني عن مكانه، أخبرتها بأنه في صحبتنا في غرفة المعيشة، فأنهت المكالمة من دون أن توضح لي سبب سؤالها، ثم أعادت الاتصال بي صباح السبت بنبرة مذعورة لتسأل عنه، ولكن تسارع الأحداث والصدمات أنساني هذه التفصيلة التي يستحيل أن تكون مصادفة بريئة.

أتعرف أمي أن زوجها يدا في محاولة قتل أخي الصغير؟ قبضت بعنف على مرفقي كأنه سينفصل عن جسدي، ثم قلت بضيق:

- ماما عندها علم بالكلام ده؟

حك أنفه، ثم نظر إلى اليمين وقال:

- لا، محدش عنده علم بأي حاجة غيرك إنتي وزميلي، ومفيش داعي نوح يعرف. هتساعديني ولأ لا؟

- وإنت عمرك طلبت مني حاجة وأنا كرفلتك؟

ابتسم ابتسامة مرهقة، وأعطاني حقيته وقال:

- هتسيبي الحاجة دي في بيت عاطف من غير ما تعرفي طنط ولا تلفتي النظر ليكي، وتنصلي بالنجدة وبعدها بوليد عطية، تعرفيه؟

- الغالب اللي شبه براد بيت ده؟

- أيوه. هبعثلك رقمه وهو عارف هيعمل إيه.

أخرج هاتفه من جيبه، وأرسل إليّ رقم الضابط المقصود عبر الواتساب، ثم رنّ هاتفه، فزفر بثقل شديد وظل يحدق إلى الشاشة.

اختلست النظر إلى هاتفه، المتصل كان بابا أنور، فأمرته بجدة:
- رد على أبوك يا لطخ!

زفر مستسلمًا ودعس زر الإجابة، وما من ثانيتين حتى تغيرت
ملامحه من الإرهاق إلى الاستغراب:
- حضرتك ركبت كاميرا في بلكونتي إمتى؟ طب بالراحة يا بابا،
أنا مش فاهم حاجة.

تحول استغرابه إلى فزع وهو يقول:
- مين دخل عليهم البيت؟ آسيا وطاهر حصلهم حاجة؟

انتفض من مقعده، من دون أن يشرح لي ماذا جرى.
لم أقدر على النهوض واللاحاق به قبل أن يرحل، نبرته الهلوعة
تشبه نبرة والده تمامًا حين اتصلت به يوم مقتل أبي، هو أيضًا قال
جملة مشابهة لهذه:

- مين دخل عليكم الشاليه؟ ماما ونوح حصلهم حاجة؟
فقدت السيطرة على أعصابي، وتملكني هلع شديد منعني من
الوقوف.

خرج طارق من حَمَّام السباحة، وترك صغارنا الثلاثة يلعبون في
سلام غير معهود، ووصل إلى طاولتي يسحب المنشقة من على ظهر
المقعد الذي كان يشغله قطر منذ قليل، ثم جلس قبالي يسألني:
- قطر مشي؟

نظرت إليه تائهة، انقباض قلبي أثقل لساني، فظل طارق ينظر
إليّ، ثم قبض على يدي اليمنى واقترب مني بنظرات مرتاعة وقال:
- ليه كده؟ إيه اللي حصل؟

لم أفهم سؤاله إلا حين نظرت إلى أنامل يدي التي يمسكها، فرأيت
بقع دماء أسفل أظفاري.

معالجتي كانت محقة، طيلة السنوات الماضية تفريغ مخاوفي
بالكتابة على لسان غير لساني وعبر أحداث وهمية كانت جزءًا من
قصة ليست قصتي لا يمكن اعتباره تعافيًا، لتسعة عشر عامًا أجبرت
نفسي على تناسي التفاصيل، ولكن جسدي رفض أن يكون شاهدًا
آخر من إلى الأبد.

لم تكن فكرة سديدة أن أعيد كتابة مشهد اكتشاف جثة أبي بهذه
الدقة الفجة الآن، فصدمتي المزمنة وحش كاسر، وما الذي أتوقع
حدوثه عند الوقوف أمام الوحش غير خروج صرخة استغاثة؟
كان انغراس أظفاري الحادة في لحم مرفقي الطري من دون أن
أشعر هو صرختي الصامتة، حتى ضبطني طارق متلبسة، وشهد على
تمزقي بين وعي يصير على التناسي، وجسد يصير على استعادة كل ما
نفاه عقلي إلى لا وعيي.



يا لك من رجل سعيد لعين يا قطز! تحيي وتزدهر، كأن الكون
أبوك، والدنيا أمك، والناس جميعهم إخوانك.



أعارني الدكتور عاطف سيارة شيفروليه لأدخل المنطقة السكنية
التي يقطن فيها قطز مع زوجته. يبدو أنه ليس ثريًا بما يكفي ليعيش في
كمبوند له سور وحرس يسجلون أرقام السيارة والرخصة والبطاقة،
بل في منطقة حديثة الإنشاء وشبه مهجورة.

في شارع صف عمارات واحد، نوافذها تشي بأن شققها لم تُشغل
بعد، تقابله أرض صحراوية ضخمة لمشروع وضعت أساساته فقط.
وقفت عند العمارة رقم خمسة، وصففت السيارة، ثم نزلت منها مرتديًا
حقيبة ظهري الجلدية التي وضعت فيها ما أحتاج إليه لتحويل قطز
إلى رجل بائس كاره للحياة مثلي.

اخترقت سياج الشجيرات التي تحيط بالدور الأول لتخفي شرفته
المزينة بأقفاص عصافير خشبية ملونة وطيور بلاستيكية عن الطريق،
وتخفيني أنا بدوري بينما أرتدي قفازي الجلديين، وأنشبت بسورها
وأتسلق الحائط وأقفز إلى الداخل. نظرت جيدًا من خلف الزجاج
الأسود العاكس، أعلم أن الشقة خالية بحكم مراقبتي الدقيقة لها منذ
الصباح، ولكن لا بأس من الحيلة.

لم أسمع أي صوت أو أستشعر أي حركة أو ألمح أي شيء في
الداخل، فأخرجت من حقيبتي شاكوشًا صغيرًا وطفاشة استعدادًا
لفتح باب الشرفة الجرار، ولكنني تفاجأت بأنني بمجرد أن دفعت
الباب بخفة انفتح. اللعنة عليك يا قطز السعيد! اعتدت الأمان، إلى

زعفران

أحترف فن التماهي، فن أن أكون غير مرئي، فن الاندماج وسط
الجموع حد الاختفاء فلا يشعرون بالخطر مني، وهأنذا مضطر إلى
لفت الأنظار إليّ مجددًا، وتوريط نفسي مرة أخرى مع الشرطة، ولكن
إحافًا للحق، جزء مني سعيد لأنني سأعكر صفو قطز.

من بين رجال البحث الجنائي الذين ألبستهم طرطور البلاهة
حين اندسست بينهم في الكول ستر، لم يثر حفيظتي غير قطز
هذا. منذ اللحظة التي لمحت فيه وهو يصفح زملاءه بعد رجوعه
من إجازة شهر العسل، عرفت أنه من المتعاملين مع الحياة بأريحية
تثير الغيظ.

وشى لي صوته ونظراته ومشيته وضحكته بأنه شخص راضٍ عن
نفسه، لم يرتكب ذنبًا يؤنب ضميره، ولا يملك ذكرى تؤرقه، ولا
يعاني عقدة نفسية تدفعه إلى احتقار ذاته. هذا الوغد المقبل على
الحياة خالٍ من نقاط الضعف التي تجبر المرء على التواري عن
الأنظار والتفوق على ذاته.

درجة أنك لا تحرص على إصباح باب شرفتك التي تعلو عن الشارع
بمترين فقط؟

تسللت إلى الداخل، ثم أغلقت باب الشرفة وراني من دون أن
أوصده، لأسهل على نفسي عملية الهرب بعد إسقاط الهدف. انسللت
من الصالة التي تحتل بصف مساحتها مكتبة عملاقة لم أر شيئاً لها
إلا في الأفلام. مثقف سعيد لعين!

تفقدت غرفتي البيت لأنأكد من خلوهما، حتى وصلت إلى غرفة
النوم الرئيسية متواضعة المساحة. ألقيت نظرة سريعة على التريشة،
كانت شديدة النظافة والترتيب، عليها عطر ذكوري أظنه عطر قطر،
رششت منه حول عنقي، ثم انتبهت لزجاجة عطر أنثوية التصميم
قربتها إلى أنفي فشمنت فيها ما يشبه الورد البلدي، ثم أعدتها إلى
مكانها، عطر نوسة كان أفضل من هذا.

اللعة عليك أنت أيضاً يا نوسة، لو لم تخونيني مع مرعي لما
اضطرت إلى اللجوء إلى المسيو، ولما قبلت مساعدته في قتل
هند، ولما تورطت في هذا الخراء كله!

سمعت صرير باب الشقة، فاخترأت بخفة في الخزانة المجاورة
للسرير، حقيبتني الجلدية على ظهري ومسدسي المتصلة فوهته بكاتم
للصوت جاهز لإسقاط الهدف.

أبقيت فرجة صغيرة من بين بابي الخزانة لأراقب ما يدور بالغرفة
وأستغل اللحظة المناسبة لإنهاء الأمر.

كانت زوجة قطر فارعة الطول، شعرها أسود حريري يغطي
قفاها وهي تقف أمامي مولية ظهرها لي، لترك حقائق التسوق على

السرير، وتضع ابنها النائم بجوارها، ثم تتجه لتفتح شرفة الغرفة على
مصراعها، بينما تتحدث على الهاتف. لو لم تكن تجري مكالمات
لأطلقت عليها رصاصي وانتهيت من الأمر الآن، ولكنني لن أعيد
خطأ قتل هند واضطر إلى التورط في مصيبة أكبر.

كانت لصوتها بحة مثيرة وهي تقول بنبرة حازمة لمحدثها:
- قتلتها بالمسدس في الفصل الأول، فلما المحرر يشيل الجملة
هيعملي plot hole في الرواية.

مع استمرار المكالمات أدركت أنها كاتبة جريمة تتفاخر أمام محدثها
الذي لم تعمل على مدى عشر دقائق من توبيخه، بأنها تباع عشرات
آلاف النسخ من رواياتها، ولا يصح لأحد أن يعدل الأحداث التي
تؤلفها. لم أكن أعرف أن المثقفين يحتفون بالجريمة بهذا القدر!
تُرى، إذا كتبت قصة حياتي، هل أصير بشهرة هذه السيدة التي ربما
لا تملك فرصة لتحقيق خيالها الإجرامي على أرض الواقع فقررت
الاكتفاء بوصفه على الورق؟

انفعلت كاتبة الجريمة التي على وشك أن تصير المرحومة الأكثر
مبيعاً، وصاحت فاستيقظ ابنها. مرت عشر دقائق أخرى من تبادل
مصطلحات أدبية أجنبية لم أفهمها، استرد فيها الصغير طاقته وراح يقفز
إلى جوار أمه الجالسة على طرف السرير، وجهها صوب الشرفة المفتوحة
وظهرها لي وهي تخلع حذاءها الرياضي، ثم إكسواراتها واحداً تلو
الآخر، بينما يغني ابنها بصوت مزعج يغطي على صوتها المثير:

بيبي شارك

دو دو دو دو دو

بدأت أفكر للحظة إن كان السجن أرحم من تحملي لغناء هذا الصغير المفرط في حركته وثرثرة أمه المتعجرفة.

رنَّ جرس باب الشقة، فخرجت حافية، وتركت عفريتها ينادي كل فرد من أفراد عائلة القرش ويتبع النداء بقول: «دو دو دو دو دو دو»
ألصقت أذني بجانب الخزانة حتى أسمع ما يدور في الخارج.
هل عاد قطز؟ هل تنتظر زوجته ضيقاً؟ هل تستغل غيابها لتخونه كما خاتنتي نوسة؟

متى سأنتقم من نوسة؟

لم أخطر بالبحث عنها حتى بعدما حسبت الشرطة أن جثة توامي في شقتي هي جثتي، كنت سأتوارى عن الأنظار لفترة أخرى، ثم أخرج لأقتلها، ولكن رؤية قطز لي في المطرية بالأمس دمّرت كل شيء!

سالم عبد الرحيم اللعين، أكان من الضروري أن تقتل هادي قبل أن يضع رأسها على رف غرفة نومه ويخلصني؟
انفتح بابا الخزانة فجأة وأنا منغمس في خططي للانتقام من نوسة، وقبل أن أحرك عضلة واحدة وجدت العفريت المولع بالقروش واقفاً أمامي بعدما فُتح البابان.

لا يشبه قطز، كان أسمر ممثلي الخدين، وعيناه فيروزيتان كحيلتان، وشعره أسود غزير يصل إلى شحمتي أذنيه كما الأطفال الأثرياء النظيفون في الإعلانات.

ابتسم العفريت ابتسامة طفولية واسعة، وقال بصوت عالٍ:
- هاهاهاهي، اسمك إيه؟

اقترب مني بأريحية تشبه أريحية قطز، الصغير المدلل لا يدري أنه في وجه الخطر.

مد إصبعه الصغيرة ودسها في فوهة كاتم الصوت وهو يقول:
- بيويو!

ضحك ضحكة مجلجلة، هذا الطفل الآمن لا يشبه أطفال حارتنا.
ثيابه الباهظة لا تعرف تراب الأزقة، رائحة الصابون العطر التي تفوح منه لا تعرف العرق، ابتسامته الواسعة لا تشبه بؤس طفولتي، ثقته بالغرباء لم تنهشها شراسة يتمي.

لن يكون لي أبداً طفل مثله، لا أملك أي طمأنينة حتى أورثها لأولادي حتى يضحكوا، كما يضحك هذا الصغير الذي أجبرني على الابتسام له حتى لا ألوث براءته، وأعلمه الخوف الذي تعلمته وأنا أصغر منه.
أرايتم كيف بقيت في مكاني، وحرصت على أمان الطفل؟ الرجل الذي رنَّ جرس الباب لم يفعل ذلك.

كان رجلاً نحيفاً في منتصف الستينيات من عمره على أقل تقدير، له شارب كث ورأس اشتعل فيه الشيب فترك شعره رمادياً، وملامحه تشبه ملامح قطز السعيد اللعين، إلى درجة جعلتني أظن أنه أبوه.
وقف أمامي من حيث لا أدري، يضغط فوهة مسدسه في جينيبيد، ويقبض على ذراع الطفل المبتسم باليد الأخرى. لا أدري ما كانت خطة العجوز، كيف لم يتوقع أنني بدوري سأقبض على ذراع الطفل الأخرى وأخرج من الخزانة وأنا أضغط بسبابتي على زناد مسدسي من دون أن أقتله لأهدده قائلاً:

- صبايعي على الزناد، حركة واحدة وأحزنك عليه.

توقف في مكانه، بينما ظهرت مؤلفة الجريمة وصرخت، ولكنني
قلت لها ما بتر صرختها:

- اذكمني خالص، وانت شبل إيدك من على الواد وارجعوا الوراء.
تقلب عین العجوز اليمنى في محجرها، بينما بقيت اليسرى ثابتة
تلمع لمعة غير طبيعية.

انفجر العفريت الصغير باكياً حين استشعر ذعر كل الراشدين من
حواله، فرأيت ملامح التعاطف على وجه الرجل المسن ذي العين
العجيبة، واستسلامه لأوامري بينما أترجع متخطياً السرير والطفل
ما زال في قبضتي.

رفع يديه في الهواء وقال:

- ما تدخلش طفل في مشاكلك مع ابني.

لقد أصبت، هذا والد قطز، هذا مصدر هذه البهجة التي تسير
على قدمين.

راقبتة يرجع خطوتين إلى الوراء، ويفرد كتفيه ليخبي زوجة ابنه
خلفه وهو يقول:

- البوليس في الطريق، وشك ظهر في الكاميرا فمفیش داعي
تورط نفسك أكثر من كده.

عن أي كاميرا يهذي هذا الهرم، الدكتور عاطف أكد لي أنه لا توجد
كاميرات مراقبة في المنطقة، وأنا بنفسى تفقدت مدخل العمارة قبل
أن أفتحم الشقة. هل هناك كاميرا داخل الشقة لم أنتبه لها؟ أي معتوه
يركب كاميرا داخل مسكنه؟
قال كأنه يقرأ أفكارى:

- أنا زارع كاميرا في قفص العصافير الأحمر، وبعث الفيديو
اللي إنت بتنط فيه جوه الشقة لزمايلي وزمانهم في الطريق،
فليه تضيع وقتك معانا؟ نط من البلكونة اللي وراك. ابني بره
البلد، مش هتعرف تطوله.

- أنا مش جاي عشان ابنك، أنا جاي عشانها.

بمجرد أن سمعتني الزوجة المرتاعة خلف حميها، تقدمته وكادت
تلقني بنفسها أمامي حتى تخلص ابنها الباكي مني.

أهذا ما تفعله الأمهات؟ يتلقين الرصاص بصدر رجب من أجل
أولادهن؟

جذبها المسن العفي، وخبأها وراء ظهره مرة أخرى، ثم قال:

- عاطف اللي باعتك صح؟ أنا حافظ حركاته كويس. هتستفيد
ليه؟ مش خايف يبيبعك زي ما باع أبوك؟ أنا قریت ملفك، إنت
ابن رزق أبو قردة اللي عاطف سابه يتشنى ظلم.

هذا الهرم المتلاعب أبو قطز السعيد اللعين!

إنها حركة بوليسية كلاسيكية للتفاوض، يوقعوننا في بعض حتى
يفرقوا بيننا وتسود سلطتهم هم، ما كان الدكتور عاطف أبداً ليغدر
بأبي شريكه في الكار وفي السجن وفي اليتيم وفي الظلم وفي البؤس.
صحت فيه أمراً حتى لا أتشتت:

- سلملي مراته بدل ما أفجرلك دماغ الواد!

قاومت الزوجة حماها، لكنه كان أشد بأساً منها، تراجع ليدفعها
بظهره إلى الخارج، ويثبت ذراعيه حول إفريز باب الغرفة حتى لا
تتخطاه، ثم قال:

- قولي وعدك بإيه وأنا هنفذ هو لك من غير ما تورط نفسك في جريمة قتل ثانية.

أتريدون الحقيقة؟ أنا نفسي لا أود أن أتورط في جريمة أخرى مع الشرطة!

قلت للجبد المرتعب على حفيده:

- عايز أسافر بره البلد.

- مفهوم، سيب الولد وأنا وإنت نخرج نـ...

- ولما أسيب الولد، إيه يضمّنلي إتك مش هتطسني رصاصة؟ توقفت زوجة قطز عن المقاومة، فقال حموها بهدوء:

- خدني رهينة بداله، ولأ إنت خايف من راجل قد أبوك؟ هادي

زميلك ققع عيني وأنا في عز قوتي. ما بالك إنت ممكن تعمل في إيه وأنا في السن ده. شكلك مش مصدقني، استنى أوريك.

لم يتوقف بكاء الصغير الموتر الحاد الذي كاد يصم أذني ومحاولاته للتخلص من قبضتي، بينما يترك والد قطز مسدسه على

الأرض بحرص شديد، ثم يمد يده نحو عينه اليسرى في بادرة عجيبة جدًا لبث لي أنه رجل مسن ضعيف فقد عينه على يد المسيو. راقبته

من كُتب بفضول، هل سيخلع عينه حقًا من مكانها؟ أهذا ممكن؟

تعجبت من طريفته في التفاوض، ولكن حين شعرت بيد تمتد من خلفي وتضغط على إصبعي الممسكة بالزناد وترفعها إلى أعلى في غفلة

مني حتى تنطلق الرصاصة ذات الأزيز المكتوم نحو السقف، عرفت أن إقدام الجبد المسن على خلع عينه لم يكن سوى تمويه حتى يتسلل

قطز من الشرقة التي وليت لها ظهري، وياغتني بهذه الطريقة الخبيثة.

انقض العجوز المخادع عليّ، وحرر العفريت الصغير من قبضتي، فركض نحو أمه التي حملته وطارَتْ به خارج الغرفة، ثم سمعت

طرقة قوية وشعرت بسائل لزج ساخن يسيل على قفائي، فتحسست مؤخرة رأسي ثم تفقدت أصابعي، هذا دمي!

فقدت السيطرة، ترنحت وسقطت أرضًا على جانبي الأيمن، هل أصبت برصاصة في رأسي؟

كيف لا أشعر بالألم؟ لماذا أنا مستسلم لإقبال قطز ووالده عليّ وهما يطمئنان على سلامة بعضهما، يأخذان مني سلاحِي، وينزعان عني

حقيبة ظهري، ووالد قطز يسبني، ويقبض على عنقي، ويقول بغضب: - هتقتل حفيدي يا كلب!

هذا الرجل محترم حتى وهو يسبني، أهكذا يكون الآباء أولاد الذوات؟

نظر قطز إليه بسعادة، وقال بابتسامة لا تختلف عن ابتسامة صغيره الذي لا يشبهه:

- حفيدك؟!

تنحج الأب، ثم قال إنه استغل وجود قطز وأسرته في بيت نوح منذ شهر ليركب كاميرا خفية داخل قفص العصافير في شرفته، وأخرى

أعلى إفريز باب شقته، ليحرص على حماية أسرته ليلاً ونهارًا من دون أن يفزعهم أو يعترف لهم بمدى خوفه عليهم.

أهذا وقت للحكايات يا أبا قطز؟!

بلل كتفي دمي السائل من رأسي، وخرجت مني حشجة وأنين لا أتحكم فيهما، وفي غضون ذلك، عانق قطز أباه.

قطز السعيد اللعين، ألا تقدر على إخفاء سعادتك حتى وأنا أصرع
سكرات الموت؟

ترددت ومضات كهربية أمام عيني تتخللها ذكرياتي كشرارات
كنت فيها شاهداً صامتاً يتأرجح بين دورَي الضحية والجلاّد، فكنت
ابن رزق أبو قردة، قاتل الضابط يحيى الألفي، وتوأم رياض الطاهي
المستقيم الذي رفض أن يسلك مسلك الإجرام مثل أبيه، وزوج نوسة
المخدوع، وصديق مرعي المغدور به، وظيل المسيو هادي، ومسدس
الدغش، ورصاصة عاطف.

أفريت عمري في التآرجح بين الاعتراف لنفسي بأنني قاتل،
وإقناعها بأنني القاتل الذي دفعته الأقدار إلى التورط في كل هذا
الشر الذي لم يرده، ولكنني أدرك الآن أنني لست بقاتل ولا بمقتول.
أنا منبوذ كثمرة تتدلى من فوق غصن بغير شجرتها، فاضطرت إلى
التماهي مع بيئة ليست بيئتها عسى أن تنجو.

إذا تغاضيت عن تعانق قطز وأبيه، أتدرون ما الذي يثير غضبي
بحق وأنا أزفر نفسي الأخير؟ أنني مُت قبل أن أقتل نوسة البسبوسة.



@ART_OF_BOOK



@ART_OF_BOOK

الجراء عديمة الأسنان تنبح، والكلاب الشرسة تهاجم.
هذا الجيل من الرجال جراء عاوية لا تعرف العض، في زماننا
كان الرجل منا ينفذ تهديداته بلا ثرثرة، أما قطز هذا فلا يعرف سوى
النباح، واستعراض معلوماته من دون فعل حقيقي.
لعنت أسلاف معالي عبر الهاتف بعد أن نسقت انتقامي مع
زعفران، كيف لتلك الغيبة أن تسمح لغريب بدخول بيتي، وأخذ
الأمانة التي أبقيتها عندها من دون أن يعطيها أمانة واضحة أنه
مرسل من عندي؟

لست متزعجاً مما سرقه من بيت المطربة، يجدر بي أن أشكره لأنه
خلصني من طبنجة نوح وكاميرا زميله، أما لابنوب صاحب الكول
ستتر وهاتفه فقد محوت تسجيلات الكاميرات السرية المدسوسة
في زوايا شقة جاردن سيتي كلها من عليهما.

بالطبع أمنت نفسي جيداً لأن الموت عندي أهون من العودة
إلى السجن، ولكن هذا لا يعني أنني سأمرر ما فعله قطز المحمدي،

الذي يبدو أنه لم يتعظ مما أصاب والده، مرور الكرام، لقد انتهك
حرمة بيتي، ونبح في وجه زوجتي وابني حسن، أفلا يستحق أن
أنهش بأنيابي؟



وصلت إلى بوابة بيت المعادي فوجدت سيارة غريبة تسد البوابة.
ضربت البوق، ولكنني أدركت أن السيارة بلا قائد.

لو لم تجردني آمنة من حراستي وكاميرات مراقبتي كما أخبرني
سعاد بالأمس، لما اضطررت إلى أن أصف سيارتي في الشارع
وأزول على قدمي أفتح لنفسني البوابة الحديدية الخارجية. ألقيت
نظرة أخيرة على البيت الذي لطالما كنت غريباً عنه، لا بيت لي غير
بيت المطرية.

لبعض هذا البيت بلونه الرمادي القاتم، وحديقته الكثية، وشجيراته
الأخنة في النبول، والجيران الأثرياء المصطنعين، وأمقت سكون
الحي، كما أمقت سائر أحياء القاهرة عدا حي المطرية الذي صنعت
فيه مجستي، واحترمني تاسم الكرام.

غيرت البوابة الخارجية، وتفاجأت بأن ابنة سعاد تقف في منتصف
الحديقة تبكي بغضب غير مفهوم. لم يزرنا أي من ولدي سعاد طيلة
زواجنا، فتمعت من وقوفها أمامي، وقولها إنها تحاول الاتصال
بأمها لتخبرها بأنها تتظرها في الحديقة، لأن جرس الباب معطل،
ولكن سعاد تجاهلتها كما هي عادت.

لم ألق على هذه المسافة القريبة من ابنة سعاد من قبل، أطلت
النظر إلى وجهها عينيها العسلتين، وغمازتيها البارزتين، وبشرتها

القاتحة، وقسماتها تشبه قسماوات وجه من أحبته كأخ فخدعني كعدو
خبيث.

شعرت بثقل في صدري وتهدجت أنفاسي، وقبل أن يتحول زفير
إلى صرير أسرع أخرج بخاخة الربو من جيب سترتي، وأخذت
منها نفساً هداً أزمه تنفسي، ثم أخبرت نادبة بأن سعاد غادرت إلى
المنيا اليوم.

لم أود أن يطول الحديث بيننا، وقمت تنظر إليّ نظرات تائهة
عجبية، فدخلت البيت، وتركت الباب مفتوحاً وأنا أدعوها للدخول
دعوة فائرة في حال كانت ستطلب سيارة أجرة أو ستتظر زوجها
ليعيدها إلى بيتها.

بدا البيت شديد الهدوء في غياب سعاد ونكدها. ما زلت أجهل
معالم مستقبلها معي، أمرتها أن تجمع أغراضها وتذهب إلى المنيا،
فأطاعتني من دون أن تطرح عليّ أي أسئلة.



دخلت غرفة مكثي بنية لملمة أسياني، ولكنني قررت أن أشرب
كأساً أخيرة قبل أن أسلم مفاتيح البيت إلى شندويلي بعد ساعتين من
الآن كما اتفقنا، أو بالأحرى، كما أمرني النذل الوضع.

خلعت سترتي، وعلقتها على كرسي المكتب، واتجهت إلى طاولة
المشروبات، ولكن لتكتمل سلسلة قلة المزاج والقرق، لم أجد سوى
زجاجة ويسكي. ألم أشتري زجاجة فودكا وأتركها هنا؟

ارتضيت بالويسكي، صبيت لنفسني كأساً حملتها وأنا أبحث عن
هاتفني في جيب، ثم استرخيت على الأريكة الجلدية أتجرع مشروبي

في انتظار رسالة من زعفران تفيد بقتله لأسيا «حياة» قطز العاشق
الزج كما كان يدعوها عبر الهاتف.

شدت على زعفران أن يقتلها من دون المساس بطفلها. كثيرًا ما
أهدد خصومي بإرافة دماء أولادهم فيرتعبون ويخضعون لأوامري،
لا يعرفون أنني أفضل الموت على أن أنفذ هذه التهديدات البشعة،
لست صهيونيًا حتى أقتل الأطفال بذريعة الدفاع عن مصالحهم.

أنهيت الكأس، وكنت على وشك أن أصب أخرى، ولكن واتني
حكة شديدة صاحبها حرارة أشعلت جلدي. انشغلت بحك بدني
حتى بدأ عتقي يضيق كأن هناك من يعتصر قصبتي الهوائية، وثقبا
أنفي يلتهمان ويتضخمان حتى صارا مسدودين، والهواء لا يقوى
على اختراقهما للوصول إلى رئتي.

انتابتي نوبة حساسية شديدة!

وددت الاتصال بالإسعاف، ولكن تعسرت عليّ رؤية الشاشة
بوضوح من فرط الدموع التي سالت من مقلتي.

حاولت النهوض لأنتشل جهاز حقن الإبينفرين المضاد للحساسية
الذي أبقيه في سترتي المعلقة على كرسي المكتب، لكنني تعثرت ولم
أقو على النهوض، فبدأت أزحف على بطني كما الدودة في الطين
لأصل إلى سترتي.

أخانت أمانة وعدّها وأوهمتني بأنها صفحت عني، بينما في الحقيقة
وضعت لي الفول السوداني الذي أتحمس منه تحسّسًا مميتًا في
زجاجة الويسكي؟

هذه فعلة لا تخرج إلا من حية كآمنة، فأنا اشتريت بالفعل زجاجة

فودكا، وتركها على الطاولة هنا، ولكن بما أن للفودكا طعمًا محايدًا
لن يقوى على ستر رائحة الفول السوداني ومذاقه، كان لا بد أن
تتخلص منها وتترك لي الويسكي ذا المذاق الحريف الطاغي.

لم أتوقف عن الزحف، وحين كنت على بعد بضعة سنتيمترات
من طرف سترتي، سمعت صرير باب مكنتي يُفتح.

توقعت أنني سأجد نادية التي قد تكون سمعت صوت سقوطي
على الأرض فأنت لتتفقد الأمر، ولكن حين نظرت صوب المدخل
تفاجأت بوجود سعاد.

يبدو أنها لم تغادر إلى المنيا بعد، وهذا من حسن حظي لأنني
أراها الآن تغلق الباب خلفها، وتهرع نحوي بقلق وأنا أحاول جذب
السترة لأوقعها على الأرض وأنتشل منها الجهاز الذي فيه نجاتي،
ولكن سرعان ما أدركت أن سعاد لا تهوّل نحوي بقلق بسبب حالتي
المميتة، ما أقلقها هو محاولتي للنجاة.

ضربتني على يدي بخفة كما تفعل الأستاذة حين يُخطئ تلميذها،
وأخذت جهاز الحقن من جيب السترة.

هل قررت أن تطعني في ظهري للمرة الثانية؟ هل كانت تترجاني
طيلة الشهرين الماضيين لزيارتها حتى توقعتني في فخها مرة أخرى
وتقودني إلى هلاكي؟

اختلطت آلام الاختناق مع آلام الغدر والخيانة، تشبثت بطرف
عباءتها الفضفاضة، حتى لا تتركني أموت من دون أن أقبض روحها
بيدي، وهذه المرة لن يرق قلبي لها وأرحمها.

دفعنتي بقدمها، ثم حملت كأس الويسكي عن الأرض وزجاجة



@ART_OF_BOOK

١٩

نادية

هل أغلقت محبس الغاز؟

طرحت السؤال على نفسي للمرة الثالثة وأنا أصف سيارتي التي تعج بالعاب أولادي، وحقائب ورقية ممتلئة بكتب اشتريتها منذ فترة ولا أجد مساحة لرصها في مكتبي المتخمة بالكتب.

رَنَّ هاتفي وأنا أطفئ محرك السيارة، إنه طارق العزيز. لا أدري أي خبل أصابني حتى أترك المنزل من دون أن أخبره.

أوصلنا نوح ودليلة إلى بيت جدتي وأنا في حالة تيبس وتهيأته أثارت قلق نوح، ولكنني أرجعت هذا إلى إرهاقي الشديد وقلة نومي وقلقي المستمر على الجميع، وحين سألتني عن قطز أخبرته بأنه أتى ليطلب مني نصيحة زوجية، ثم تعجل في الرحيل، لأنه نسي أخذ طاهر من الحضانة.

كذبة ساذجة، ولكن أخي الأبله صدقها، وراح يسخر من أنه لو طبق قطز نصائحي لطلبت أسيا الطلاق اليوم قبل الغد.
عدنا إلى عمارتنا فطلبت من طارق أن يتركني في السيارة قليلاً

وهي تستغفر الله، ووضعتهما في حقيبة بلاستيكية سوداء، ثم حملت هاتفي عن الأريكة، وخرجت، وأغلقت الباب خلفها.

منذ لحظة ولادتي تحت قنابل العدوان الثلاثي في بورسعيد، وحتى هذه اللحظة التي أتلقى فيها وتجحظ عيناوي وأفتح فمي بحثاً عن نسمة هواء تحيي، تعرضت لما لا يقل عن ثلاثين حادثاً كان من المفترض أن ينتهي أحدها بموتي، ولكنني نجوت من القنابل، من البنادق، من طائرات الفانتوم، من رصاص أخصام الدغش، من السجن، من طعنات الأصدقاء الغدارين، ألن أنجو من الفول السوداني؟

يا سعاد يا غيبة! كان من المفترض أن تبقي حتى تتأكدي من أنني مُت، أو أضعف الإيمان تتأكدين أنني لا أبقى جهازاً احتياطياً آخر لحالات الطوارئ.

تحاملت على نفسي، جذبت مقبض الدُّرج بكل ذرة قوة بقيت فيّ، فسقط إلى جوارِي.

تحسست الأرض، فكان خامس ما لمستهُ أصابعي هو جهاز حقن الإينفرين الاحتياطي، نزعته غطاءه بضروسي لأن أصابعي انتفخت، وطعنت فخذي بسنه، ثم ضغطت على زرهِ فصدر عنه صوت تكتكة أنقذتني من الموت. تركت الجهاز مغروساً في فخذي ليقوم بعمله، ويقلل احتقاني وانتفاخي، ويعيد إليّ قدرتي على التنفس.

أنا منهمك، وفي حاجة إلى رعاية صحية طارئة، ولكنني أتقد غضباً. سأنصل بالإسعاف ليعصوني على جهاز تنفس صناعي، وسأنجو من محاولة الاغتيال هذه كما نجوت من سابقاتها، ولكن يجب أن أجد مسدسي، وأجري محادثة سريعة مع سعاد أو لا.

لألملم ثنات نفسي، فأخذ الأولاد، وصعد بهم إلى الشقة، ثم فوجئت
بنزوله بمفرده يفتح الباب، ويحملني كما حملني ليلة زفافنا.

ضحكت ضحكًا هستيريًا حتى وصلنا إلى غرفة نومنا، وأجلسني
على الفراش، فتحول الضحك العصبي إلى بكاء مريع على صدره.
لماذا استعدت تفاصيل مقتل أبي لكتابة هذا المشهد الغبي النافه
في الرواية!

اتصل بمعالجتي، فأوصته بأن يعطيني نصف قرص مهدئ،
وحددت ميعادًا لجلسة في الغد الباكر.

تناولت المهدئ، ثم استلقيت على الفراش، وأرحت رأسي
على ذراع طارق حتى غرقت في نوم تواصلت فيه كوابيس نسج
لا وعيي خيوط حبكتها، وقرر أن يكون مشهدها الختامي هو مقتل
نوح وقطر.

استيقظت أصرخ كما في أفلام الرعب لاكتشف أن الظلام قد حل
في أثناء غفوتي الطويلة.

هدأ طارق من روعي، وفاجاني بأنه قام بلفتة شديدة رومانسية،
أرسل أولادنا الثلاثة إلى أمه وطلب لنا غداءً من مطعمنا المفضل. بعد
الغداء، انشغل طارق بتلقي مكالمة طويلة من شريكه في الصيدلية،
فاتصلتُ بقطر ليوضح لي سبب رحيله المفاجئ ويطمئنني على
آسيا وطار.

اختلق كذبة رصدت الكاتبة الأريية بداخلي ألف هوة وفجوة
فيها، ولكنني قبلت بكذبه، وسيطرت على فضولي حتى لا أطرح
عليه مزيدًا من الأسئلة، لا تهمني تفاصيل ما حدث ما دام هو وأسرته

بخير. انتهت المكالمة بسؤالي عن متى سأذهب إلى بيت زوج أمي
لأنفذ ما اتفقنا عليه اليوم في حمام السباحة.

ربطت شعري، وارتديت حذائي الرياضي ونزلت من البيت،
متناسية أن أعلم طارق كأن النداهة نادتنني. اللعنة على حالة التيه
والنشوة التي تسيطر عليّ بعد تناول المهدئات! أخذت نفسًا عميقًا،
وتصنعت المرح والأريحية وأنا أجيب عن مكالمة طارق داخل
سيارتي:

- ألو يا طارق يا حبيبي!

سألني بنبرة ملغمة بخليط من العتاب والقلق:

- إنتي فين؟

- بلف بالعربية شوية.

- وده ينفع؟ أعمل مكالمتين ألف شهري ما ألكيش في البيت؟

- آسفة يا حبيبي. إنت فاهم الخنقة لما بتجيلي مش بركز.

- طب اطلعي البيت نتكلم.

- هتزعل مني لو قلتك إنني مش قادرة أتكلم النهارده؟

زفر، وصمت هنيهة، ثم قال:

- أنا ما بعرفش أزعل منك يا نادية.

- ربنا يخليك ليّ يا طارق يا زوجي يا قرة عيني يا غالي. أنا

مش هطول، هجيبك معايا فطيرة بالبسوسة نحلي بيها قدام

برنامج ألعاب العقل.

- إغراء مقبول. خلي بالك من نفسك وما تطوليش، وافتحي

لايف لوكيشن.

لأعلم شتات نفسي، فأخذ الأولاد، وصعد بهم إلى الشقة، ثم فوجئت
بتروله بمفرده يفتح الباب، ويحملني كما حملني ليلة زفافنا.

ضحكت ضحكًا هستيريًا حتى وصلنا إلى غرفة نومنا، وأجلسني
على الفراش، فتحول الضحك العصبي إلى بكاء مريب على صدره.
لماذا استعدت تفاصيل مقتل أبي لكتابة هذا المشهد الغبي التافه
في الرواية!

اتصل بمعالجتي، فأوصته بأن يعطيني نصف قرص مهدئ،
وحددت ميعادًا لجلسة في الغد الباكر.

تناولت المهدئ، ثم استلقيت على الفراش، وأرحت رأسي
على ذراع طارق حتى غرقت في نوم تواصلت فيه كوابيس نسج
لا وعي خيوط حبيكتها، وقرر أن يكون مشهدها الختامي هو مقتل
نوح وقطر.

استيقظت أصرخ كما في أفلام الرعب لاكتشف أن الظلام قد حل
في أثناء غفوتي الطويلة.

هدأ طارق من روعي، وفاجأني بأنه قام بلفتة شديدة رومانسية،
أرسل أولادنا الثلاثة إلى أمه وطلب لنا غداءً من مطعمنا المفضل. بعد
الغداء، انشغل طارق بتلقي مكالمات طويلة من شريكه في الصيدلية،
فاتصلتُ بقطر ليوضح لي سبب رحيله المفاجئ ويطمئنني على
آسيا وطار.

اختلفت كذبة رصدت الكاتبة الأريية بداخلي ألف هوة وفجوة
فيها، ولكنني قبلت بكذبتة، وسيطرت على فضولي حتى لا أطرح
عليه مزيدًا من الأسئلة، لا تهمني تفاصيل ما حدث ما دام هو وأسرته

بخير. انتهت المكالمات بسؤالني عن متى سأذهب إلى بيت زوج أمي
لأنفذ ما اتفقنا عليه اليوم في حمام السباحة.

ربطت شعري، وارتديت حذائي الرياضي ونزلت من البيت،
متناسية أن أعلم طارق كأن النداهة نادتنني. اللعنة على حالة التيه
والنشوة التي تسيطر عليّ بعد تناول المهدئات! أخذت نَفَسًا عميقًا،
وتصنعت المرح والأريحية وأنا أجيب عن مكالمات طارق داخل
سيارتي:

- ألو يا طارق يا حبيبي!

سألني بنبرة ملغمة بخليط من العتاب والقلق:

- إنتي فين؟

- بلف بالعربية شوية.

- وده ينفع؟ أعمل مكالمتين ألف ضهري ما ألقكيش في البيت؟

- آسفة يا حبيبي. إنت فاهم الخنقة لما بتجيلي مش بركز.

- طب اطلعي البيت نتكلم.

- هتزعل مني لو قتلتك إنني مش قادرة أتكلم النهارده؟

زفر، وصمت هنيهة، ثم قال:

- أنا ما بعرفش أزعل منك يا نادية.

- ربنا يخليك ليّ يا طارق يا زوجي يا قرة عيني يا غالي. أنا

مش هطول، هجيلك معايا فطيرة بالبسوسة نحلي بيها قدام

برنامج ألعاب العقل.

- إغراء مقبول. خلي بالك من نفسك وما تطوليش، وافتحني

لايف لوكيشن.

- حاضر، صحيح محبس الغاز...

- مقبول يا نادية ما تقلقيش.

أنهيت مكالمتنا بقليل من المغازلة، وطبعًا لم أشاركه موقعي كما طلب، أود أن أقود زوج أمي إلى جبل المشنقة من دون شهود. أخذت حقيبة قفاز القماشية التي خبأتها أسفل مقعدي، ونزلت من السيارة وأوصدت بابها لأقف أمام بيت زوج أمي الذي لم نطأه قدمي سوى مرة قررنا فيها التمرد على جدّي والانتقال للعيش مع أمي، ولكنها لم تبقي عندها أكثر من نصف ساعة، فأقسمت إنني لن آتي إلى هذا البيت أبدًا.

وقفت عند البوابة الصدئة التي صفت عندها سيارتي، وألقيت نظرة سريعة على البيت المكون من طابقين على الطراز الكولونيالي الذي تحيطه هالة من الكآبة أرجعتها إلى الطلاء القاتم لإطارات نوافذه المتآكلة، وقرميد سطحه الأسود الممتلئ بالفجوات والبغض الذي أكنه لصاحبه.

دفعت البوابة الثقيلة فأصدرت صريرًا مزعجًا، ثم انغلقت من ورائي. عبرت الدرب الحجري الخشن تحاصرني رائحة العشب المبتل، على يساري جاروف بستنة ملقى بإهمال، وعلى يميني دلو ري.

وصلت إلى باب البيت، فتأرجحت في وقفتي بين الالتكأ على مشط قدمي وكعبي لأنخلص من توترتي، ثم زفرت بقوة، ودعست جرس الباب. انتظرت للحظات حتى سمعت حركة ثقيلة في الداخل. أزيز ألواح الأرضية الخشبية المألوف تلاهما صمت عميق.

ضغطت على الجرس مرة أخرى، أسمع رنينه الذي يشبه تغريد عصفور أسير، ثم لا شيء، لا حركة ولا صوت. اتصلت بأمي اختصارًا للوقت، لا أود أن أتأخر على طارق، فردت عليّ همسًا.

- أنا قدام الباب يا ماما، افتحيلي.

- باب إيه يا حبيبتني؟

- باب بيتك. كنت في مشوار في المعادي وجبتك حاجة معايا. لماذا قلت إنني أحضرت لها شيئًا، لا أملك شيئًا الآن حتى أهديها إياه!

قد أهديها كتابًا، نعم، لديّ عشرات الكتب في السيارة، ولكنها تقرأ الروايات الرومانسية فقط، وأنا لا أملك رواية رومانسية واحدة! تنحنحت أمي، ثم قالت بصوت خفيض:

- يا خبر! مش كنتِ تقولي إنك جاية يا بتي. علقت بضيق:

- معلى يا ماما نسيت أستأذن.

- مش القصد يا روعي، لو كنتِ قلتي كنتِ عرفتكِ إنني مش في البيت، أنا عند خالتك سوسن في البلد.

سمعت بوق سيارة عنيًا، لم أسمع من خلفي فقط سمعته أيضًا عبر الهاتف.

التفت ورائي فرأيت سيارة عند البوابة، فاستدرت مرة أخرى إلى البيت، ورجعت للوقوف عند منتصف المسار الحجري فرأيت منه ضوء إحدى غرف الطابق الثاني مشتعلًا، ولمحت من خلف ستائر النافذة خيال جسد أعرف أنه جسد أمي.

الذي يبدو أنه لم يتعظ مما أصاب والده، مرور الكرام، لقد انتهك
حرمة بيتي، ونبح في وجه زوجتي وابني حسن، أفلا يستحق أن
أنهش بأنيابي؟



وصلت إلى بوابة بيت المعادي فوجدت سيارة غربية تسد البوابة.
ضربت اليوق، ولكنني أدركت أن السيارة بلا قائد.

لو لم تجردني آمنة من حراستي وكاميرات مراقبتي كما أخبرني
سعاد بالأمس، لما اضطررت إلى أن أصف سيارتي في الشارع
وأزول على قدمي أفتح لنفسي البوابة الحديدية الخارجية. ألقيت
نظرة أخيرة على البيت الذي لطالما كنت غريباً عنه، لا بيت لي غير
بيت المطرية.

أبغض هذا البيت بلونه الرمادي القاتم، وحديقته الكثيفة، وشجيراته
الأخنة في النور، والجيران الأثرياء المصطنعين، وأمقت سكون
الحبي، كما أمقت سائر أحياء القاهرة عدا حي المطرية الذي صنعت
فيه محبتي واحترمني ناسه الكرام.

عبثت البوابة الخارجية، وتفاجأت بأن ابنة سعاد تقف في منتصف
الحديقة تبكي بغضب غير مفهوم. لم يزرنا أي من ولدي سعاد طيلة
زواجنا، فتعجبت من وقوفها أمامي، وقولها إنها تحاول الاتصال
بأمها لتخبرها بأنها تنتظرها في الحديقة، لأن جرس الباب معطل،
ولكن سعاد تجاهلتها كما هي عادتها.

لم ألق على هذه المسافة القريبة من ابنة سعاد من قبل، أطلت
النظر إلى وجهها عينيها العسلتين، وغمازتيها البارزتين، وشرتها

القاتحة، وقسماتها تشبه قسماوات وجه من أحبيته كأخ فخدعني كعدو
خبيث.

شعرت بثقل في صدري وتهددت أنفاسي، وقبل أن يتحول زفيري
إلى صرير أمرعت أخرج بخاخة الربو من جيب سترني، وأخذت
منها نفساً هداً أزمة تنفسي، ثم أخبرت نادبة بأن سعاد غادرت إلى
المنيا اليوم.

لم أود أن يطول الحديث بيننا، وقفت تنتظر إليّ نظرات تائهة
عجبية، فدخلت البيت، وتركت الباب مفتوحاً وأنا أدعوها للدخول
دعوة فاترة في حال كانت ستطلب سيارة أجرة أو ستنتظر زوجها
ليعيدها إلى بيتها.

بدأ البيت شديد الهدوء في غياب سعاد ونكدها. ما زلت أجهل
معالم مستقبلها معي، أمرتها أن تجمع أغراضها وتذهب إلى المنيا،
فأطاعتني من دون أن تطرح عليّ أي أسئلة.



دخلت غرفة مكثي بنية لملمة أشيائي، ولكنني قررت أن أشرب
كأساً أخيرة قبل أن أسلم مفاتيح البيت إلى شندويلي بعد ساعتين من
الآن كما اتفقنا، أو بالأحرى، كما أمرني النذل الوضع.

خلعت سترني، وعلقتها على كرسي المكتب، واتجهت إلى طاولة
المشروبات، ولكن لتكتمل سلسلة قلة المزاج والقرق، لم أجد سوى
زجاجة ويسكي. ألم أشر زجاجة فودكا وأتركها هنا؟

ارتضيت بالويسكي، صبيت لنفسي كأساً حملتها وأنا أبحث عن
هاتفني في جيب، ثم استرخيت على الأريكة الجلدية أتجرع مشروبي

ها هو ذا الغضب يغلي في أمعائي، وبخاره ينثف من أنفي محرراً
ثقيبه.

عضضت على شفتي بعنف، حتى لا أفقد أعصابي على أمي
التي تحترف نبذي، حتى جرحت شفتي، وطغى طعم الدم المعدني
على فمي. ازدردت ريقى بصعوبة، شعرتُ بثقل الهجر يقبض على
عنقي، فخرج صوتي مخنوقاً وأنا أسألها بنبرة حادة تتهمها اتهاماً
صريحاً عنيفاً:

- يعني إني في المنيا دلوقتي، ده آخر كلام؟

- هتقلبنني ليه يا نادية، طمنيني يا حبيبتي عايزة حاجة؟

- عايزاكي لما تقررني تكديني على بنتك وما تفتحيش بابك لها

تبقي تظفي نور الأوضة اللي واقفة بتراقبها من شباكها.

رأيت ظلها يتراجع حتى اختفت عن النافذة، كما اختفت عن
حياتي منذ تسعة عشر عاماً.

ماذا كنت أنتظر منها، لقد فقدت القدرة على العطاء من سنوات،
حتى نوح الذي نجا من الموت بمعجزة ملت من إظهار اهتمامها به
بمجرد خروجه من المستشفى! أغلقت الهاتف وألقيته في جيبي،
وبمجرد أن استدرت ارتطمت كتفي بعاطف زوجها، فيبدو أنه كان
صاحب السيارة التي ضربت بوقها عند البوابة منذ قليل.

تفاجأ بوجودي، أو ربما تفاجأ بدموع الغضب الحارة تهرب
مني، وأني أف في الحديقة أتسول اهتمام أمي. انتشلت منديلاً
من جيبي مسحت به دموعي من أسفل نظارتي، بينما يتطلع إليّ
عاطف بصمت.

كانت هذه فرصتي الذهبية، لست في حاجة إلى مساعدة أمي،
أريد فقط أن أدخل البيت، أخبئ ما في الحقيبة في أي مكان، ثم
أنتقل بوليد وأرحل.

- مساء الخير. برن الباب وماما مش بترد، يظهر إن الجرس بايظ.

- مامتك في المنيا، اللي بره دي عربيتك؟

أنت أيضاً تكذب مثلها، حقاً، الطيور على أشكالها تقع، ولكني
سأتم مهمتي وإن كان في ذلك موتي.

- لا مش بتاعتي. بما إن ماما مش هنا، هيزعجك أستنى جوه لحد

ما أطلب عربية تروحني؟

هز رأسه موافقاً بعجرفة أثارت حنقي، وظل يحدق إليّ بنظرات
مريبة، حتى تحولت أنفاسه القصيرة الثقيلة إلى صوت قريب من
الصفير، ووضع يده على صدره. دس يده في جيبيه، وأخرج منه
بخاخة ربو وضعها في فمه، وشهق شهيقاً مبحوحاً، ثم ضغط على
زرها فخرج منها صوت نفخ خفيفاً يشبه الخشخشة يرافقه ما بدا لي
كصوت رشة رذاذ مياه.

أعاد البخاخة إلى جيبيه، والتقط أنفاسه ببطء، ثم استأنف طريقه
إلى البيت، صعد السلّمات الثلاث المؤدية إلى الباب، فتحه بالمفتاح،
ثم دعس الجرس، فخرج صوت العصفور المستغيث يبطل يرجو أن
يحرره من أسره، ثم قال لي بصوت واهن ولكنه خبيث:

- ما الجرس شغال أهو.

التفت إليه من دون تعليق، رأيته يدخل البيت ويترك بابه مفتوحاً،
بينما يربط عقلي الأمور ببعضها.

الصوت الذي صدر عن القاتل وجعلني أتخيله لسنوات ككائن
أسطوري هو صوت اختناقه وبخاخة الربو، لا بد أنه توتر بعدما قتل
أبي، وكانت ستتابه نوبة ربو فاستخدم البخاخة في أثناء خروجه كما
استخدمها الآن.

ظهرت تفاصيل الليلة كشذرات متسارعة، وجه عاطف الذي
لم أزه إلا مرات تُعد على أصابع اليد الواحدة، هو وجه القاتل الذي
طمسه عقلي المرتعب في مراهقتي.

هذا الطول طوله، والعرض عرضه، ونظاراته الطبية التي انعكست
عليها لعبة الطرقة التي سار فيها في طريق خروجه من غرفة والدَي،
صوت أنفاسه، ورائحة الكحول التي فاحت من القاتل هي رائحة
الخمور التي لا يتطهر منها فمه.

وهكذا، بسبب صوت شهيق وزفير وبخة جهاز ربو، عرفت أن
أبي متزوجة من قاتل أبي.

في عملية الكتابة الروائية، يتوحد المؤلف مع شخصياته، حتى
يختلط عليه إن كانت متأثرة به أم هو الذي تأثر بها. بطلنة روايتي
اسمها نضال، وعلى عكسي، لم تكبت نضال صدمتها وترتضي
بالأمر الواقع حين اغتيل والدها، نضال بحثت عمّن يتمها، وحطمت
رأسه بمطرقة.

لا أملك مطرقة الآن، ولكن جاروف البستنة الملقى على يساري
قد يؤدي الغرض. حملت الجاروف عن الأرض وأنا أقسم إنني لن
أخرج من هذا البيت إلا بعد أن أقتص لأبي، وأحمي أخي من بطش
عاطف المستقبل.

الهذا حاول قتل نوح؟ لأنه توصل في أثناء الوجود معه في الشقة
أنه قتل والدنا؟

اندفعت نحو السلّمات المؤدية إلى باب البيت، وقبل أن أصعد
السلمة الأولى قبضت يد على مرفقي وسحبني إلى الوراء، فالتفت
لأجد أن صاحب اليد هو نوح.

وقف يتكئ على عكاز جدي، وجبينه يتفصد عرقاً، وأوداجه
متنفخة من الغضب وهو يهمس إليّ:
- بتهبيي إيه!

جذب الجاروف مني، ووضع مقبضه تحت إبطه، ثم سحبني من
ذراعي إلى خارج البيت.

وقف عند سيارتي ودسّ يده في حقويتي يبحث عن شيء أعتقد
أنه مفتاح سيارتي متجاهلاً وإبل الأسئلة الذي أمطرته به عن سبب
وجوده هنا حتى التقط المفتاح، وفتح باب السيارة، وأنا أقول بينما
تندفق دموعي الحارة:

- محدش غيري هيعاقب عاطف على اللي عمله فيك وفي بابا.
توقف عن دفعي إلى الركوب، ونطق أخيراً:
- بابا؟

- سييني أفش غلي فيه.
أعلم كم أبدو مختلفة بقول ذلك، لكنني لن أترك نوح يتولى الأمر،
أنا الابنة البكرية، أنا التي شهدت على الجريمة وليس هو، هذا الثأر
ثأري!

لم تِلن قبضته على ذراعي، فدفعني نحو مقعد السائق وهو يقول:

- ما تحرّمش جوزك وعيالك منك عشان كلب زي ده. أنا عندي خطة.

ألقاني داخل السيارة بالقوة، وأغلق الباب، فصحت قائلة:
- خطة إيه؟

- هقتله.

ضغط على زر إغلاق الأبواب في مفتاح السيارة من دون إمكانية أن أفتحها من الداخل، فأوصدت الأبواب كلها، ولم تستجِب الأزرار لدعسي عليها.

ألقي المفتاح في جيبه، وعينه تشتعلان بحمرة الانتقام، وهو يضغط على عكازه بغیظ، ويقسو على نفسه ليأخذ خطوات سريعة وواسعة في طريقه إلى بيت قاتل أبينا، وتركني حبيسة سيارتي أناديه، وأصيح، وأترجاه حتى لا يقدم على فعل يدمر مستقبله، بينما أفكر: ما الذي أتى به إلى هنا من الأساس؟



قبل أن أقرر قتل الدكتور فازلين ببضع ساعات، كنت في غرفة معيشة جدتي أختار شريط فيديو من صندوق ذكريات العائلة لأشاهده مع دليلة.

صندوق شرائط المناسبات العائلية المسجلة هذا كان ملاذي من صدمة وفاة أبي وهجر أُمي، فأمضيت أشهرًا وأنا في عمر العاشرة، أشاهد شريطًا تلو الآخر حتى أغفو على الأريكة.

قالت دليلة ونحن نسبح إنها واثقة بأنني كنت طفلًا مشاكسًا ومثيرًا للمتاعب، فاخترت شريط عيد ميلادي الخامس لأنني كنت مهذبًا وهادئًا فيه كدليل دامغ يدحض نظريتها، لو رأت كيف أسقطت كعكة عيد الميلاد على حجر نادية بشريط عيد ميلادي السادس فسأخسر المناقشة. وضعت الشريط في جهاز الفيديو، ثم جلست أمدد ساقي المنهكتين من تمارين السباحة على الأريكة التي تأخذ حرف «L» المقابلة للتلفاز في انتظار انضمام دليلة إليّ حتى نشاهده معًا. أعظم اختراع قديم للمكلومين أمثالي هو كاميرا الفيديو، بمجرد

أن تضغط على زر تشغيل شريط فيديو تجد نفسك تعبر من بوابة الزمن، وترتحل إلى الذكريات التي سجلتها عليه مع من فقدتهم مثلما يحدث في الأحلام.

بخصوص الأحلام، رأيت الكثير منها في أثناء غيوبتي القصيرة. للذة، لا يمكنني الجزم بأن ما رأيته كان مجرد أحلام، كان شيئاً أوقع من الأحلام وأكثر خيالاً من الواقع. إن كانت هناك حالة بين الموت والحياة، فهي الحالة التي انحبست فيها طيلة الليلتين التاليتين لسقوطي من شرفة الكول ستر.

نارة أشعر بأنني روح خفيفة تحوم حول كل من حولها فسمعهم، وتراهم، وتفهم مشاعرهم، ونارة كنت ضيف أبي وجدي في عالمهما، ونارة يختفي كل شيء فأصير أسير جسدي مخدر الحواس. حاربت كل ما قد يؤخرني عن التعافي لخاطر دليلة التي أتوق إلى تزوجها الليلة قبل الغد.

قهزت تشتت ما بعد الغيوبة، ملازمة الكرسي المتحرك، ضعف أعصابي، الأعراض الجانبية لاستئصال طحالي، نسياني للأسماء، تلثمي، تيهي في شوارع الحي الذي تربيت فيه.

التزمت بتمارين إعادة التأهيل بمختلف أنواعها، تدربت بالثلع، بالحرارة، بالموجات الصوتية، بالمحفزات الكهربائية، برفع الأثقال، بأشرطة مطاطية لسعتها تدفعك إلى النطق بالفاظ من التي يصنفونها خادشة لقيم الأسرة المصرية.

فعلت ما بوسعي لأعجل وقوفي على قدمي مرة أخرى، حتى وإن كنت سأضطر إلى الاعتماد على عكاز، المهم أنني أستطيع

الوقوف وجهًا لوجه أمام الصنایعي المسؤول عن تشطیب شفتي لألعلن أسلافه، لأنه استغل مرضي وضعف ذاكرتي، وطلب مبلغاً غير الذي اتفقنا عليه قبل الحادث.

في الأمس، تفقدت أنا ودليلة ونادية ولبلو شقة أبي في شارع النباتات بجاردن سيتي، بعد أن وبخت الصنایعي على انفراد في الشرفة التي تحاوطها أفرع أشجار البونسيانا الحمراء العملاقة.

غادر الصنایعي بعد كثير من الاعتذارات والقسم إنه سيتهي من الشقة خلال أسبوع، ثم تركني أستند إلى السور وأراقب بتلات البونسيانا الذابلة تجترها الرياح على البلاط البارد. تذكرت أن أغلب أحلامي أو أوهامي أو أياً ما كانت، وقعت هنا على الرغم من أنني غادرت هذه الشقة منذ تسعة عشر عاماً.

ربما اختار عقلي هذا الموقع، لأنه المكان الوحيد الذي يربط بين طفولتي السعيدة ومستقبلي الحالم مع دليلة، شقة أبي هي المكان الآمن الوحيد الذي يذكره عقلي.

ربما أعطي الأمر أكبر من حجمه، أو أخلق أي فلسفة فارغة لأشغل بها نفسي حتى تنتهي دليلة من تعلم وصفة الكريب سوزيت من جدتي سونة في المطبخ، لأن الصمت بات يزعجني.

تطورت علاقة دليلة بسونة تطوراً حميماً لطيفاً، إلى درجة أنها بدأت تعلمها وصفاتها السرية، ونادية التي ودت أن أنهى خطبتنا حين عرفت أنها مصابة ببعض الأورام في رحمها، صارت تستعجلني لاتزوجها. أكان من الضروري أن أتلقي رصاصة حتى تتحسن العلاقات بين نساء أسرتي؟

دخلت دليتي الغرفة، وثوبها الصيفي المبهجة ألوانه ملطخ
بالعسل وغبار الدقيق، ثم ناولتني طبق كريب، بينما تجلس القرفصاء
إلى جوارى متكئة بكوعها على خدادية وضعتها فوق فخدها، وهي
تقول بحماسة يستحيل معها أن أكسر بخاطرها:

- دوق، وقولي رأيك بصراحة؟

كان قوامه أسمك من كريب سونة، ولكن حين تذوقته أدركت
أن القوام هو آخر ما يجب أن يقلقني، حبيبتي قدمت لي ورقة بردي
مقطرة بالعسل لا دخل لها بالكريب.

ابتسمت ابتسامة واسعة، وقلت لها وأجزاء الكريب الجافة تلتصق
بسقف فمي:

- تحفة، تحفة، تحفة!

اللعة، أنا أتحوّل تدريجيًا إلى زوج أختي!

أخذت قضمتين أخريين لأحبك دور الموهوم بطهوها، ثم تركت
الطبق جانبًا بحجة التفرغ لاختيار التاريخ الأكثر تميزًا لإقامة حفل
زفافنا، الثاني من فبراير، أم العشرين منه.

خمس أشهر من الآن ستكون فترة كافية حتى أتم تعافي، وأقدر
على الرقص على أغاني حكيم في زفافنا.

حككت مقدمة شعري وأنا أقول لدليّة متذكّرًا أعجب تفصيلة
راودتني في هلاوس الغيبوبة:

- تصدقي أنا تقريبًا حلمت بأغاني حكيم في الغيبوبة؟

- ما أنا شغللك أغانيه في الزيارة بما إني فهمت ترتيب الناس
في حياتك، أولًا قطر، ثانيًا حكيم، ثالثًا أنا.

- لا طبعًا يا دليّة، أولًا حكيم، وثانيًا...

لم أكمل مزحتي لآخرها، ألفتني بالخدادية وهي تضحك، أحملك
بالله على أنك لم تحرمني من نعمة العيش وسماع ضحكاتها العذبة
مجددًا.

انتشلت الريموت المدفوس عند مسند ظهر الأريكة، ودعست
زر التشغيل وأنا أقول:

- جاهزة تفرجي على وسامة وأدب وأخلاق خطييك في طفولته؟
ضحكت، ثم تركتني اللعب دور المرشد خلال رحلتها في دهاليز
ذكريات طفولتي.

أحكى لها عن حرص أمي على إعداد الكعك بنفسها كل عيد ميلاد،
وعن إصرار جدتي على شراء المعجنات من حلواني سميراميس،
واستمتاع أبي وعمو أنور بتعليق زينة أعياد ميلاد حقبة التسعينيات
البشعة، وحين انتقلت الكاميرا من مائدة الطعام إلى أبي أجبرني
الحنين إليه على الصمت.

كان يقف عند النافذة يدخن سيجارة، ويضحك، ويتحدث مع
عمو أنور وراء ستارة أورجانزا تسحبها يد أمي الممتلئة المزينة
بثلاثة خواتم ذهبية وأساور عديدة، فأرى وجه أبي أخيرًا بوضوح؛
شعره قصير مثل جنود الجيش، ويرتدي سترة صوفية ألوانها
مبهجة تتدرج بين البنفسجي والأزرق، ومن تحتها تشرت أبيض
فضفاض دس طرفه داخل بنطاله الجينز الذي يربط خصرته بحزام
أسود جلدي.

همست أمي إلى أبي من وراء الكاميرا:

- حمايا وحماي جُم.

يلقي السبجارة من النافذة، ويتسم ابتسامة مشاغبة للكاميرا، ويخرج لسانه كما أفعل أنا ونادية حين تتشاكس، بينما ينظر عمو أنور إلى الكاميرا بخجل، ويتسم ابتسامة وقورًا، ويدعك عينه اليسرى التي لم تكن قد فُتت بعد.

خرجنا من الصالة، وراحت أمي تصور الصالة وترتطم بأبي فيبرز حزامه وهو يضع يديه على خاصرته، ألم أرث منه هذا الحزام؟ ألم أكن أرثه يوم الحادث؟

سألت جدتي بصوت عالٍ حتى يصل إلى المطبخ:

- سونة، هو الحزام بتاعي فين؟

- أنهي واحد؟

- بتاع بابا، كنت لابسه يوم الحادثة.

- صلحتك التوكة بتاعته، وحطيته في آخر دُرج عندك في الدولاب.

شكرتها، ثم عاودت متابعة الفيديو. كان عمر أبي قريبًا من عمري الآن، ويحمل قطعًا أسود صدره أبيض كالذي حلمت به. لا أذكر أننا كنا نملك قطعًا.

رفعت صوتي مرة أخرى:

- هو بابا كان عنده قط يا سونة؟

- حسونة القط. باباك أنقله من الشارع، وفضل يربيه لحد ما اتجوز وسابهولنا عشان ست سعاد خايقة على عفشها من مخالب القط.

قالت الجملة الأخيرة بنبرة ساخرة أتقنت فيها تقليد طريقة كلام أمي، فضحكت أنا ودليلة ضحكة مكتومة.

أخبرتني دليلة منذ فترة بأن أمي وأمي تصادقتا وصارتا تتبادلان الأخبار والمكالمات فانزعجت، أمي تجيد إقامة علاقة طيبة مع الآخرين، بينما لا تقدر على إجراء مكالمة واحدة لتطمئن على صحة ابنها الذي كان بينه وبين الموت شعرة!

انضمت جدتي إلى غرفة المعيشة لبضع دقائق، ثم قالت إنها ستزل لطنط ماجدة لتعطيها نصيبها من الكريب، ثم غادرت الشقة في اللحظة التي ظهرت فيها في الشريط، أقف وراء أبي، رأسي بالكاد يصل إلى ركبته، أرثدي بدلة من الجينز ونظارة شمسية ضخمة، على الأغلب سرقتها من أحد الضيوف.

ترك أبي القط، وحملني بمرح، وخطف النظارة، ووضعها على جبينه، ثم قبل خدي، أذكر ملمس شاربه وهو يوخزني بخفة، بينما أمرغ وجهي بخده وهو يدغدغني بأصابعه. علقت دليلة بنبرة مشاكسة:

- أول دليل على الشقاوة، سارق نظارة مش نضارتك.

كنت سأمازحها، ولكنني استغرقت في التحديق إلى وجه أبي حتى نسيت أن أرد عليها. أشبهه إلى حد التطابق كما في المسلسلات المبتذلة حين يلعب البطل دورَي الابن وأبيه.

أظن أن عقلي وعقل دليلة وصلا إلى درجة عالية من الاتحاد، إلى درجة أنها قالت:

- إنت وأونكل، الله يرحمه، كوبي بيست، حتى نفس الحركات.

ليست الحركات ولغة الجسد نفسها فقط، أشبهه حتى في حماسه
وهو يتجه إلى جهاز الكاسيت ويعلن للحضور:
- هسمعكم أغنية روضة روضة روضة طحن.

أظن أن جدتي الراقية لم تستغ نكراره المضحك للفظ «روضة»،
فرأيتها تهمس معترضة إلى جدي الجالس على كرسي إلى رأس
الطاولة يستند إلى عكاز من الأبنوس الأسود المطعم بالنحاس
الأيض والصدف ومقبضه مطلي بالفضة، العكاز الذي أنكئ عليه
الآن حتى أنم تعافئ.

بمجرد أن ضغط أبي على زر تشغيل الكاسيت خرجت منه أنغام
أكورديون وإيقاع طبلية بصاحبهما صوت حكيم وهو يغني:
هنا أهو هنا أهو هنا أهو هنا أهو

انتبهت لكلمات أغنية «هنا وهناك»، فوجدت نفسي أتذكر أن أبي
كان يغنيها في الحلم تمامًا كما يغنيها الآن في التسجيل. اعتدلت في
جلستي، وتابعت ما يدور في الشريط من كتب، فسألني دليلاً:
- فيه حاجة يا ببي؟
- أنا حلمت بعيد الميلاد ده.

راقبت اندماج أبي مع الأغنية، يهز رأسه وكتفيه على إيقاعها، ثم
راح يحمل نادية ليرقص بنا، كل على ذراع وهو يدور في مكانه، وأمي
التي تلعب دور المصور، تغني معه من وراء الكاميرا وتردد كلمات
الأغنية. أنزلنا على الأرض، ثم انضم إلى طنط نجوى وعمو أنور
الجالس على المقعد يصفق من دون تفاعل حقيقي، كأنه يجامل ذوق
أبي الموسيقي فحسب.

انتقلت الكاميرا لتسلطها أمي على قطز، الذي كان يرتدي بدلة
سوداء، وفي جيبه وردة حمراء بلاستيكية، وهو يرقص ببراعة محرراً
وركبه يميناً ويساراً.

قربت أمي الكاميرا من قطز أكثر من اللازم، إلى درجة أنه لم يعد
في الكادر سوى الوردة الحمراء البلاستيكية التي يضعها في عروة
زسترته، وسمعتها تتحدث مع أحد وراء الكاميرا، ثم أعادت ضبط
الكادر وقد توقف قطز عن الرقص، وفصل الوردة عن السترة ليقدّمها
لها بلطف.

داهمتني التفاصيل الحسية لمحاولة قتلي.
أزيز الرصاص المكتوم، رائحة البارود، ملمس الدماء الساخنة
على خدي، ظلال وجوه ملامحها مبهمه، أصوات كلماتها غامضة.
حاولت أن أتذكر سبب إصابتي بالرصاص بشتى الطرق طيلة
الفترة الماضية، وحين تكرر فشلي، تصالحت مع النسيان الذي غلفني
ضبابه، وإذ بمصادفة تافهة كروية هذه الوردة الحمراء البلاستيكية
اللينة التي يمد قطز يده بها إلى الكاميرا الآن تخضع وعيي، وتجبره
على البوح لي بكل شيء.

شرقة الكول ستر التي يتزين سورها بأصص الورد، الشاب خالد
يستنشق وردة حمراء، الشاب خالد يصاب برصاصة في رأسه ورذاذ دمه
يلطخ خدي على حين غرة، لقد شهدت مقتله ولم ألق من الشرفة قبل
وفاته كما قالت دليلاً!

شاب أصلع داكن البشرة يصيني برصاصة في صدري، أرتطم
بالسور، أحمل أصيص الورد، وألقيه على قانلي، وأخيراً وردة

بلاستيكية حمراء تُمد إليّ وأنا أصارع الموت، وصاحب الوردة
يسألني قبل أن أبصق دماغي على وجهه:
- المسدس ولأ الوردة؟

صاحب الوردة هو عاطف الذي أمر بالقائي من الشرفة.
على مدى الشهرين الماضيين، جمعت مخاوفي وهواجسي
وجبتها في صندوق صدمتي، عسى أن أتخطاها من دون الحاجة
إلى مواجهة حقيقية، ولكنني أدركت أن مخاوفي ليست خصمًا يمكن
مراوغته والتملص منه، مخاوفي تسكن بداخلي، مخاوفي هي أنا،
ولا فرار للمرء من نفسه.

بمجرد أن بدأت أستعيد التفاصيل وتبين لي الأمور من بين سراب
التناسي، اتباني هاجس أن الموت يراوغني مجددًا، يقتحم سكوني،
يغتال تعافي، يداهم طمأنيتي، ثم يحاصر نجاتي.

تملكني ألم ناخز في موضع الرصاصة التي أخرجوها من
صدري كأنني أصبت من جديد، فأصابني رجفة شديدة، وغلفني
العرق البارد، وخفق قلبي، وتحشرجت أنفاسي، وشعرت بأن
غرفة المعيشة ترتج، والأريكة التي أجلس عليها تموج من تحتي،
كأنني ما زلت في حمام السباحة، ولكن هذه المرة فقدت القدرة
على العطف، أنا أغرق.

لا أدري متى انتهت دليلة لحالتي، ولكنني شعرت بيديها وهي
تساعدني على الاستلقاء على ظهري، وتمسد صدري وهي تقول
بصوت مريح:

- نوح، بُصلي. شاييني؟

شعرتُ بأنني وصلت إلى أعلى درجات الضالة حين فقدت
السيطرة على أبسط ما يمكن للإنسان أن يسيطر عليه، نظرته.

أرجح الهلع مقلتي في محجريهما ودفعهما إلى النظر صوب كل
زاوية من دون استقرار، ولكن دليلة لم تستسلم، ظلت توجهنني حتى
أركز نظري عليها إلى أن نجحنا في ذلك بعد معاناة.

احتل وجهها الحسن رؤيتي، كانت تبسم لي، ولكنني رأيت القلق
يقفز من عينيها، ومع هذا تمكنت من محادثتي بصوت هادئ وهي
تمسك كفي الأخرى:

- حاسس بإيدي في إيدك؟

هزرت رأسي إيجابًا من دون أن أتوقف عن الارتجاف أو اللهاث،
فأضافت:

- سامع صوت حكيم في التلفزيون، صح؟
أطرقت السمع للأغنية التي تشغل خلفية شريط عيد الميلاد،
فخرجت مني كلمة «نعم» باهتة مرتعشة.

- إنت في بيت جدتك، وأنا معاك، إحنا ماسكين إيدين بعض،
وبنسمع الأغاني اللي إنت بتحبتها. أي حاجة تانية إنت خايف
منها، مش موجودة دلوقتي، ومش هتقدر تثذيك. خد نفس
عميق.

بدأت تشهق بعمق وتزفر ببطء، ونحنتي على تقليدها، فكررت
ما تفعله كأنني نسيت كيف يتنفس الإنسان بجملته الأشياء الأخرى
التي نسيته منذ الحادث.

لا أعلم كم مر من الوقت وهي تعلمني التنفس بعمق من دون أن

تفلت يدي، ولكن المهم أن هذه التمارين أتت ثمارها، هدا ارتجافي، واستقرت ضربات قلبي، واتسع صدري وامتلأ بالهواء، وتوقف طوفان الذكريات الدموية الذي اقتلعني من سكوني.

سألتني دليلة بابتسامة حنون:

- أحسن؟

أومات بالإيجاب، فساعدتني على الاعتدال في جلستي، ثم أريت إلى حضنها وهي تربت على رأسي وظهري، وتقول:

- دي كانت بانك أذاك، وعدت على خير.

أرجعت رأسها، وظلت تنظر إلي وهي تمسح العرق عن جبينها، وتخبرني بأن ليلو اعتادت أن تصاب بنوبات هلع كتلك بعد وفاة والدهما المايسترو ياسين الجارحي، رحمه الله، لأنها ظلت نكتم حزنها عليه فترة طويلة.

سألتني أخيراً، وهي تشذب شعري بأناملها:

- إيه اللي دخلك في الحالة دي؟ افكرت حاجة؟

* * *

تذكرت كل شيء، ولكنني لم أخبر دليلة أو جدتي بعد عودتها من عند جارتنا.

تظاهرت برغبتني الشديدة في النوم من فرط الإجهاد، فودعتني دليلة، وعادت إلى بيتها، بينما بقيت جدتي تشاهد باقي شرائط الفيديو التي تصبرها على غياب جدي ووالدي من دون أن تنتبه إلى أنني أنسل من خلفها متكئاً على عكازي، وأغادر البيت بخفة.

ركبت أول سيارة أجرة قابلتني لتوصلني إلى بيت زوج أمي في

المعادي، ثم تفاجأت بروية نادية في الحديقة تحمل جاروف بستنة وتمشي بعنف نحو الباب، ثم تخبرني بأن عاطف قتل أبي. لا أعرف ما دليلها على هذا ولا أي منطق أوصلها إلى هذا الاستنباط، كل ما أعرفه هو أن ثاري صار ثارين.

أخذت الجاروف من نادية وحبستها في سيارتها، وتخطيت الحديقة، وعبرت من باب البيت المفتوح، ووقفت في الصالة ذات السقف المقعر والسجاد المزركش والمصابيح النحاسية العتيقة. نلت حولي فوجدت أريكة على يميني فوقها نافذة تطل على حديقة خلفية مسيجة بشجيرات جهنمية حمراء، نثر الخريف بتلاتها على العشب الجاف فبدت كبساط دام.

لمحت أمي تدس شيئاً يخرفش داخل فجوة تتوسط جذع شجرة تعرت من أوراقها، وهي تسند هاتفها بكتفها وتقول لمحدثها:

- عايزة أبلغ عن دليل يثبت أن جوزي حاول يقتل ابني، وعايزة بالمرة عربية إسعاف لأنه تقريباً بيخلص في الروح.

تخطيت الصالة وطرف عكازي يحتك بالسُّلمات المنخفضة المؤدية إلى الحديقة، وأظن أن صوت الاحتكاك جعل أمي تلتفت إلي، وتلصق ظهرها بجذع الشجرة في ظن منها أن هذا سيثني عن الانتباه إلى ما تفعله.

سألتها بصرامة:

- بتخبي إيه؟

أجابت بجمل مقتضبة وسريعة، لا أدري إن كان منبعها قلقها، أم محاولة منها لتشتيتي:

- ولا حاجة. أنا ما عملتش حاجة. كلمت الإسعاف. عاطف
جنتله نوبة حساسية. إنت دخلت هنا إزاي؟

ابتعدت عن جذع الشجرة العارية، ووقفت أمامي لتجبرني على
الالتفات حتى أولي ظهري للشجرة ولا أسألها عما خبأته، فجارتها
وتركتها تثرثر وهي تقبض على مرفقي بكفها المتعركة وأصابها
المرتعة.

- تصدق بقالي تسعناشر سنة عايشة معاه وما عرفتش إن عنده
حساسية من الفول السوداني إلا دلوقتي؟

لم أعد أسمعها، تحولت كلماتها إلى ضوضاء بيضاء، وحل
محلها ضجيج غضب نابع من رؤيتي لعاطف وهو يخرج من الصالة
بخطوات غير مترنة، وبوجه متنفخ، إلى درجة أن عينه اليسرى صارت
شبه مغلقة وفمه التوى، وجلده ممتلئ ببقع حمراء، ولا يخرج منه
صوت غير أنفاسه المتحشجة ولهائه المزعج.

كل هذه التفاصيل لا تهتم، ما يهم أنه يقترب ببطء شديد، وفي يده
مسدس يحاول أن يوجهه في اتجاه أمي. كادت تصيبيني رؤية فوهة
المسدس بنوبة ذعر أخرى، ولكن يبدو أن غضبي كان أشد من ذعري.
مدني الأدريالين بخليط من الاندفاع والخدر الحميد الذي يسر
عليّ الحركة من دون شعور بالألم أو التيس وأنا أزيح أمي عن
طريق المسدس، وألقي الجاروف جانبًا، وأرفع عكاز جدي كلاعب
جولف محترف، فأمسك بطرفه السفلي، وأهوي بمقبضه الثقيل
على جانب رأس عاطف مترنح الخطى قبل حتى أن يضع إصبعه
على الزناد.

صرخت أمي بينما يسقط عاطف على العشب الذابل وأنا أدفع
مسدسه عن يده، فهويت مرة أخرى بكل ما أملك من قوة بالمقبض
على رأسه، ولا أظن أنني كنت سأتوقف عن ضربه إلا إذا رأيت
جمجمته تنشق إلى نصفين لولا تدخل أمي.

تشبثت بطرف العكاز، ولا أدري ماذا كانت تقول لي أو بمَ تتوسل
إليّ، الغضب أفقدني بصري وسمعي وبصيرتي.

استسلمت لتعلق أمي بمقبض العكاز، ففقدت القدرة على توجيه
المزيد من الضربات لعاطف.

تركتُ العكاز، وتحاملت على نفسي، حتى جلست على المقعد
الخشبي أسفل أفرع الجهنمية، ألهث بعنف بينما يسيل عرقي وأنا
أحدق إلى الدماء السائلة من عاطف، ملطخة حشائش حديقته وطرف
جاروف البستنة.

مالت أمي كي تنتشل السلاح بحذر، ربما كي لا يفاجئنا عاطف
بمحاولة قتل جديدة، فقلت لها بنبرة أمرة حادة:

- خلي بالك صمام الأمان مرفوع!

حملت السلاح بحذر بينما سمعت دوي سرينات الشرطة تقترب
وتحاوط البيت.

بقيت في مكاني، فاقتربت مني ممسكة مسدس زوجها، وراحت
تحدق إليّ في صمت لا أفهمه، وهي تمسح بمقبض العكاز بقطعة
قماش لا أدري لماذا كانت في جيب عباءتها.

مدت العكاز إليّ، وقالت:

- ما تقولش حاجة، أنا عارفة هعمل إيه.

استرددت العكاز، ثم سمعت خطوات تقتحم البيت وتحوم في أرجائه وصوت وليد يدنو من الحديقة، فلمحته عبر النافذة وهو ممسك بطبنجته بتربص، يخلفه عمرو والبشبيشي ليحتمي فيه من أي هجوم محتمل.

قلت قبل أن يتخطيا العتبة الفاصلة بين الصالة والحديقة:
- أمان يا وليد.

نظر وليد نحوي، وسألني:

- كله تحت السيطرة؟

هزرت رأسي مؤكداً أنني بخير، بينما مال هو إلى بدن عاطف ليتفقد مؤشراتته الحيوية، ويخبر عمرو بأن يطلب الإسعاف. للحظة، لم أفهم ماذا يدور، الشرطة وصلت أسرع من التوقيت المتعارف عليه للاستجابة، ولكن حين رأيت نادبة بينهم تركض كالحاصل على براءة من سجن مشدد نحو عاطف الفاقد للوعي على الأرض فتبصق عليه، ثم تقف أمامي وعلى ظهرها حقيبة قماشية، فهمت أنها دبوت لشيء ما.

سألته نادبة:

- أنت كويس يا حبيبي؟

أحيت رأسي بنعم، فاستدارت على عقبها إلى الصالة، وتوقفت عند الأريكة أسفل النافذة، وراحت تتلفت حولها.

لم ينتبه أحد غيري إلى أنها تفتح حقيبة ظهرها وتخرج منها شيئاً تظاهرت بأنها وجدته على الأريكة، فلم أرَ ماهيته إلا حين شهقت بطريقة مفتعلة، وصاحت كالخرقاء:

- بصوا يا جماعة لقيت إيه؟

صعدت فوق الأريكة وتدلّت بنصفها العلوي من النافذة ليراها كل من في الحديقة وهي تمسك كاميرا كانون وطبنجتي، وتسالني:
- مش ده سلاحك يا نوح؟!

لم تمهلني لأؤكد صواب تخمينها، قفزت من النافذة وركضت عبر الحديقة صوب وليد، وقالت كطالبة مجتهدة تود إبهار معلمها:
- يا وليد! قصدي يا حضرة الظابط، أنا لقيت دول مرميين هنا على الكنبه، دي الحاجات اللي كانت ناقصة من موقع الجريمة وكتتو شاكين إن القاتل سرقهم، يعني عاطف هو القاتل. لم يكن وليد ممثلاً أنجح من أختي، قال بصوت عالٍ وبأداء مفتعل يؤكد لي أن ثمة مسرحية بوليسية ألقت من دون أن بشركاني فيها:
- صح يا مدام نادبة. دي فعلاً الأدلة الناقصة من موقع الجريمة. تدخل عمرو، وبدا أنه الوحيد الذي يتصرف بتلقائية:
- همحرزهم واثبت إنني لقيتهم داخل منزل المدعو عاطف الهمشري.

أخذ منها الأدلة، بينما تطوعت أمي بخلق قصة أخرى وهي تعطيه المسدس الذي أراد عاطف قتلها به منذ لحظات. قالت إنها رأت عاطف يقلب في الكاميرا والطبنجة اللتين كانتا مُخبأتين أسفل الأريكة، وحين واجهته بالأمر أشهر سلاحه وطاردها حتى الحديقة الخلفية، فضربته على رأسه بمقبض جاروف البستنة الملقى بجواره والملطخ بدمه.

وقفتُ أنا ونادبة في الزاوية نؤكد هذه الرواية الزائفة لعمرو ووليد

مستأصلين منها تمامًا تفصيلاً تعديّ على عاطف بالضرب وشكّي
في أن أمي حاولت تسميم زوجها.

اختتمت أمي كذبتها بقول:

- وعندي دليل ثاني على إن عاطف كان السبب في اللي حصل
لنوح. تعالى معايا يا ابني أديهولك.

هزّ ولید رأسه بأدبه المعهود، وترك أمي تقوده إلى داخل البيت،
بينما بقي عمرو يدخن سيجارة بعد أن تمنى لي السلامة والشفاء
بنبرة فاترة مصطنعة، اضطررت إلى قبولها، حتى يرضى أن يعطيني
سيجارة من علته من دون أن تنتبه نادبة.

* * *

وصلت الإسعاف وحملوا عاطف اللعين المتشبث بالحياة، ثم
ودعني ولید بعد أن أقسمت له مائة مرة إنني بخير، وغادر مع عمرو
إلى القسم لتحرير محضر الاستدلالات. لم يبقَ في البيت غيري
ونادية مع أمي التي تركتنا في الحديقة، وذهبت إلى المطبخ.
وقفت أسأل شقيقتي:

- ده اللي إنني وقطر كتو بتكلموا فيه على اليسين؟

- محكيلك لما نروح بيتنا، ملوش لازمة الكلام هنا.

أين قطر، أحتاج إلى أخي في هذا الموقف المشحون غير المفهوم.
زفرت بضيق، وأخرجت السيجارة التي اختلستها من عمرو، ثم
تذكرت أنني كنت مشتتاً إلى درجة أنني نسيت الحصول على قداحة.
سحبت نادبة السيجارة من بين شفّتي، ثم صاحت بجدة تجعلني أحسد
الأطرش على أن الله رحمه من سماعها:

- مش قولنا هنبطل الزفت ده!

مدت يدها لتقرص مرفقي بعنف كعادتها، ولكنني تملصت منها
قائلاً بضيق:

- مسائك مريبى بقى، ده الهم اللي أنا فيه ده لازم له مخدرات،
مش نفسين نيكوتين.

- إنت عايز تقتل كام مرة عشان تقدر نعمة الصحة؟

- يتقتل إيه تفي من بقل!

قالتها أمي فانتبهنا لعودتها إلى الحديقة وهي تحمل صينية عليها
كوبان ودورق من المياة المثلجة. حملت كوباً واقتربت مني لتقدمه
لي بترحاب لطيف، ولكنني تأفقت من تظاهرها بأن الأمور على
ما يرام.

يبدو أن انزعاجي ظهر على تعبيراتي، فوقفت نادبة تحول بيني وبينها
في وضعية دفاعية تربع فيها ذراعيها وترفع حاجبيها وتقول بجدة:

- يعني إنني مش في المنيا أهو؟

ارتسمت على وجهها هذه الابتسامة المستفزة التي تلجأ إليها كلما
أرادت أن تختلق مبرراً لجرحها المستمر لكرامتنا وكبريائنا ثم قالت:
- هشرحلك.

لم أبالِ بأي من الأكاذيب التي تنتوي أن تنطق بها، كان يشغل
بالي أمر واحد سألتها عنه ببرود:

- إيه الدليل اللي ادتيه لوليد؟

ابتسمت ابتسامة رق قلبي لها، لكن سرعان ما شددت لجامه
ومنعته من الاشتياق إلى أول امرأة كسرتة.

نظرت إلى الأرض، حتى لا تستعطفني بتعبيراتنا، واكتفيت بسماع
إجابتها:
- منديل بدلة عاطف، كان عليه دمك وأنا سرقة منه في الليلة
التي انصبت فيها.

٢١

سعاد

قبل لي إن الأمومة كيان تنكر فيه الأنثى. نفسها، وليست مجرد
دور ضمن أدوار كثيرة على المرأة الشرقية إحادنها.
أولادك قطعة أرض، تحريثها، تغرسين فيها بذورك، تروينها،
تصددين عنها الآفات وتفعلين أقصى ما بوسعك لحمايتها. أن
تربطي هذا السجود كله بحسبة أنتها خسراناً في الحسبة
أو مستظلك بأغصانها.
هكذا تربت نساء عائلتي، وهكذا ضحيت بأعز ما يمكن أن تضحي
به الأم في سبيل أولادها، احترامهم لها.

* * *

في ليلة السادس عشر من أغسطس، كنت في غرفة النوم أتناول
الفول السوداني كعادتي وأشاهد مسرحية «شاهد ما شفش حاجة» التي
يعشقها يحيى - رحمة الله عليه - حتى سمعت عاطف يدخل البيت.
لا يزورني عاطف إلا لسببين، أنه قام بمصيبة ما ويود أن تثبت
كاميرات المراقبة المحيطة بسور القيل أنه كان في بيته المسجل عنوانه

٣١٣



٣١٢

في بطاقته الشخصية في أثناء هذه المصيبة، أو أنه شرب حد الثمالة ويود أن ينفس عن غضبه بضربي وإهانتني ولومي على انهيار إنسانيته. اقتحم غرفة النوم، وإحراقاً للحق، لم يطأ غرفتي طيلة التسعة عشر عامًا التي عشتها معه، فاضطربت ونهضت أسحب حجاي لأستر به شعري وكتفي.

سقط طبق الفول السوداني عن حجري، وتناثرت حباته على الفراش، فانتبه له ثم اندفع نحوي يصيح فيّ بتوحش:
- عايزة تقتليني يا سعاد؟

لم يترك مجالاً للاستفسار عن مقصده، ويعز عليّ قول إنه صفعني وضربني وخنقني وإهانتني في هذه السن.

لم أضرب في حياتي سوى مرة واحدة من أبي وأنا في العاشرة من عمري، لأنني حرضت أختي هدى، رحمها الله، على السباحة في النيل، وكادت تغرق.

لا أذكر تفاصيل ما فعله بي، أصاب بنوبة تخشب، وأدخل في حالة فقدان ذاكرة مؤقت كلما أقدم عاطف على ضربي. تكورت على الأرض وحميت وجهي بذراعي، وبقيت على هذه الوضعية حتى انتهت نوبة غضبه الثملة ثم غادر.

جلسة تعنيفي كانت طويلة هذه المرة، ولكنها انتهت كما ينتهي كل شيء، وبقيت أعاني آثارها.

تضرر ظهري وذقني وعنقي، وأعتقد أن وجهي نجا، سأعرف نين أنظر إلى المرأة، ولكن لا رغبة لي في النهوض الآن، سأبقى متلقية على السجادة قليلاً.

أتاني صوت جمهور المسرحية يصيحون سي سي سي عادل إمام. أخبرني يحيى بأنه حضر هذه المسرحية مع والديه في مسرح لونا بارك في أثناء عطلتهم الصيفية بالإسكندرية، وظل فترة طويلة يردد كل المصطلحات والألفاظ والإفيهات التي حفظها من العرض.

جاء المشهد الذي يقول فيه عادل إمام «خرنج»، فضحك الجمهور بشدة. ضحكت معهم وأنا أتخيل يحيى، وهو مراقب مشاكس شديد الكاريزما يكرر كلمة «خرنج» فتوبخه حماتي الأرستقراطية، ويعاقبه حماي الوقور.

قاطع ضحكتي وقع خطوات عاطف في الطرقة التي تفصل بين غرفتي نومنا، وصوت شهيقه الثقيل وخشخشة بخاخة الربو، وانزلاق مكعبات الثلج في كوب - أستغفر الله - الخمر، ثم صياحه وهو يقول عبر الهاتف:

- تسبب كل اللي في إيدك يا زعفران وتركزلي على نوح. اعمل أي حاجة تشتته. الواد ده لو ركز معاكم مش هنخلص.
نفضت عني الألم والحزن والحنين إلى حبيبي الشهيد، ودفعني الذعر إلى الانتفاض من مكاني واقتحام غرفة نوم عاطف وأنا أصبح فيه:

- هتعمل إيه في نوح يا عاطف؟

أنهى مكالمته، وتجرع كأسه على دفعة واحدة، ثم اقترب مني ينظر إلى كدماتي وجروحي باستغراب، كأنه ليس المتسبب فيها، ثم قال بنظرات تائهة وجمل غير منسقة:

- مش هعمله حاجة. أنا مش غاوي دم. هو اللي راح شقة جاردن
سيني. ظهر لي فجأة زي يحيى.

- ما تجيش سيرة يحيى على لسانك!

جذبني بشراصة من مرفقي، وصاح بانفعال شديد:

- لساني هبوسخ اسمه؟ هو خدني كوبري عشان يترقى وإني
استغلّيني يا سعاد. أنا النضيف فيكم!

- إحنا زبالة يا عاطف، سيب بقى العيال في حالهم، ده إنت أب
وعارف قيمة الضنا.

لم تخف قبضته عن مرفقي، ولكنه ألقى رأسه على كتفي، وبدأ
يكي مثل الصغار وهو يقول:

- إنتي عارفة إني ما بقتلش عيال يا شريفة.

دائمًا ما يدعوني شريفة بعد أن يشمل ويضربني ويأتي للاعتذار
إليّ. في العادة، أتجاهله كلما وصل إلى هذه الحالة، فاعتذاراته
لن تضمّد جروحي، ولكن إن كانت نجاة ابني في مجازاة هذيانه،
فليكن.

رَبْتُ على كتفه بمحبة زائفة وقلت:

- يعني توعدني إنك مش هتعمل حاجة لابني؟

رفع رأسه عن كتفي، وخلع نظارته، وبدأ يمسح دموعه وهو يهز
رأسه ويكرر:

- أوعدك، أوعدك. مشكلة بسيطة وهتحل من غير دم.

- طب ما تقولي إيه المشكلة ويمكن أنا أحلها لك؟

نظر إليّ نظرات لم أفهم مغزاها، ثم تركني وغادر البيت.

هرعت نحو الهاتف أتصل بنوح عشرات المرات ولكنه لم يُجِبني،
شعرت بإحباط وقلة حيلة ولكني لم أُلَمِّه، ففي النهاية أنا التي جاهدت
حتى أجبره على نسياني.

اتصلت بنادية التي لا يطاوعها قلبها على تجاهلي، فأجابتي
وأنا أسمع من حولها أصوات أولادها وهم يلعبون، وزوجها
يقهقه، وحماتي إحسان تنهر أحد التوأمين، ثم وصل إليّ صوت
نوح يدلّ قالا

تنفست الصعداء لأنه آمن في بيته وسط أسرته، ومع ذلك سألتها
على سبيل الحيلة عن أحواله بنبرة هادئة حتى لا تجزع من هلمي،
وتحججت بأنني رأيته في المنام، فقالت إنه بخير وعاد لثوّه من عمارة
سيف الدين، وجالس معهم في غرفة المعيشة يحتمي القهوة، ويشاهد
التلفاز مع أولادها.

لم أكن أعرف أنه سينهي قهوته، ثم يعود إلى موقع الجريمة إلا
حين طلعت شمس الصباح، ووجدت عاطف يدخل البيت أكثر
ثمالة من ذي قبل.

طاردته، وسألته عما حدث، ولكنه ظل يكرر:

- ابن يحيى ما اختارش الوردية. هم اللي بيختاروا المسدس. أنا
مليش دعوة.

دخل غرفته وبدأ يخلع ثيابه أمامي فاستحييت، وأدرت له ظهري
وأنا أنهال عليه بأسئلة لم يُجِب عن أيّ منها حتى دخل الحمام وفي
يده زجاجة - أستغفر الله - فودكا، وصفق بابه في وجهي.

فَنُشْتُ ثيابه، وجدت فيها بخاخة الربو، ثم تفاجأت بشيئين:

الأول هو جهاز حقن إيبينفرين فربطته بغضبه الشديد حين رأى طبق الفول السوداني واتهمني بأنني أود قتله، وبما أنني لم أطف له قط ولم نتناول وجبة واحدة معاً، فلم أعرف أنه يعاني حساسية تجاهه. الشيء الآخر الذي وجدته كان منديله الحريري ملطخاً بالدماء، ولا أدري إن كان سبب تأكدي من أن هذه الدماء هي دماء ابني هو فطرة الأمومة أم المنطق.

سرق المندبل، ووضعت في ظرف ورقي خبائه في صدري، وقررت أنني سأخبئه في مكتبي بالمستشفى، حتى لا أزع مجالاً لعاطف للعثور عليه، ثم عدت إلى غرفتي واتصلت بنادية أسألها مجدداً عن نوح، فأجابني وهي تتأهب في هذه الساعة من الصباح الباكر، وقالت إنها لا تعرف عنه شيئاً منذ أن عاد إلى عمله في الأمس. سمعت حركة عاطف، فأنهيت المكالمة مع نادية، ووقفت عند باب غرفته أنصت عليه. كان يجري مكالمة أخرى، ويذكر اسم ابني فواجهته، ولكنه أقسم لي إن هادي هو المسؤول عن محاولة قتل نوح، وإنه عاقبه على فعلته.

لعاطف مئآت الصفات الخبيثة، الكذب لم يكن واحدة منها، لهذا كان يجب أن أتأكد من تورطه في إيذاء ابني من عدمه قبل أن أقرر معاقبته.

أخذ الأمر مني قرابة الأسبوعين، كنت في انتظار عودة الدكتورة سمر من إجازة وضعها، فهي الوحيدة المقربة لي في معمل التحاليل، لي درجة أنني إذا طلبت منها مطابقة بقع الدماء على مندبل عاطف بدماء نوح التي تلطخت بها قطع شاش جعلت الممرضة شكرية

نسرقها لي من غرفة العمليات فور خروجه منها، ستبقي الأمر طي الكتمان.

أعطتني الدكتورة سمر النتيجة في سرية تامة، فأدركت أن عاطف إن لم يكن هو قاتل نوح، لأنني لم أر أي خدوش مقاومة على وجهه، فهو على الأغلب المحرض على قتله.

أخذت قراراً، وأقسمت على ألا أري وجهي لنوح إلا بعدما أنتقم له. اشتريت زيت الفول السوداني الخام من أبعد سوپر ماركت عن منطقتنا حتى لا يشك أي شخص في أنني من نسب له في نوبة حساسية مميتة، ثم دسسته في - أستغفر الله - الريسكي حتى لا يستطيعه ويتجرع منه ما يشاء ويموت.

حاولت استدراجه إلى البيت عدة مرات طيلة الأسابيع الماضية، لكنه كان يتجاهلني، أعتقد أن سعي قطز إلى سجنه وإثبات تورطه في أكثر من جريمة قتل جعلاه يرتاب من الوجود معي في البيت. وجدت الظروف كلها مواتية في الأمس، رحيل حرم البيت وانتزاع كاميرات المراقبة، وطلب عاطف مني أن أغادر إلى المنيا، فسرت هذا بأن أمانة وعصابتها تخلوا عن خدمات عاطف، أي أنني لن أجد من ينتقم مني أو من أولادي إذا تخلصت منه، ولا بد أنه بدوره سيأتي إلى البيت ليجمع أغراضه، ووقتها يمكنني أن أنهى الأمر.

لكم أن تتخيلوا كم مرة تخيلت قتل عاطف، ولكني أعرف نفسي، ما كنت لأزهق روحاً، حتى وإن كانت روحاً دنسة كروحه. حاولت الهرب من بطشه لعقدين من الزمن، وهو لم يتوقف

عن مداهمتي ومحاصرتي، حتى لم يعد أمامي خيار سوى الهجوم، وهذا كان هجومي على معذبي، عشرة مليجرامات من زيت الفول السوداني الخام.

لم أتوقع زيارة نادية التي تملصت منها بنجاح، ولا وجود نوح أمامي وهو يتكى الآن على العكاز، وينظر إليّ بخيبة أمل وحزن، ويقول بصوت يخشع بعدما أجبتة عن سؤال بخصوص الدليل الذي قدمته لوليد:

- كل ده معاكي دليل على إنه حرص على قتلي وساكته، للدرجة دي بتكرهيني يا ماما؟

تركت الصينية عند طرف نافذة الصالة، وهممت أن أردد أخيراً الهوة بيننا. جلست على المقعد الخشبي وأشرتُ إلى ابني الساخطين أن ينضما إليّ.

تردد نوح هنيهة، وراح يتأمل حديقة البيت البائسة المصابة نباتاتها بالآفات، وتتنقل الخفافيش بين أفرع أشجارها غير المشذبة والمائلة بزاوية تشي بأنها آيلة للسقوط، حتى استسلم أخيراً وجلس إلى جوارى، تاركاً مساحة كبيرة بيننا، بينما بقيت نادية في مكانها تسند ظهرها إلى الحائط وتنتظر مني أن أفسر لهما كل شيء.

اقتربت من نوح لأقلل المسافة بيننا وأنا أقول كما لو كنت سأحكي لهما حكاية الشاطر حسن:

- في سنة الامتياز كنت بتمشى على الكورنيش، بياعة فل ضريرة قرтли الكف، وقالت القط اللي هتقابليه النهارده، اتجوزيه.

سألني نوح مستفهماً:
- قط؟

- أنا استغربت زيك تمام، بس خدت الكلمتين واديتها اللي فيه النصيب وزُحت شغلي. مفيش ساعة وأبوك دخل عليّ المستشفى متعور في خناقة ومعا واحد صاحبه. كان يهبل يا نوح، كاريزما صالح سليم، وخفة دم أحمد رمزي، ووسامة عمر الشريف، وهيبة رشدي أباطة. إنتو الاتنين فولة واتقسمت نصين يا حبيبي.

لمست خده بشوق، فرأيتَه يستسلم للحظة للمستي، ثم أزاح يدي وقال:

- إيه علاقة أبويا بحكاية القط دي؟

- أبوك وقتها قالي إن اسمه حسن القط. أنا قلت بس، هو ده جوزي، ما هي أكيد مش صدفة، لكن زي ما أنا وقعت في حب أبوك أول ما سُفته، صاحبه وقع في حبي، تعرف يطلع مين صاحبه ده يا نوح؟

هز رأسه بالنفي، بينما يقفز الفضول من عينيه العسليتين الناعستين، فأجبتُه:

- عاطف.

صاحت نادية بنبرة استشعرت منها أنها تكذبني:

- الجربوع ده كان صاحب بابا؟

- أبوكم وقتها كان من الطباط الشباب اللي اتدسوا وسط عصابات المخدرات في عمليات البيع والشرا. أنا ما كنتش أعرف أي

حاجة عن الحكاية دي، لأن أبوكم يا عيال كان مصدّر لي الطرشة في الأول، بس عاطف بقى ما حلش عني. فضل يتلكك ويجيلي المستشفى والجامعة ويعاكسني مع إنه متجوز ومخلف. وأنا ما اديتلوش ريق لحد ما عرفت بالصدفة إن أبوكم ظابط وإنه اتكشف بين عصابة سلطان الدغش وحياته بقت في خطر، أمكت؟ مستحيل! خبيته في المنيا، واستدرجت عاطف العاشق الولهان بالاتفاق مع عمكم أنور فاتقبض عليه هو وسلطان وأبو قردة. القضية قعدت في المحاكم ييجي سنة، وفي الآخر عاطف وأبو قردة شالوا التهمة عن سلطان بحكم سلو سوقهم، واتحكم عليهم بخمستاشر سنة، وأبوكم اترقى وساب عمليات البيع والشراء، وانتقل لمنطقة تانية واتجوزنا وخلفناكم، وكنا عايشين أحسن عيشة، لحد ما عاطف طلع من السجن وحصل اللي حصل.

غزت حلقي مرارة شديدة وأنا أسترجع الليلة التي تحولت فيها ن زوجة يحيى الألفي إلى أرملته.

* * *

حرارة الغردقة كانت لا تطاق، جلد نادية تقشر من حدة الشمس ملوحة البحر، ونوح تزحلق على إحدى الصخور فأصيب بكدمة منيفة في ركبته، وأنا جرحت إصبعي في أثناء تقطيع الخضراوات على الفطور.

كان يوم شؤم، وكلنا متزعجون من شيء ما إلا يحيى، الذي بدا لي كأساعد رجل في العالم.

أمضى اليوم يسبح معنا، ثم يؤدي مع نوح حركات الفنون القتالية التي يجيدها، ويبني مع نادية القلاع والأهرامات الرملية، وترك صغيرنا يدفئنا على الرغم من أنني حذرته أن لعبة الدفن هذه نذير بالموت.

ليته أنصت إليّ!

لم تفرغ طاقته التي غلبت طاقة طفلينا، انتهى من اللعب معهما، وإذا به يساعدني في تحميمهما، وتطوع على غير عادته لتنظيف الصالة من بقايا رمال الشاطئ التي تناثرت من ثياب سباحتهما، ثم شوى اللحم في الحديقة الملحقة بالشاليه المطل على البحر.

تغدينا أطيب طعام، ثم أعددت لهم عصير الليمون باللبن الذي يعشقونه، فشربناه، ويحيى يشغل الأغاني من الكاسيت، وراح نوح يزعج أخته وهي ترقص ويحاول الاستئثار باهتمام أبيه، حتى غلبنا النعاس جميعاً.

وضعنا الطفلين في سريريهما، ثم أخذت ويحيى إلى النوم. في العادة كان يضع رأسي على صدره حتى أنام، ولكنه هذه المرة وضع رأسه على ذراعي ونام في حضني كما ينام نوح، وتشاءب بارتياح شديد، ثم همس إليّ:

- تعرفي إنك أقوى ست عرفتها يا سعاد؟

- يا سلام!

- طبعاً. ما اللي تخلف من واحد مطيور زي يا إما قوية، يا إما دماغها تعبانة.

ضحكنا. ليحيى ضحكة جذابة تشع حيوية وبراعة.

علقت على كلامه قائلة بحب لم يخفت على مدى ستة عشر عامًا من الزواج:
- يا إما بتحبك يا يحيى.

قبّلني ثم نمنا حتى استيقظت وأذان الفجر على أزيز عجيب ورائحة البارود تملأ الغرفة وسائل دافئ لزج يلطخ وجهي وصدري وذراعي.

فتحت عيني فرأيت عاطف يقف أمامي ومعه شاب عرفت لاحقًا أنه هادي الحكيم.

لم أكن أعرف أن عاطف خرج من السجن، ولم أتخيل أنه سيؤجل انتقامه منا لكل هذه السنوات حتى يأتي بنفسه ويقتل يحيى وهو نائم في حضني.

رأيت أسنان هادي البيضاء تلمع في الظلام بابتسامة شيطانية مرعبة، ثم سمعت أنفاس عاطف تتحسّج وهو يردد باكيًا:

- أنت كنت أخويا، ده أنا سميت ابني على اسمك يا حسن يا قط! خرجت مني شهقة حادة، ثم رأيت عاطف يوجه فوهة مسدسه نحوي فارتاح قلبي، لأنني لن أضطر إلى العيش دقيقة واحدة بعد موت نوأم روحي، ولكنه لم يطلق عليّ رصاصة رحمة يجمعني بها مع زوجي في الجنة، ارتعشت يده وضاعت أنفاسه، ثم جذب هادي من ذراعه وغادرا الغرفة.

في أثناء خروجهما، ضمنت جثمان يحيى الطاهر إلى صدري أكثر، وقبّلت جبينه، وبعدها لم أحرك ساكنًا، عقلي الغي وعيي حتى أنجو من هذه الصدمة فأغشي عليّ.

لا أذكر ماذا حدث بعدها، تناسيت كيف استيقظت ومن اكتشف الجنة، أذكر أنني رفضت أن يفرقوني عنه، وقاومت رجالًا لا أعرفهم لأنهم أرادوا أخذه من ذراعي.

* * *

فقدت النطق ليومين، لا أجيب فيهما عن الناس الذين يعزوني ويرددون جملة «البقية في حياتك».

أي بقية؟ بقية حبه لي؟ مشاكسته ومناكفته لي؟ بقية عشقه لابنيه الصغيرين؟ أم بقية بره بوالديه؟ أتمنون أن يهبني الله بقية العمر الذي لم يلحق يحيى أن يعيشه؟

فليأخذ الله نصف عمري ويعيد حبيبي إليّ، بل فليأخذ عمري كله ويعيد يحيى إلى ابنه ووالديه اللذين تمزقا وزاد عمرهما عمرًا وهما يدفنان وحيدهما.

لم أستعيد نطقي إلا حين أخبرني أنور بأن نادية رأت القاتلين في أثناء خروجهما من الغرفة، لكنها لا تتذكر ملامحهما. قلتُ له إن عاطف هو القاتل، ويجب ألا يورط نادية في تحقيقه بأي شكل ما. لم يأخذ الأمر من أنور سوى بضعة أسابيع حتى وجد أدلة ظرفية تضع عاطف في دائرة الشبهات، ومن حكم معرفتي بعاطف كنت واثقة بأنه سيضعف تحت الشعور بالذنب ويعترف إذا واجهناه بدليل قاطع، ولكنني لم أحسب حساب هادي الحكيم.

قاد هادي الملعون سيارة جيب ورطم بها نوح وقطر عند قصر علي باشا إبراهيم وهما يركبان العجل، فكسرت ذراع نوح وساق قطر. أسرنا إلى المستشفى، وفي أثناء جلوسي أنا ونجوى في غرفة

الانتظار، بينما يتابع أنور تجبير عظام الولدين، دخل علينا شاب
عشريني فارغ الطول يطرق العلكة وتفوح منه رائحة عطر قوية.
جلس إلى جوارى، وأخرج من جيبه علبة قطيفة حمراء فتحها،
فلمحت فيها خاتم زواج ذهبيًا، ومال إليّ قائلاً:

- دكتور عاطف عايز يقابلك كمان ثلاث شهور وإنتي لابسة دبلته
البشعة دي. Pardon على الستايل البلدي ده، حاولت أفتحه إن
ذوقه يقرف لكن مفيش فايده. على العموم ده رقمه، هو منتظر
منك رد بكرة بعد صلاة المغرب، قبل ما الحادثة الجاية تنكسر
رقبة الأولاد بدل دراعهم ورجلهم.

أخرج من جيبه ورقة مكتوبًا فيها بخط اليد رقم أرضي وضعها
إلى جوار خاتم الزواج، وأغلق العلبة القطيفة، وتركها على حجري
وأنا أراقبه مذهولة.

مدّ عنقه نحو نجوى وقال:

- ممكن يا مدام نجوى تقولي لحضرة الظابط جوزك يبطل تدوير
ورانا؟ اللي قتل صاحبه هيروح له القسم كمان يومين.
لم أعرف أن هذا الشاب هو هادي الذي شارك عاطف جريمة
قتل يحيى إلا حين ابتسم هذه الابتسامة الشيطانية التي تكشف أسنانه
ناصعة البياض، ثم نهض يقول ببجاجة جنونية:

- بالمناسبة، عصير الليمون باللبن بتاعك يا دكتورة ممتاز، القمورة
الصغيرة ضايقتني به. ربنا يخليها لك.

نهضت نجوى تنادي أنور، فطارد هادي واختفى ساعات طويلة.
أبلغنا الشرطة، وفعلنا ما بوسعنا، ولكننا لم نجد أنور. بكّت نجوى،

فاحتمالية فقدان زوجها وتهديدات عاطف الصريحة بخصوص أمان
أولادنا أصابتها بالذعر.

«إن كانت نجاة زوجي وأولادنا في رقبك يا سعاد، فلتقدميها لجزارك
واعتبري ذبحك قربان حماية أولادنا». نجوى لم تقل هذا بشكل مباشر،
ولكنني أعرف صديقتي بما يكفي لأدرك أن هذا ما دار بخلدها.
لم أنتظر حتى صلاة مغرب اليوم التالي، اتصلت بعاطف في الليلة
نفسها، وقلت له:

- رجّع أنور لمراته، وسيب ولادنا في حالهم وأنا هجي معاك
بشنطة هدومي في هدوء.

عاد أنور إلى زوجته وابنه فاقدًا عينًا وأجزاء من جلده وبعضًا من
طمأنينته وبهجته كلها.

عرفت لاحقًا أن هادي احتجزه في قبر لا يذكر أنور طريقه،
لأنه اختطفه معصوب العينين، ثم عذبه عذابًا ساديًا كما في الأفلام
الأمريكية الدموية.

اغتربت عن ذاتي يوم خنوعي لانتقام عاطف مني، والسماح
له بحبسي بين قضبان نوافذ بيته، وكلمات مرور أبوابه، وكاميرات
أسواره، وحراس بوابته، كما تسببت في حبسه.

خيل إليّ أنه سيقيني سجينته لخمس عشرة عامًا فقط، ثم يحررني كما
تحرر من زنزائنه، ولكن الأعوام طالت حتى لم أعد أكرث لمصيري.
ربما اعتدت سجنني، ربما نسيت حريتي، ربما خفت العودة إلى
ولدي والاضطرار إلى البوح لهما بالحقيقة فلا يصفحان عني، أو
ربما شعرت بأنني لا أستحق استرداد احترامهما لي.

قطعت علاقتي بنادية ونوح كما يجب على الأم قطع الحبل
السري الذي يربطها بجنينها، ليبدأ حياته خارج رحمها. بقاؤهما
قربي كان سيتسبب في معرفتهما للحقيقة عاجلاً أم آجلاً، فصغيري
ذكيان - خمسة في عين الحسود - في حل الألغاز، وتتبع التفاصيل
للإمساك بالقاتل هو تخصصهما، فاضطرت إلى أن أجبرهما على
التحليق خارج عشي، حتى وإن كان الحل الوحيد هو أن أشوه صورتي
أمامهما ليهجراني، ويأمننا شر عاطف.

لم يهون عليّ سجنني غير المعلن سوى صدور رواية جديدة
لنادية أفرا بين سطورها محاولاتها للتعافي من صدمة مقتل يحيى،
وزياراتي المقتضبة لبيتها للهو مع أحفادي، والصور التي يضعها نوح
على حسابات التواصل الاجتماعي التي صادقته عليها بحسابات
مزيفة، وقراءة اسميهما هو وقطر يتصدران عناوين الأخبار التي تشيد
بمهارتهما الشرطية.

* * *

بُحت بهذا كله لهما، فرأيت الوهن يجتاح وجه نوح، والدموع
المنجسة تحت جفونه تتحرر رويداً رويداً، وتسيل على خديه
الجميلين. لم يعلق حتى بعدما أمسكت عن الكلام، أطرق إلى
الأرض، وكفاه تقبضان على ركبتيه.

لن ألومه إذا رفض قبول حقيقة أنني أضعت أجمل سنين أمومي،
لأنني كنت ضحية مثله، وليس لأنني الشريرة في روايته.

خرجت مني جملة كانت آخر ما يمكن أن أقوله قبل أن أدع لهما
حرية تقرير مصير علاقتنا:

- حقكم عليّ يا ولاد، لو كان في أيدي حل مش بالقسوة دي
كنت تفذته.

نظرت نحو نادية، هي أم مثلي، لا بد أنها ستفهم موقفني وستجعل
نوح يلين بالتبعية، ولكنها رمقتني بعينين محتقتين بالدموع، وصاحت
فيّ بنبرة غاضبة اغتالت أملني في بداية جديدة:

- الكلام ده ما اتحكناش من زمان ليه؟

- عشان أحميكم.

- ده مبرر مقبول لما كنا عيال بريالة، أنا أم وفاتحة بيت، وابنتك
ظابط قد الدنيا، أنا وهو ما كناش هنعرف نحميكي؟ ما كناش

هنلاقي حل زي اللي لقيناه دلوقتي عشان نجس عاطف؟

- ما قدرتش أخاطر ببيكم، خُفت.

- خُفتي ولأ استسلمت؟ أبويا لما مات في حضنك إنتي ما جرتيش

تطمني على ولادك. ما كناش المفروض أشوف بابا في الوضع

ده. ما كناش المفروض إن أنا اللي أكتشف الجثة وأبلغ عنها.

علق نوح أخيراً بصوت متحشرج موجهًا سؤاله إلى نادية بتعاطف

شديد وهو يمسح دموعه بظهر يده:

- إنتي اللي اكتشفت جثة بابا؟

- أيوه أنا، عشان ماما فضلت نايمة جانبه وما كلفتش خاطرها

تفكر فينا.

أبعدت نظرها عن نوح، وبدأت دموعها تفر من عينيها وهي تعبد

توجيه اللوم إليّ:

- ما كناش المفروض إن أنا اللي أشيل نوح وأجري أدور على حد

ينجدنا، ما كانش المفروض أشيل مسؤوليته ومسؤولية نفسي
وأنا عندي خمستاشر سنة! مش المفروض ما أعرفش أنا ما إلا
بمنوم، وما أعرفش أقضي يوم طبيعي إلا بمهدئ عشان إنتي
قررتِ تنسحي من الحياة بعد موت بابا، وبعد كل العذاب اللي
عشناه ده عايزة تلبسينا جميلة نضحياتك؟ لا، أنا مش موافقة
إنك تلعب علينا دور الضحية يا ماما.

ذبحني سخطها الحاد، فتركها تسليخ جلدي وتنزع لحمي عن
عظمي، ثم زاد الأمر بشاعة حين كدت أنهض لأقبل جبينها وأعتذر
إليه، ولكنها رفعت يدها لتمنعي من محاولة الاقتراب منها، ثم
خرجت من الحديقة وهي تبكي.

لا لرم عليك يا نادية يا حبيتي، لو كنت مكانك لما سامحتني أيضًا.
التفت إلى نوح الذي لم يتحرك من مكانه، لا أظن أن عتابه سيكون
أقل حدة من عتاب نادية.

لمست ذراعه بحذر، وقلت:

- ما تكتمش في نفسك، قولي اللي في قلبك وأنا مش هزعل.
نظر إليّ مطولاً، ثم قال أخيراً كلمات خرجت منه ثقيلة ومبحوحة،
كان هناك من يقبض على حلقه:

- إنتي كنت بتصرفي تصرفات مزعجة وأنا صغير، بس ما كنتيش
بتكرهيني عشان تتخلي عني بالقسوة دي. أنا كنت حاسس إن
فيه حاجة غلط، بس مش قادر أحط إيدي عليها، ما هو مش
طبيعي تحرميني منك في أكثر وقت كنت محتاجك فيه إلا لو
فعلاً مجبورة.

- أنا اللي حرمت نفسي منكم يا نوح. يا ابني أنا...
- إنتي وحشتيني أوي يا ماما.

جذب رأسي إلى صدره وضممني إليه، ولف ذراعيه حولي وترك
نفسه يبكي بلوعة، فتخشب في مكاني للحظة وأنا أفكر، أهذا حلم
يقظة وردي؟ هل نوح يعانقني حقاً وسط ظلمة حديقة عاطف
وخفافيشها ويروح بشوقه لي؟

تشبث به وضغطت على كتفيه بأناملتي التي ناقت إلى لمة،
ورُححت أعتذر إليه، وأقبل كتفيه وخديه وجبينه، وأنا أشم فيه أريج
أبيه، وأدرف كل دمعة ادخرتها منذ أن سالت دماء يحيى على صدري.



فبرایر ۲۰۲۰



نوح

أثار بطوط أعصابي للمرة العاشرة منذ دخوله إلى غرفتي .
أمرني بصوته الحاد وحركاته المفتعلة وتعبيراته المبالغ فيها كأنه
هتلر مخاطبًا جماهير الرايخ الثالث:

- إنت واقف عكس النور يا عريس، وشك للضوء، وطي دقنك،
وإنت يا أستاذ امسك بابيونة صاحبك كويس .

كان يجب أن أدرك أنه أحرق في اللحظة التي قالت لي دليلة إن
المصور الذي اختارته لالتقاط صور زفافنا اسمه «بطوط»، أي رجل
عادل هذا الذي يرتضي بأن يكون هذا اسم شهرته؟

جارت المصور المزعج، وغيرت زاوية وقوفي موليًا وجهي
للشمس التي تلقي نورها الدافئ علينا من وراء زجاج شرفة غرفة
الفندق وأنا أتأفف.

على عكسي، نفذ قطز تعليمات المصور ذي الشعر المجذول
جدائل أفريقية مصبوغة باللون الأحمر بسعة صدر، ترحزح معدلاً
البايون، فصاح بطوط ثانية بالنبرة المستفزة ذاتها:

- فرد وشك يا عريس.

لو لم تستمت دليلاً لإيجاد ساعتين في جدول أعمال بطوط بيه،
لكنك حطمت كاميرته فوق رأسه حتى يتعلم كيف يتكلم مع زبائنه
باحترام.

نشرت بحبل الحكمة، ورسمت ابتسامة واسعة زائفة على شفتي
جعلت قطز ينفجر ضحكاً، فالتقط بطوط الصورة وهو يقول:

- أبوه كده Very Natural.

أخيراً ترك قطز البايون، بينما وقف بطوط يفحص الصورة وهو
يقول:

- نجهز للـ First Look!

غادر الغرفة فشمعت بأن الهواء صار أخف وأنقى، وقلت وأنا
أجلس على طرف السرير لأحكم ربط حذائي:

- أبو سماجتك!

- سمج بس شاطر.

- يا عم هو فرح ساموزين عشان الشقيلة والفلاشات دي كلها،
ما كان أي حد عنده كاميرا نضيفه خدلنا صورتين بدل ذكر البط
اللي عمال بيع ويشترى فينا من الصبح ده.

دخلت جدني الغرفة في فستانها السواريه ذي طبعة النمر، ثم
وقفت مكانها، ووضعت يديها عند قلبها، وقالت برقة:

- Mon Dieu، شكلك حلو أوي يا نوح!

اغرورقت عيناها بدموع الفرح فعانقتها، بينما ربت قطز على
ظهرها وقال:

- بلاش عياط يا تيتة، رموشك هتقع.

توقفت عن بكائها الرقيق، وضربت قطز بحقيبتها السواريه
الصغيرة بعنف وهي تقول:

- أنا مركبة رموش يا طويل التيلة، ده أنا طول عمري رموشي ولا
رموش سعاد حسني.

- ما سعاد حسني برضو كانت مركبة رموش يا تيتة.

ضربته مجدداً وكادت تعلق بشيء، ولكن دخول أمي إلى الغرفة
جعلها تمسك عن الحديث.

ساعدتني أمي خلال الأشهر الخمسة الماضية على تخطي عقدي
تجاهها، وبدء صفحة جديدة معها، وكذلك فعلت نادية بعد كثير من
العناد والانهيار وجلسات التعافي النفسي، حتى بدأ ثلاثتنا يتطهر من
سميات العقدين الماضيين. ولكن هناك إنمالم أتمكن من تبرئة أمي
منه، إيمانها الشديد بالخرافة والشعوذة الذي نغص علي طفولتي،
وجعلها تعاملني معاملة الملبوس.

ها هي ذي توقظ بداخلي صدمات الطفولة وهي تدخل الغرفة
حاملة مبخرة لا أدري كيف هربت إلى داخل الفندق، وبدأت تطوحها
باحترافية يميناً ويساراً وتتمتم قائلة:

- من عين الجدع اللي فيها ودع، ومن عين المرة اللي فيها شرشرة،
ومن عين كل اللي...

قاطعت سونة تعويذة أمي، وصاحت فيها صياحاً يقطع سعالها
من دخان البخور الثقيل:

- إيه العبث اللي بيحصل ده؟!

أجابتها أمي وهي تقف خلفي وتؤرجع المبخرة:

- هبخر ابني.

- طلعها قبل ما سينسور الدخان يضرب والمية تهطل ابنتك
يا سعاد. يخرب بيت الجهل!

بمجرد أن بدأت سونة تتمم وتغمغم بالفرنسية، تدخل قطز وأخذ
المبخرة من أمي، ثم فتح باب الشرفة فتسللت برودة بداية فبراير إلى
الغرفة الدافئة، ووضع المبخرة على الطاولة الرخامية وأحمد جمرها.
عاد إلى الداخل، فأعطته جدتي مزيدًا من الأوامر وهي تمد يدها
نحوه:

- خذني لطارق ونادية عشان نشوف لو القاعة ناقصها حاجة،
أحسن فيه ناس معينة كده لو فضلت معاهم في نفس المكان
هر نكب جريمة.

أسرع بمسك يدها ثم خرجا معًا، بينما بقيت في الغرفة مع أمي
التي نظاهرت بأنها لم تسمع تلميح جدتي.

انثشت سترة بدلتي المعلقة فوق المشجب، ودست يديها في
جيوبها كلها وانثشت شائبة ما من عند منطقة الكتفين، ثم ساعدتني
على ارتدائها وهي تتلو المعوذتين وتُسمي وتكبر وتستعيد بالله من
الشیطان ومن عين الحسود.

ارتدبت سترتي، ولكنني تحسست شيئًا غريبًا في جيبيها الداخلي،
فدلمست يدي فيه، وأخرجت منه قطعة قماش بيضاء مخيطة على
شكل مستطيل، وحين مررت إصبعي عليها شعرت بأن هذا خلعها شيئًا
غريبًا، فأمرعت أمي تقول:

- سيبه ري... ر
شمعت، فاستنشقت رائحة عطن عجيبة جعلتني أكرمش أنفي وأقول:

- إيه الحرز اللي حطاه في جيبك ده؟

- حجاب حراية، ارتحت؟

طبعت قبلة على جبينها، وقلت متوسلاً:

- أبوس دماغك، إحنا كده هنرجع لنقطة الصفرا!

- يا عبيط، إنت مش شايف شياكتك وهيتك، ولا عروستك، الله
أكبر عليها ربنا يحفظها، ملاك ماشي على الأرض. أنا بحميكم
من العين يا ابني.

- الحراية اللي هتحمينا؟ كانت حمت نفسها قبل ما تمثلوا بجشها
وتعملوها حجاب.

- ما تهرجش في حاجة إنت مش فاهمها يا نوح.

- إوعي يا ماما تكوني حطيتي لدليلة حاجة هي كمان.

نظاهرت بأنها لم تسمعني، وفتحت حقيبتها تبحث عن شيء ما،
فأصررت على سؤالها:

- عملت إيه ماما؟

- عملتلها عروسة، وفقعت عين الحسود. رجع بقى الحجاب
في جيبك.

- هو أنا زعلان عشان أمشي بهحراية ميتة؟ ما بلاش الحاجات
اللي تولد الكفر دي، خللي ربنا يباركلنا في ليلتنا.

انثشت مني الحجاب، وألقته في حقيبة يدها بضيق وهي تقول:

- الحق عليّ إني بخايعة عليك. انفض، اقلع بابيولتك دي.

أخرجت من حقيبتها علبة قطيفة بداخلها بايون أسود أنيق به
لمعة ولت صبيحتها، أطالت النظر إلى البايون ثم قبلته، وقالت
بابتسامة واسعة:

- دي البايونة اللي اخترتها لأبوك عشان فرحنا. وإننت صغير كنت
تلاقيها في الدولاب وتربطها على قورتك زي سلاحف النينجا،
وأبوك يقولك بكرة تكبر وتبقى عريس وأربطها لك بنفسي.
فرت منها دمعتان وهي تتذكر أبي، فمسحتهما بأناقلي، فقبلت
كفي.

قدمت لي بايون أبي، ولكني لم أخذه منها، مددت عنقي نحوها
قائلًا:

- بابا كان هيجب إنك تربطها لي بنفسك.

اتسعت ابتسامتها، وعانقتني، وراحت تربت على ظهري بحنان.
ليت بطوط الزفت هنا ليلتقط لنا صورة تخلد اللحظة التي شعرت
فيها بأن لي أمًا أستحق أن ألقى رأسي على صدرها!

* * *

في الأمس، استحلقتني دليلة بالله أن أبكي عند رؤيتها، وشددت
على أهمية دموعي، كأن هذا ركن من أركان شرعية الزواج.
وقفت في صالة الفندق ممسكًا باقة التوليب التي سأهدئها إياها،
موليًا ظهري للسلالم التي ستزلها بفستان الزفاف لألقي عليها نظرة
أولى سيوثقها المصور الواقف على يميني بالكاميرا مثل قناص
محترف.

انتظرتها، يجاورني قطز وطارق الذي همس إليَّ بجدية:

- اتفاجئ وعدي ليلتك على خير، أي حاجة صالحة عملتها في
حياتك هتتمسح بأستيكا لو ما اديتهاش وضعية الانبهار.
أضاف قطز وأنا أعدل كُم البدلة وأتجنب النظر مباشرة إلى المصور
المستفز:

- لو ما عرفتش تعيط اتشحتف وهز كتافك، وهي مش هتاخذ
بالها إن مفيش دموع.
كنت سأسخر من نصائحهما، ولكني سمعت الزغاريد من خلفي،
فأدركت أن دليلة تنزل السلالم.

كدت أستدير، ولكن القناص النازي أمرني:

- اثبت مكانك يا عريس، ما تلفش دلوقتي!

تسمرت في مكاني وأنا أسبه في سري، ثم طرقت أصابعه نحوي
بمعجزة ليعطيني الإذن لرؤية عروسي.

التفتُ خلفي ورأيتها، تخطف القلوب بابتسامة هي أجمل ماراته
عيناي، وبفستان ملائكي رقيق يليق بأميرة نبيلة.

نزلت السلالم بدلال، متأبطة ذراع خالها، ومن ورائها حماتي
التي لم تتوقف دموعها عن الانهمار، وأمي ترميها بالملح، بينما
تسهب نادية وجدتي في الزغاريد، وليلو تحمل ذيل فستان أختها
الرقيق الطويل.

ماذا أقول، امرأتي جميلة؟

هذا وصف مبتذل، النساء كلهن جميلات، ولكن لسن كلهن
دليلتي التي كلما ذهب في مشوار مع الموت، انتشلتني منه لتكون
النور في آخر النفق الذي يريني جنة الله على الأرض.

هي الحبيبة التي نجدتني من موت محتوم منذ ثلاث سنوات،
وصدقت أنني أرى أرواح الموتى من دون أن تنعتني بالمجنون أو
الملبوس، التي تحملت غبائي العاطفي، التي أصيبت بندب غائر في
مرفقها لأنها هجمت بضراوة على من حاول قتلي في المستشفى،
التي رافقتني في ظلمتي وصممتني حتى جذبتني إلى الحياة مرة أخرى.
هي دليتي، وهذا في حد ذاته نعت لأقرب صورة بشرية ممكنة
للكمال.

أفلتت مني دمة طبيعية لا تلبية لطلبها، ولا خوفاً من عقاب
حذرني منه طارق وقطر، ولا انصياعاً لأوامر المصور الذي سأوسعه
ضرباً لو أعطاني أي تعليمات أخرى حتى نهاية الزفاف. دمعتي كانت
امتناً حقيقياً لأن الله جمعني أخيراً بمن أحبها، بعدما ذللنا معاً
عشرات العقبات التي حالت دون هذه اللحظة.

سرت نحوها وأهديتها باقة التوليب التي بدت ذابلة أمام بهائها
وحسنها النضر.

عانقتها وقبّلت جيئها بين زغاريد نساء العائلتين ونثرات ملح
أمي الخشن وفلاش الكاميرا.

بكت بسعادة فمسحت دموعها وأنا أضحك فضرب الفلاش
أعيننا.

سأعترف، كانت هذه لقطة ممتازة يا بطوط.

* * *

رافقتنا فرقة الزفة إلى القاعة التي امتلأت برفاقنا وأقاربنا.
اختارت دليلاً كل شيء، توزيع الطاولة، مساحة المسرح، ألوان

الإضاءة، نمط المفروشات، باقات الزهور البلاستيكية التي تتوسط
الطاولات، أصناف البوفيه، قائمة الأغاني. باختصار، اختارت كل
شيء، وأنا اكتفيت بأنني اخترتها هي.

جلسنا في الكوشة على الحان «طلي بالأبيض» لماجدة الرومي.
سلم علينا المعازيم، وكتبنا الكتاب، ثم رقصنا رقصتنا الأولى بوصفنا
زوجين على أنغام مقطوعة كلاسيكية عزفها لنا زملاء دليلاً في الأوبرا.
انتهينا من كل هذه اللحظات اللطيفة، ثم بدأ «الفرح» بمعناه
الحقيقي حين تغيرت الموسيقى، وسمعت طبلًا بإيقاع أغنية أعرفها
جيداً.

جاء عمو أنور إلى الكوشة، ومال إليّ وقال وهو يربت على كتفي:
- حبتلك هدية.

أشار إلى أقصى يسار المسرح فرأيت ما كان يقصده بالهدية،
وكاد قلبي يقف من فرط الحماسة حين أدركت أنني لا أسمع
كلمات أغنية حكيم من سماعات الدي جي، بل من حكيم بشحمه
ولحمه وهو يقترب مني ممسكاً الميكروفون، ويغني أغنية الأعراس
الأشهر له:

الليلة ليلتك يا معلم

يلاً بقي يا قلبي اتعلم

قفزت في مكاني كالمجذوب، وقبّلت رأس عمو أنور بسعادة

غامرة.

أظن أن بادرة إحضار حكيم إلى زفافي ليست مجرد هدية بريئة
منه، أشم في هذا رائحة رشوة.

لم يجبرني قطز بما اكتشفه عن أبيه، أجبر عمو أنور على الاعتراف إليّ وهو يكي ويعض على شفثيه من الندم، وأمي تعزز موقفه، وتخبرني بأنه دفع عينه في محاولة للثأر لأبي. أتدرون ماذا فعلت؟ لم أعاتبه بكلمة واحدة.

لن أنكر أنني استنكرت معرفته بأن أُمِّي حبيسة بيت مجرم تبغضه لقراة العقدين، وأنها فعلت هذا لا لتحميننا نحن فحسب، بل لتجد عمو أنور حتى يتوسط عاطف ويخلصه من تعذيب هادي. أعرف أنه لو انقلبت الآية ما كان أبي لترك طنط نجوى تضحي بنفسها من أجله، ولكنني صفحت عنه لخاطر قطز، أعلم أن العلاقة بينهما ستعكر إلى الأبد لو أنني لم أنخطأ هذا الموقف.

من العدل أن أسامحه، فليس كل العدل عقاباً رادعاً، كثيراً ما يكون العدل هو الصفح الرحيم.

بالطبع لا يستحق الجميع هذا الصفح، صفحت عن أُمِّي وعمو أنور لأنهما حاولا القيام بالشيء الصحيح، حتى وإن كان قد نتج عن هذه المحاولات كثير من العذاب، ولكنهما على الأقل حاولا واعتذرا، أما في حالة القنلة أمثال عاطف، فالعين بالعين.

لم أكرر خطأ انتقامي من «أبو قرن» قاتل زميل طفولتي، حرصت أنا وقطرز ووليد على أن نضعه في مكانه الطبيعي، السجن، حتى وإن لم تتمكن من إثبات تورط مصحاته المسجلة باسم آمنة الدغش في أي أعمال مشبوهة.

كان لعاطف رأي آخر، في ليلته الأولى في الحجز وقبل أن يُعرض على النيابة مات مختنقاً وفي قبضته حبات من الفول السوداني.

ما لي وعاطف الآن! فليذهب إلى الدرك الأسفل من الجحيم، أنا أسعد إنسان على وجه الأرض.

تفاعلت مع توالي أغاني حكيم، ورقصت معه كأنه خالي الذي تألف جدران غرفتي صوته، والذي طالما عرف كيف يتشلىني من توترتي، ويخفف عني ضغوطتي بحنجرته المبهجة.

ضحكت دليلاً حتى دمعت عينها وأنا أرقص، ولم تتوقف ليلو عن تصويري فأدركت أن حماسة المعاتبة التي أصابني قد وصلت إلى ذروتها، وأني على الأغلب سأتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني حين أرى نفسي في هذه الفيديوهات، ولكنني لن أكبت سعادتي حتى وإن بدوت أبله!

وقف حكيم إلى جوارتي، يغني «حلاوة روح»، ويشير إليّ كلما قال:

بابا يا بابا يا بابا

أسندت دليلاً ظهرها إلى صدري، وأنا أضمها بذراعي فتتمايل على إيقاع الأغنية، ومن حولنا أحباؤنا كلهم.

آسيا الحامل في شهرها الثاني، وقطرز يراقصها بيد، بينما يمسك طاهر الجالس على كتفيه باليد الأخرى.

وليد عطية الذي تقاعد من وظيفته ضابطاً مباحث، وبدأ رحلته في كتابة السيناريو، يرقص مع خطيبته سيليا، ويهمس إليها في أذنها بشيء يضحكها بين كل لحظة وأخرى، أعتقد أنهما يسخران من منظر صلاح وزوجته الجديدة، شكرية، تطعمه الجاتوه.

نادية وطارق يصوران تالا وهي تؤدي حركات باليه تتنافر مع شعبية الأغاني التي نرقص عليها من دون أن يتبها إلى أن يحيى ويأسر

يزحفان أسفل الطاولات ويقرصان سيقان المعازيم. حماتي وجدتي
وأمي يذرفن دموع الفرح، ويذكرن الأموات الذين كانوا سيفرحون
كثيراً لو كانوا بيننا الآن.

اللواء رشوان وزوجته مدام إيفون في رفقة عمو أنور وطنط نجوى،
يصفقون بوقار، بينما يحاول فادي التعرف إلى إحدى صديقات دليلة.
في ذروة سعادتي، تأملت كل ما مررت به في حياتي، لأتوصل إلى
حقيقة لا مفر منها؛ لا ينجو الإنسان إلا بالإنسان، فنحن الداء والدواء.
قاتل أبي وقاهر أمي والمحرض على قتلي كان إنساناً، وأبي الذي
استشهد في سبيل تأدية واجبه كان إنساناً. قطز الذي غامر بكل شيء
لإنقاذ إنسان، جداي اللذان ربياني وحمياني من فساد أخلاق العالم
إنسانان، أمي التي قدمت نفسها قرباناً لعاطف كي تقيني شره إنسانة،
عمو أنور الذي دفع عينه فداء أن تبقى أحياء إنسان، نادية التي لعبت
دور أمي على الرغم من أنها تكبرني بخمس سنوات فقط إنسانة.
التي دلتني على الحب والأمان والطمأنينة واثمتتني على نفسها
وسترت ضعفي ووهني إنسانة.

اسمحوا لي أن أنحاز إلى حبيتي قليلاً، فهي ليست مجرد إنسانة،
هي نجاتي، ومؤنستي، وأخيراً صارت زوجتي.





@ART_OF_BOOK

